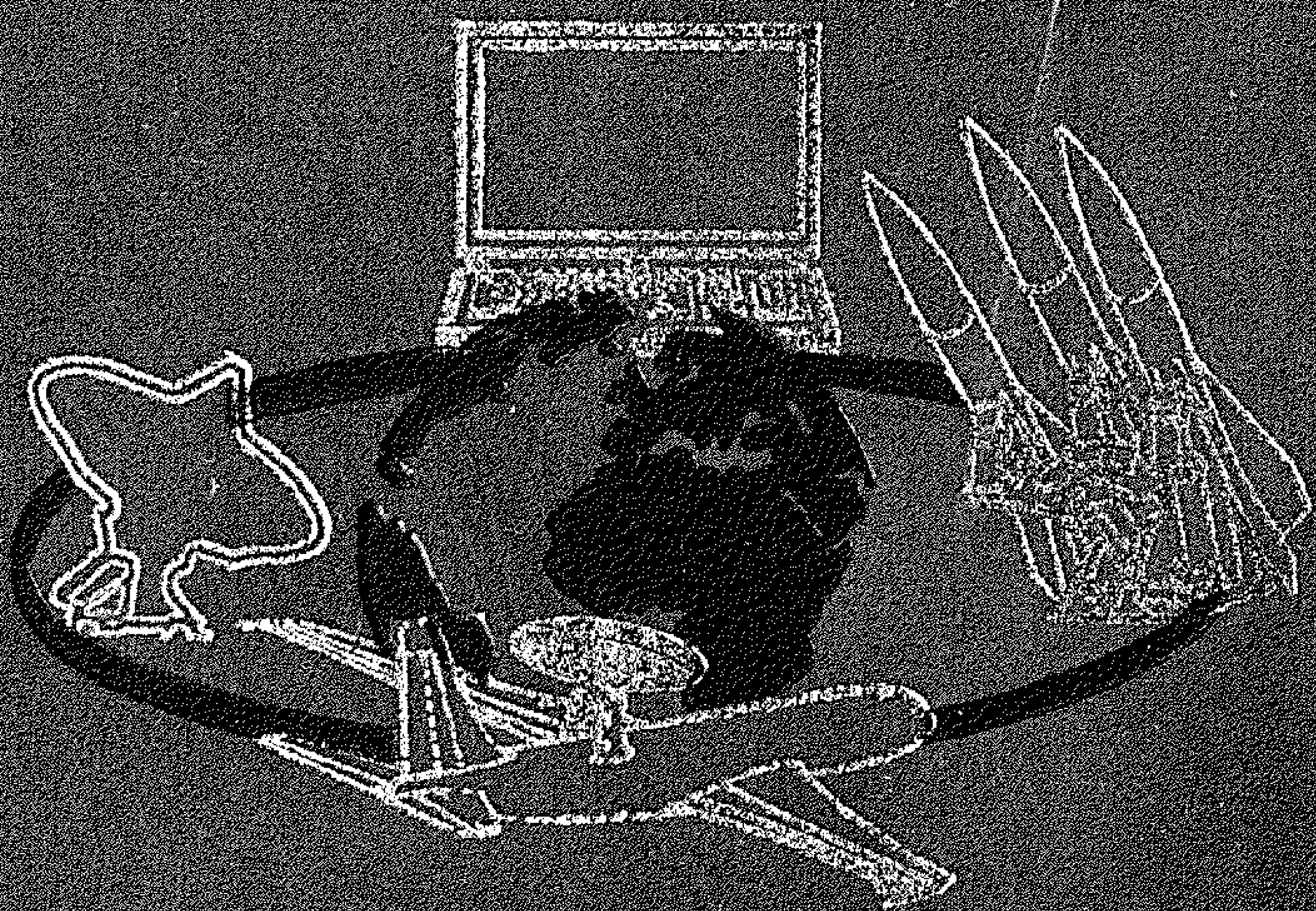
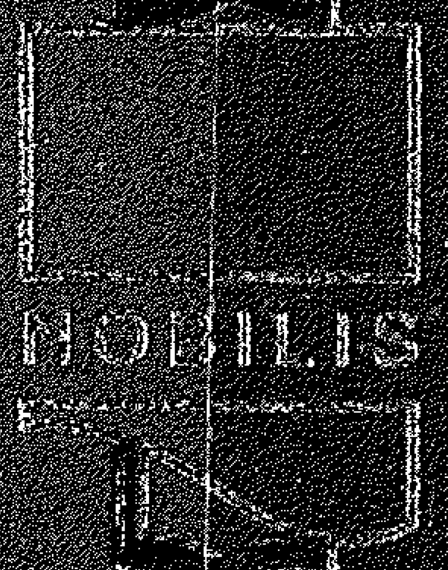
موسوعة

عالم المخابرات

كل شيء عن الجاسوسية والاستخبارات في العالم





موسوعة عَالَم المخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارات في العالَم

من أبرز الوقائع الجاسوسيّة

إسم المَجموعَة	:	عَالَـــــم المُخابَرات كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبَارَات في العَالَم
إسم الكِتَاب	:	من أبرز الوقائع الجاسوسيّة
الجزء	:	الرابع والعشرون
المؤلّف	:	أسعَد مفرِّج ولجنَة من البَاحثين
قياس الكتَاب	:	٢٠ × ٢٨
مكَان النَّشر	:	بيروت
دار النَّشر والتَّوزيع	:	NOBILIS
تلفاكس	:	٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	:	٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

السجلُّ الأسوَد للـ CIA

ذكر باحثون أنّ الروائح الكريهة للعمليّات الخارجيّة لوكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA قد أزكت الكثير من الأنوف، وأضحى أيّ حدث، مهما كان صغيرًا في العالم، مرتبطًا مباشرة بوجود أصابع للـ CIA فيه، وهذا ما خلق موجات من التساؤلات والاستفسارات عن طبيعة أعمال ومهمّات وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة.

لم يقتصر هذا النشاط العملانيّ على خارج الولايات المتّحدة الأميركيّة، بل تعدّاه ليشمل أميركا نفسها، وهذا ما تسبّب بوجود فضائح ضخمة ومتعدّدة لاقت من الصحافة الأميركيّة كلّ اهتمام وتسليط الأضواء مجدّدًا على عمل هذا التنّين في الداخل والخارج.

وإذا كان "وليام كولبي"، المدير السابق لوكالة المخابرات الأميركيّة، قد أقرّ، متأسّفًا! بارتكاب الوكالة لبعض الأخطاء في الماضي، في ما يتعلّق بمحاولات اغتيالات للكثير من الزعماء الوطنيّين في بلدان مختلفة، من هذه المحاولات ما قد نجح ومنها ما فشل، وإثارة اضطراب ومشاكل وقلاقل كمقدّمات طبيعيّة لانقلاب هنا وثورة هناك، واغتيال معارض أو زعيم نقابيّ... فإنّ انفضاح الكثير من الحيل ومؤامرات التخريب والتجنيد للمرتزقة، وذلك عن لسان كولبي نفسه في مذكّراته "رجال شرفاء: حياتي داخل الـ CIA"، مدعومة كلّ هذه الأعمال بالوثائق والحقائق والأرقام والأسماء، يدلّ

على أنّ ما حصـل لـم يكـن بعض أخطـاء هنـا وهنـاك، بـل هـو بالنهايـة طبيعـة عمـل ومهمّات الوكالة المركزيّة الأميركيّة داخليًا وخارجيًا.

كان "تشيرش" مرشّحًا لرئاسة الجمهوريّة في دورة ١٩٧٦، منافسًا لـ"كارتر"، ومـع انسحابه من المعركة الرئاسيّة بعد أن رجّحت استطلاعات الرأي فوز منافسه، عمد في ٢٢ تشـرين الثـاني ـ نوفمبر ١٩٧٥ إلـى توزيـع تقريـره حـول تجـاوزات الـ CIA الخارجيّة تحت عنوان "مؤامرات مزعومة لاغتيال قادة الدول الأجنبيّة".

أنهت لجنة تشيرش كافّة تحقيقاتها وسماعها للشهود على مدار ٦٠ يومًا بين عـامي ١٩٧٥ و١٩٧٦، وخلصت إلى طباعة تقرير اللجنـة فـي سـجلّ ضخـم حـوى ٨,٠٠٠ صفحة، مؤكّدين في نهاية هذا التقرير أنّهم لم يتمكّنـوا مـن التحقيـق فـي كافـة الأمـور، وأنّ الكثير من الغموض شاب كلّ الشهادات حول العمليّات السريّة للوكالة فـي العـالم. واستنتج التقرير بالنهاية أنّ الوكالة المركزيّة الأميركيّة عالم منفصل قائم بحدّ ذاته تتّسم العلاقة بينها وبين أجهزة الدولة بدءًا من رئاسة الجمهوريّة إلى الكونغرس بـالكثير مـن الغمـوض والتحـايل وعـدم وضـوح العلاقـة الدقيقـة والتنظيميّـة بيـن الوكالـة وبقيّـة المؤسّسات الحكوميّة تحت حجّة ضمان الأمن القوميّ الأميركيّ، علمًا بـأنّ الكثير من الخطط المنفّذة تمّت بناء لتوجيهات وأوامر مجلس الأمن القوميّ الأميركيّ.

قامت اللجنة بالتحقيق بتورّط الـ CIA فـي خمسـة بلـدان أجنبيّـة سلّطت الأضـواء علـى أحداثهـا الصحافـة الأميركيّـة، وبـالذات صحيفـة " نيـو يـورك تـايمز" وصحيفـة "واشنطن بوست"، وهذا التورّط تمّ تحت إسم "كوديّ" أو "مرمّز" اختير لـه: "الجوهر"، عام ١٩٧٣. وهذه البلدان الأجنبيّة هي: تشيلي حيث كان الهدف إغتيال الجنرال "رينيـه شنايدر"؛ وفيتنام الجنوبيّة حيث كان الهدف القضاء علـى "نغوديـن دييـم"؛ وكوبـا حيث كان الهدف التخلّص من "فيدل كاسترو"؛ والكونغو التي أصبحت تعرف باسم زائير،

حيث كان الهدف تصفية "باتريس لومومبا"؛ وجمهوريّة الدومينيكان حيث كان الهدف قتل "رفائيل تروخيلّو".

هذا عدا تورّط الـ CIA بالكثير من العمليّات القذرة الخارجيّة والتي لم يُسمح للجنة بنشرها في سجلّها حفاظًا على سلامة الأمن القومي الأميركيّ[١].

الـ CIA من خليج الخنازير إلى اغتيال كينيدي

طرح تبدّل السلطة الرئاسيّة الأميركيّة في كانون الثاني ـ يناير ١٩٦١، وانتقال البيت الأبيض من الجمهوريّين إلى الديمقراطيّين، بصورة طبيعيّة، مسألة ما إذا كانت وكالة المخابرات المركزيّة CIA قد تدخّلت أم لا في المعركة الانتخابيّة. حول هذا الموضوع، ثمّة بعض الافتراضات التي لا يمكن التحقّق من صحّتها.

لقد عمل نائب الرئيس الأميركيّ "ريتشارد نيكسون"، مرشّح الحزب الجمهوريّ للرئاسة، ثماني سنوات جنبًا إلى جنب مع "ألن دالاس"، رئيس الـ CIA، وكانت تربطهما علاقات عمل جيّدة. فقد ساعد "نيكسون" "دالاس" في التخلّص من التحقيق في أعمال وكالة المخابرات المركزيّة الذي كان ينوي القيام به السيناتور "جو ماكارثي"، الذي كان يشكّ في يساريّة بعض العاملين في الوكالة.

طرح "نيكسون" خطّة إعادة تنظيم وكالة المخابرات المركزيّة أملاً منه في أن يصبح رئيسًا. لا نعرف في ما إذا كان "ألن دالاس" على علم بهذه الخطّة، وفي ما إذا

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ترجمة لطيف الناصر، دار الحسام (بيروت،١٩٩٠) ص٧٥ ـ ٧٦.

كان "نيكسون" قد عرض عليه أفكاره بهذا الخصوص. غير أنّ "نيكسون" إثر فشله في الانتخابات الرئاسيّة، أطلع "جون كينيدي" على هذه الخطّة. وبناء على طلب الأخير بتقديم تقرير وصفيّ عن وكالة المخابرات المركزيّة، عبّر "نيكسون" كما يظهر من مذكّراته، عن وجهة النظر التالية: "في ما يتعلّق بوكالة المخابرات المركزيّة، كنت أعتقد أنّ وظائفها، في ذلك الوقت، مفرطة في الاتّساع. وعليها أن تتحمّل المسؤوليّة الأساسيّة عن جميع المعطيات الاستخباريّة وتقويمها. في هذا المجال كانت تعمل الوكالة بصورة جيّدة. لكنّني قلت إنّه كان لديّ خطّة، في حال انتخابي رئيسًا، لتشكيل منظّمة جديدة مستقلّة، تقوم بتنفيذ العمليّات السريّة شبه العسكريّة[١]".

في أواخر الأربعينات، سعى "ألن دالاس" جاهدًا من أجل إخراج آلية العمليّات التخريبيّة السريّة من رقابة وزارتَي الدفاع والخارجيّة، وتمكّن "دالاس" من تحقيق هذا الهدف في العام ١٩٥١، حيث تمّ إدخال مديريّة التخطيط بكاملها ضمن ملاك وكالة المخابرات المركزيّة. والآن عزم نيكسون على أن يأخذ من صلاحيّات وكالة المخابرات المركزيّة تلك الوظيف التي كانت تبتلع ثمانين في المائة من ميزانيّتها حسب تقويمات المجلس الرئاسيّ لنشاط الاستخبارات. وإذا ما افترضنا أنّ "ألن دالاس" كان مطّلعًا على نوايا "نيكسون" فمن المشكوك فيه، أن تكون لدى "دالاس" رغبة كبيرة في رؤية نيسكون سيّدًا للبيت الأبيض.

بعد مرور فترة من الزمن اتّهم "نيكسون" وكالة المخابرات المركزيّة بمساعدة "جون كينيدي". وكانت الإشاعة التي نشرها البنتاغون حول "التخلّف الصاروخيّ" للولايات المتّحدة عن الاتّحاد السوفياتيّ، بداية الدسيسة. لقد دحض البيت الأبيض

---

١ - Nixon R. M., *Six Crises*, (New York, 1968), P. 441

و"نيكسون" هذه المزاعم، غير أنّها كانت قد التقطت من جانب الديمقراطيّين، الذين يفتّشون عن ذريعة للتشهير بمنافسيهم الجمهوريّين وإضعافهم.

أصدر البيت الأبيض تعليماته إلى وكالة المخابرات المركزيّة بتحليل توازن القوى بين الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفياتيّ. ولم يُظهر تحليل الوكالة "تخلّفًا صاروخيًّا".

في أثناء الحملة الانتخاليّة، نظّمت وكالة المخابرات المركزيّة اجتماعات مع "جون كينيدي"، واعتقد البيت الأبيض أنّ الوكالة ستطلع "كينيدي" على نتائج تحليلها، الأمر الذي سيرغمه على حذف مسألة "التخلّف الصاروخيّ" من جدول أعمال حملته الانتخابيّة. لكنّ الوكالة، كما أعلن نيسكون في ما بعد، أخفت، عامدة متعمّدة، تقويماتها ونتائج تحليلها عن مرشّح الحزب الديمقراطيّ، ولم تقنعه بخطأ النظرة القائلة بالتخلّف الأميركي، وبالتالي، أبقته على غير اطّلاع على هذه المسألة الهامّة[1].

لم يبخل "جون كينيدي" بالوعود المغرية بالتغلّب على "التخلّف الصاروخيّ" الأمر الذي كان له دوره في قراره بعد أن أصبح رئيسًا للولايات المتّحدة، بتصعيد سباق التسلّح وتحقيق قفزة كبيرة في مجال البناء الصاروخيّ - النوويّ.

الاجتماعات المخصّصة لمرشّح الحزب الديمقراطيّ كان يديرها، عادة، "ألن دالاس" شخصيًّا، الذي كان يحظى باحترام وتعاطف كبيرَين من جانب الرئيس المقبل وأخيه "ريتشارد كينيدي"، حسب ذكريات المقرّبين من "جون كينيدي". وكانت سمعة مدير وكالة المخابرات المركزيّة في أعينهما لا تقبل الجدل.

---

١ - Powers Th., *The Man Who Kept The Secrets,* (New York,1979) P. 201.

إنّ "ألن دالاس" الذي كان عليه أن يختار بين نائب خبير للرئيس لديه خطّة لإعادة تنظيم الاستخبارات، وبين السيناتور كينيدي الضعيف الخبرة نسبيًّا، قد فضّل، بينه وبين نفسه، الأخير ظنًّا منه بأنّ أمور الوكالة سوف تكون أسهل معه.

على أيّ حال، تدلّ الوقائع المختلفة على أنّ تغيّر الحزب الحاكم في البيت الأبيض لم يسبّب القلق لقيادة وكالة المخابرات المركزيّة، فقد تنبّأت باستمرار الاستراتيجيّة السريّة. والدليل على ذلك استمرار مخطّطات تنظيم تدخّل القوّات المأجورة في كوبا.

كان "أيزنهاور" قد كلّف الوكالة في ١٧ آذار ـ مارس عام ١٩٦٠ بما يلي:
١) جمع وتعبئة جيش للتدخّل في جزيرة كوبا، يتألّف من المهاجرين الكوبيّين؛
٢) تشكيل تحالف سياسيّ بين الفئات والمنظّمات الكوبيّة المختلفة، المهجريّة المعادية للثورة، بهدف تحوّلها في المستقبل إلى حكومة كوبيّة، في حال نجاح التدخّل[١].

هناك روايتان مختلفتان حول الفترة التي اطّلع فيها "جون كينيدي" على البرنامج السريّ للعمل على تنفيذ خطّة "أيزنهاور". يؤكّد نيكسون"، على أنّ "جون كينيدي" اطّلع على الخطّة في أحد الاجتماعات النهائيّة مع وكالة المخابرات المركزيّة، وفي ذروة الحملة الانتخابيّة[١]. أمّا "شليزنغر الأصغر" فينفي ذلك، ويصرّ على أنّ "ألين دالاس" ونائبه "بيسيل" قد أطلعا "جون كينيدي" للمرّة الأولى، على برنامج القضاء على الثورة الكوبيّة بعد الانتخابات وتحديدًا في ١٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦٠[١].

---

١ ـ Schlesiger A. M. Junior, *A Thousand Days, John Kennedy In TheWhite House,* (Boston,1965), P. 226.

٢ ـ Nixon R. M., *The Memoirs,* Vol. 1, (New York,1979), P. 272.

٣ ـ Schlesiger A. M. Junior, *A Thousand Days,* P. 226

يقول "شليزنغر" إنّ خبر الخطّة الذي نقله "دالاس وبيسيل" كان مفاجأة لـ "جون كينيدي"، وإنّ الرئيس المقبل، كان قبل أربعة أيّام خلت، قد أعطى توجيهًا بدراسة مدى فائدة سياسة الحصار الاقتصاديّ لكوبا. وطالب أيضًا، بدراسة إمكانات تطبيع العلاقات مع كوبا.

قبل ذلك، وفي أثناء الحملة الانتخابيّة، وقف "جون كينيدي" موقفًا عدوانيًّا من "جزيرة الحريّة". وفي تعليقها على هذا الموقف، كتبت الصحافة الأميركيّة تقول بأنّ "جون كينيدي" يفكّر بالتدخّل العسكريّ وتقديم المساعدة لأعداء الثورة الكوبيّين. حاول "ت. سورنسون" المستشار الخاصّ للرئيس "جون كينيدي" تصوير نزعته العدوانيّة تجاه كوبا، قبل الانتخابات، من زاوية بريئة. فقد كتب يقول: "إنّ كينيدي، خلافًا لتأكيدات نيكسون اللاحقة لم يكن مطّلعًا على أنّ وكالة المخابرات المركزيّة تعدّ، بصورة سريّة، قوّات من المهاجرين الكوبيّين للتدخّل في كوبا. ولم يكن لديه أيّ مقترحات أو متطلّبات محدّدة، تجاه كوبا. وهذا ينطبق أيضًا، على مستشاريه الذين لم يكن لديهم أيّ تصوّر عن مخطّطات وكالة المخابرات المركزيّة[١]".

إذا صدّقنا شليزنغر وسورنسون، فإنّ تصريحات "كينيدي" العدوانيّة تجاه كوبا الثورة كانت ذات طابع خطابيّ انتخابيّ، ولم يكن لديه أيّ مخطّطات لاستخدام القوّة في كوبا، وفي المقابل، كانت لديه أفكار حول تطبيع العلاقات مع كوبا. أمّا نقطة التحول في اتّجاهه، فقد كانت مخطّطات وكالة المخابرات المركزيّة، التي كادت أن تفرض عليه فرضًا، والتي أدّت إلى فشله الكبير الأوّل في السياسة الخارجيّة.

---

١ - Sorensen Th., *Kennedy,* (New York,1966), P. 232.

يقول "سورنسون" في مذكّراته: "بعد الفشل حدّثني الرئيس عن هذا الموضوع في البيت الأبيض في أثناء نزهاتنا. كان يشعر بالهول والفظاعة من غبائه، وكان مفعمًا بالسخط، لأنّ بعضهم قدّم له نصائح سيّئة، بينما وضعه بعضهم الآخر في حالة حرجة[١]".

إذا ما ألقينا نظرة متمعّنة إلى ما حدّث "كينيدي" مستشاره "سورسون" عنه، أدركنا الدور الذي قامت به وكالة المخابرات المركزيّة في دفع الرئيس إلى هذه الخطوة الخطيرة. لكن قبل أن نعالج هذا الجانب من المسألة، يجب التأكيد على أنّ البذور التي زرعتها وكالة المخابرات المركزيّة قد أعطت ثمارًا غزيرة. فالرئيس "جون كينيدي"، كغيره من ممثّلي الطبقة الحاكمة، كان قد أعماه الحقد على النظام الجديد في أكبر جزيرة في البحر الكاريبي، لا تبعد سوى تسعين ميلاً عن شواطئ الولايات المتّحدة. ولاعتيادها النظر إلى كوبا على أنّها ضيعة للرأسمال الأميركيّ، اعتبرت الأوساط الحاكمة في الولايات المتّحدة القضاء على الثورة الكوبيّة إحدى أهمّ مهمّاتها في السياسة الخارجيّة. فقد خشيت هذه الأوساط من تأثيرها على البلدان الأخرى في حوض الكاريبي وأميركا اللاتينيّة. ولم يكن "كينيدي" شاذًا عن هذه الأوساط، فقد شاركها العداء، بل والحقد على كوبا المستقلّة ذات السيادة، التي سارت على طريق التحوّلات الاجتماعيّة العميقة. حتّى إذا ما أخذنا مأخذ الجدّ أفكاره السابقة حول تطبيع العلاقات مع كوبا، وهو التطبيع الذي كان يراه "كينيدي" على أساس أن تتخلّى كوبا عن الطريق الجديد الذي سارت عليه، فقد أوضحوا له في وكالة المخابرات المركزيّة، أنّهم ينتظرون منه قرارًا أسرع وأكثر جذريّة، قرارًا يستبعد أيّ مفاوضات، أو أيّ

---

١ - Ibid. P. 330.

محاولات أخرى لتسوية العلاقات مع "فيدل كاسترو". وكان سلفه "أيزنهاور" أحد الذين حرّضوه، صراحة، على "العدوان الصامت".

في أثناء مراسم انتقال السلطة الرئاسيّة في ١٩ كانون الثاني - يناير ١٩٦١، جرى اللقاء الأخير بين "أيزنهاور" و"كينيدي". وعندما تطرّق الحديث إلى المسألة الكوبيّة، أكّد "أيزنهاور" على أنّ تقديم العون لقوى الثورة المضادّة، وحتّى "النصر الكامل" كان سياسة حكومة الولايات المتّحدة. وتابع "أيزنهاور" قوله، أمّا في الوقت الحاضر، فنحن نساعد في "إعداد قوّات مضادّة لكاسترو في غواتيمالا، ثمّ أوصاه أيزنهاور بـ "المتابعة والإسراع" في ذلك[١]". ولعدم إلغائه هذه المخطّطات إثر أدائه القسم واستلامه الحكم، فقد أطلق "جون كينيدي" أيدي "ألن دالاس" و"بيسيل". وكان لموقف الرئيس هذا، عواقب بعيدة المدى. فقد سارعت وكالة المخابرات المركزيّة، كما طالبها بذلك الرئيس "كينيدي"، إلى الحصول على موافقة الإدارة العسكريّة، وقدّمت لجنة رؤساء الأركانات حكمًا مفاده أنّ العمليّة المزمعة لا تثير أيّ شكوك من الناحية العسكريّة. لقد استخدم "ألن دالاس" نفوذه كلّه من أجل إقناع "كينيدي" بضرورة تنفيذ العمليّة. قال "دالاس" مخاطبًا كينيدي": "لقد وقفت هذه الوقفة نفسها أمام مكتب "أيزنهاور"، وأكّدت له على أنّني واثق من نجاح عمليّتنا في غواتيمالا. سيّدي الرئيس، إنّ آفاق نجاح خطّتنا اليوم، أفضل ممّا كانت عليه آنذاك[٢]".

لم تفلت وكالة المخابرات المركزيّة من أنظار الرؤساء والمسؤولين، غير أنّ الرئيس "كينيدي"، في عدد من الاجتماعات المكرّسة للعمليّة الكوبيّة، والتي عُقدت في

---

١ - Schlesinger A. M. Junior, *A Thousand Days*, P. 164.

٢ - Sorensen Th., *Kennedy*, P. 332.

البيت الأبيض، وحضرها وزير الخارجيّة ووزير الدفاع، ووزير العدل "روبرت كينيدي"، وغيرهم من كبار المسؤولين، أبدى "تحفّظًا وحذرًا"، حسب قول "شليزنغر". فقد حذّر الرئيس بأنّه لا يسمح باشتراك القوّات المسلّحة الأميركيّة بأيّ شكل من الأشكال في هذه العمليّة. ثمّ أمر بأن يتمّ إنزال القوّات بأقصى حدّ من الهدوء والصمت، خلافًا للخطّة السابقة، القاضية بالتدخّل العسكريّ وإنزال القوّات بشكل "مؤثّر قويّ"[١].

رغم أنّ البيت الأبيض سمح لوكالة المخابرات المركزيّة بمتابعة التحضير لغزو كوبا، فقد تريّث "جون كينيدي" كثيرًا في اتّخاذ القرار النهائيّ. لقد كان "جون كينيدي" قلقًا، فعلاً، بشأن مصير الحملة العسكريّة، كما تقول مذكّرات المقرّبين منه. ويبدو أنّه لم يكن واثقًا من نجاحها كلّ الثقة. هنا، من أجل التغلّب على شكوك الرئيس، أكّدت وكالة المخابرات المركزيّة على أنّه سيحدث، إثر إنزال المأجورين، عصيان شامل في كوبا، بما في ذلك ضمن صفوف الجيش الثوريّ. ومن المميّز أنّ "دالاس" إثر فشل الغزو، أنكر أن تكون إدارته قد أعطت تقديرات معيّنة حول الميول المعادية للحكومة في كوبا. وليس هذا من قبيل المصادفة، فهذا يعني أنّ وكالة المخابرات المركزيّة سمحت لنفسها، عامدة متعمّدة، بتضليل الرئيس الأميركيّ. وبعبارة أخرى، قدّمت معلومات خاطئة ذات طابع استراتيجيّ، من أجل أغراضها.

تدل الوقائع التالية على أنّ الأمور سارت على هذا النحو بالذات. في أوائل نيسان - أبريل ١٩٦١، أكّد "دالاس وبيسيل"، حسب قول شليزنغر، للمشاركين في أحد الاجتماعات بالبيت الأبيض، على أنّ أكثر من ٢,٥٠٠ كوبيّ ينتسبون إلى منظّمات

---

١ - Schlesinger A. M. Junior, *A Thousand Days,* PP. 238, 242- 243.

المقاومة لنظام كاسترو، وأنّ عشرين ألفًا من السكّان يتعاطفون معهم، وأنّه "ما أن تعزّز فرقة الإنزال مواقعها على الجزيرة، حتّى يصبح بإمكانها الاعتماد على مساعدة ربع سكّان كوبا على أقلّ تقدير". وقد اتّضح في ما بعد أنّ "ر. ايموري"، نائب مدير الوكالة للمعلومات الاستخبارية ومديريّته لم يطّلعا إطلاقًا على العمليّة، وأنّ "عمليّة وضع التقديرات القوميّة، وهي العمليّة المدروسة بعناية في وكالة المخابرات المركزيّة، لم تستخدم إطلاقًا في مسألة ما إذا كان التدخّل العسكريّ سيسبّب عصيانات مختلفة"، كما يقول شليزنغر.

لقد قامت العمليّة كلّها بإشراف مديريّة التخطيط التي يرأسها "بيسيل"، ومن هذه المديريّة انطلقت المغلوطة التي قُدّمت للرئيس. وتؤكّد الوثائق الرسميّة الجديدة، التي وقعت في أيدي مجلّة "يونايتد ستيتس نيوز إند وورلد ريبورت" عام ١٩٧٩، على الوقائع المذكورة أعلاه التي أوردها شليزنغر. وهذه الوثائق هي عبارة عن محاضر موجزة لاجتماعات اللجنة الخاصّة التي بحثت في أسباب الفشل في خليج الخنازير، بناء على توجيه الرئيس "كينيدي". من أجل هذا الغرض، تمّ نقل أكثر من ١٥ ألف قطعة سلاح إلى المنطقة لـ"توزيعها على المتطوّعين المنتظرين".

إذن، تدلّ هذه الوثائق على أنّ "دالاس وبيسيل" لم يأملا أبدًا بإمكان إثارة تمرّد وعصيان في كوبا، غير أنّهما كانا يقنعان البيت الأبيض بتوقّع حدوث ذلك، ومن أجل مزيد من الإقناع، اتّخذا تدابير مختلفة، كانت تبدو وكأنّها جزء مكمّل لخطّة العصيان العام في كوبا. ومن هذه التدابير: إرسال الأسلحة، نقل المحطّة الإذاعيّة "راديو سوون" التابعة لوكالة المخابرات المركزيّة، والتي كانت تدعو الكوبيّين، وخاصّة العسكريّين منهم، إلى التمرّد على حكومتهم الشعبيّة.

كما قامت وكالة المخابرات المركزيّة بمناورات أخرى بهدف إقناع البيت الأبيض بالسماح لها ببدء الغزو. ولم يتكلّف "دالاس وبيسيل" جهدًا كبيرًا في تنظيم قدوم شقيق السفير الأميركيّ في غواتيمالا، وصاحب مزارع البنّ - حيث درّبت وكالة المخابرات المركزيّة المأجورين الكوبيّين - إلى واشنطن. وكان المغزى من ظهوره في العاصمة الأميركيّة، توجيه نوع من الإنذار: على المأجورين أن يغادروا المزرعة في نهاية نيسان - أبريل ١٩٦١. وتشبّث قادة الوكالة بـ"الإنذار" الذي أوحوا به وخطّطوا له، فشنّوا هجومًا جديدًا على "كينيدي" مصوّرين له ما سيحدث، إذا لم يُستخدم المأجورون في الغرض الذي دُرّبوا من أجله. فبدلاً من القيام بغزو كوبا، سيبقون في الولايات المتّحدة وأميركا اللاتينيّة. وأكّد "دالاس" للرئيس على أنّهم سوف يشهّرون بدور وكالة المخابرات المركزيّة في تنظيم حرب سريّة ضدّ كوبا. وفضلاً عن ذلك فإنّ إلغاء الإنزال، حسب قول "دالاس" سيؤدّي إلى التشهير بواشنطن، وسيفقد جميع أعداء الثورة الكوبيّة في أميركا اللاتينيّة الثقة بأنفسهم، وبالمقابل، سوف يزيد من حماسة القوى اليساريّة في نصف الكرة الغربيّ. وأكّد "دالاس" في أحاديثه مع الرئيس، على أنّ حلّ فرقة الإنزال سوف يؤدّي إلى قيام ثورات مشابهة لثورة كاسترو، في حوض الكاريبي بأكمله[١]".

يرى "شليزنغر" فرقًا في الموقف من مخطّطات التدخّل: "الموقف الملائم للغاية"، من جانب الإدارة السابقة، والموقف "الارتيابيّ" من جانب الإدارة الجديدة.

على خلفيّة السعي المشترك بين وكالة المخابرات المركزيّة والبيت الأبيض، في عهد "أيزنهاور"، كان من الصعب جدًّا رؤية الاهتمام الخاصّ من جانب قادة وكالة

---

١ - Schlesinger A. M. Junior, *A Thousand Days*, P. 242.

المخابرات المركزيّة بهذا المشروع. أمّا على خلفيّة الموقف "الارتيابي" للبيت الأبيض في عهد "كينيدي"، فقد ارتسم بوضوح الاهتمام الخاصّ لوكالة المخابرات المركزيّة به. وإذا كانت عمليّة الإنزال تُعتبر، في البداية، حتّى من جانب الإدارة الجمهوريّة، إحدى الخيارات للأعمال المحتملة ضدّ كوبا، فقد اعتبرت الوكالة هذه العمليّة، الآن، ضرورة لا بدّ منها.

خلال ذلك كان قادة وكالة المخابرات المركزيّة ينطلقون من أنّهم، عندما يبدؤون العمليّة، سيتمكّنون من الاعتماد بشكل كامل على القوّات المسلّحة الأميركية، نظرًا لأنّ الرئيس "لن يسمح للعمليّة بالانهيار".

يقول "سورنسون": "كانت وكالة المخابرات المركزيّة واثقة، من أنّه عندما تبدأ العمليّة، لن يرفض الرئيس تقديم الدعم العسكريّ الكبير لمنظّميها[1].

في الاجتماع الذي عقده "جون كينيدي" في ٤ نيسان ـ أبريل ١٩٦١ في مبنى وزارة الخارجيّة اشترك للمرّة الأولى "ج. و. فولبرايت" رئيس مجلس الشيوخ للشؤون الخارجيّة، الذي لم يتأثّر بـ"الكلمات البليغة المقنعة لممثّل وكالة المخابرات المركزيّة"، وأدان بحزم الخطّة كلّها، باعتبارها مخالفة لأبسط قواعد القانون الدوليّ، وسخر من جميع مَن "يثير أسطورة التهديد الكوبيّ دون أيّ اتّزان".

لم تترك كلمة "فولبرايت" الجريئة والمنطقيّة أثرًا على الحضور، باستثناء الرئيس "كينيدي" ومستشاره الخاصّ "شليزنغر"، حسب مذكّرات هذا الأخير. وبالإضافة إلى "فولبرايت" وقف "شليزنغر" ضدّ التدخّل. أمّا "دين راسك" وزير الخارجيّة، فقد عبّر "بشكل ضعيف عن عدم موافقته" عليه. وقدّم وزير الدفاع دعمًا لا يقدّر بثمن

---

١ - Sorensen Th., *Kennedy*, P. 333.

لمخطّطات وكالة المخابرات المركزيّة. فقد كان خاضعًا لتأثير لجنة رؤساء الأركانات، التي أقنعته بأنّ فرقة المأجورين ستتمكّن من تعزيز أقدامها على قاعدة الإنزال.

نظرًا لأنّ "راسك" لم يقف ضدّ التدخّل بشكل واضح، بل لجأ إلى مجرّد التحفّظات الغامضة، لم يجد الرئيس "كينيدي" أيّ اعتراض من جانب الأعضاء الأساسيّين للحكومة ومجلس الأمن القوميّ. على هذا النحو، حصلت الخطّة السياسيّة الخارجيّة، أو المغامرة كما سيدعوها شليزنغر في ما بعد، التي رسمتها وأعدّتها وكالة المخابرات المركزيّة، على مباركة جميع رجالات الحكومة القياديّين.

كانت هناك أسباب عديدة تدفع وكالة المخابرات المركزيّة لإبداء "اهتمام خاصّ" بتنفيذ المخطّطات المرسومة. فقد كانت تنوي تعزيز مواقعها في واشنطن، في عهد الإدارة الجديدة، عن طريق تحقيق نجاح كبير في بحر الكاريبي. كما عزمت وكالة المخابرات المركزيّة على تسليم السلطة في كوبا لزعماء الثورة المضادّة، الذين باعوا أنفسهم لها، وبالتالي تحويل الجزيرة إلى ضيعة لها، إلى قاعدة لتوسيع حربها للقوى اليساريّة في أميركا اللاتينيّة بكاملها.

كان "دالاس" يعاملهم كما لو أنّهم دمى في يدَيه. وفي لحظة بدء التدخّل، عزلتهم وكالة المخابرات المركزيّة في فلوريدا، ولم يعرفوا بالإنزال إلاّ عن طريق الإذاعة. مع ذلك كانت البيانات عن بدء العمليّة وعن انتشارها اللاحق، تُذاع باسمهم، أو على الأصحّ، باسم ما يُدعى بالمجلس الثوريّ الكوبيّ، الذي جمعتهم فيه وكالة المخابرات المركزيّة. هذه البيانات كانت قد كُتبت في واشنطن، ونُقلت إلى نيويورك، حيث سُلّمت إلى "ل. جونس" صاحب شركة الإعلان "ليم جونس آسوشييتس إنكوبوريتد"، التي وقّعت، بتكليف من وكالة المخابرات المركزيّة، عقدًا مع المجلس الثوريّ الكوبيّ لتنفيذ أعمال دعائيّة إعلاميّة مخالفة". هذا كلّه، يُظهر أنّ وكالة المخابرات المركزيّة لم

تكترث أبدًا بـ"حكومة المنفى" التي شكّلتها، ولم تكنّ لها أيّ احترام، وكانت تنوي السيطرة على كوبا، في حال نجاح خططها البعيدة المدى. وتقدّم الحادثة التالية، التي جرت في منطقة إعداد المأجورين في غواتيمالا، دليلاً على عزم وكالة المخابرات المركزيّة على التغلغل إلى الجزيرة بأيّ ثمن، وتعزيز مواقعها مهما كانت الوسيلة. لقد أعلن موظّفو وكالة المخابرات المركزيّة لرجال الثورة المضادّة الكوبيّين بأنّه، إذا ما تخلّى البيت الأبيض، في اللحظة الأخيرة، عن مخطّطات التدخّل وغزو كوبا، فعلى أفراد الفرقة أن ينظّموا مظاهرة عصيان وتمرّد، بما في ذلك اعتقال ممثّلي وكالة المخابرات المركزيّة، والاستيلاء على السفن التي تنتظرهم في ميناء كابيسا (نيكاراغوا)، والإبحار إلى كوبا ثمّ القيام بالإنزال[١].

بعد أن عرف "كينيدي"، في ما بعد، بهذه المناورة الغريبة للغاية، من جانب وكالة المخابرات المركزيّة، وصفها بأنّها "خيانة حقيقيّة".

في أثناء العمليّة، خرقت وكالة المخابرات المركزيّة أمر البيت الأبيض، حول عدم السماح بمشاركة الأميركيّين فيها. فالغوّاصون الأوائل، الذين وصلوا الشواطئ الكوبيّة، في منطقة خليج الخنازير، وأعطوا الإشارة بالإنزال، كانوا أميركيّين. وموظّفو وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّو الجنسيّة بالطبع، هم الذين تنكّروا بزيّ "طيّارين مدنيّين" وتوجّهوا من نيكاراغوا بطائرات B-26 التي قصفت مواقع الجيش الثوريّ الكوبيّ.

حسب معطيات "ي كولبي" فقدت وكالة المخابرات المركزيّة عشرة من العاملين فيها في خليج الخنازير. وكانت الوكالة مستعدّة للتضحية بعدد أكبر من الأميركيّين، في

---

١ - Johnson H., *The Bay of Pigs*, (New York, 1964), P. 73.

سبيل تحقيق مخطّطاتها بالاستيلاء على كوبا، لولا التحفّظ الذي اضطرّ "جون كينيدي" إلى إبدائه.

من بين الأسباب الرئيسة لهذا التحفّظ وضبط النفس، كانت الضربة القاضية التي تلقّاها ١,٤٠٠ من القتلة المأجورين المنتخبين. وقد قال "جون كينيدي" في ما بعد: "لو عرفنا أنّ القوّات المسلّحة الكوبيّة كانت على هذه الدرجة من الجودة، وعلى هذه القدرة القتاليّة الرفيعة، لما حاولنا أبدًا القيام بهذه العمليّة". وتابع قائلاً: "أمّا وكالة المخابرات المركزيّة فقد أوحت لنا بانطباع مزيّف كليًّا، مفاده أنّ قوّات التدخّل كانت تنتظرهم نزهة خفيفة من قاعدة الإنزال إلى مركز الجزيرة". ويدعو "شليزنغر" هذه التقديرات المزيّفة، من جانب وكالة المخابرات المركزيّة، "تضليلاً إعلاميًّا".

تدلّ الوقائع، من جديد، على أنّ الاستخبارات المركزيّة تسعى، ليس إلى مجرّد إقناع البيت الأبيض، بل وإلى فرض اتّجاه معيّن للعمل عليه.

بعد انهيار الغزو شكّل "جون كينيدي" لجنة خاصّة للتحقيق في أسباب الفشل، برئاسة الجنرال "م. تايلور". وقد ضمّت هذه اللجنة "ألن دالاس" والأدميرال "آ. بيرك" رئيس أركان القوى البحريّة الأميركيّة ووزير العدل "روبرت كينيدي".

ليس هناك أيّ أدلّة على توجيه الانتقادات للمبادئ العامّة لوكالة المخابرات المركزيّة. فالعكس هو الصحيح، حيث أيّدها كثير من المتكلّمين في اجتماعات اللجنة، واكتفوا بمجرّد الإشارة إلى ضرورة فرض رقابة أشدّ على مخطّطاتها. فقد أعلن "ب . سميث" المدير السابق لوكالة المخابرات المركزيّة في اجتماعات اللجنة: "عندما تكونون في حالة حرب، أو كما يقال، في حالة حرب باردة، فيجب أن يكون لديكم إدارة لا أخلاقيّة يمكنها العمل سرًّا. ولا تكون ملزمة بعقد مؤتمرات صحفيّة". وأعلن "بيسيل": أنّه "بغضّ النظر عن الفشل، على الولايات المتّحدة أن تحافظ على القوّة اللازمة

للعمليّات الحربيّة غير الرسميّة... أنا أعتقد أن علينا أن نفكّر بتغيير واجهة سياستنا الخارجيّة، بمعنى تجنّب النزعة إلى التفوّه بالبيانات المتبجّحة المرائيّة، التي تعرقل بشكل كبير للغاية عمليّاتنا".

من المميّز أنّ العاملين في وكالة المخابرات المركزيّة لم ينظروا بصورة جدّيّة في البداية، إلى إعلان الرئيس، واعتبروه مجرّد مصيدة، أو قناع يهدف إلى تخدير يقظة كوبا ـ الثورة. ورغم أنّ الرئيس قد سمح في اليوم الأخير من المعارك، لطائرات الأسطول البحريّ الأميركيّ بالقضاء على جميع الأهداف "المعادية" على الأرض وفي الجوّ، في منطقة الإنزال، فإنّ هذا غير كاف بالنسبة لـ"ألن دالاس". فقد كان يسعى إلى القيام بقصف جويّ مكثّف لكوبا كلّها. وبدا، وكأنّ "جون كينيدي" قد أخذ يميل إلى ذلك في أثناء المعارك.

في ٢٢ نيسان ـ أبريل، كتب "أيزنهاور" في يوميّاته، عن الحديث الذي جرى بينه وبين "جون كينيدي" في كامب ديفيد. سأله الرئيس السابق: لماذا لم توجّه "الضربة الموعودة"؟ فأجاب "كينيدي" أنّ البيت الأبيض كان في البداية "مستغرقًا في مهمّة إخفاء مشاركة الولايات المتّحدة في التدخّل، وعندما أصبح معروفًا في البيت الأبيض أنّ هذا ضروريّ جدًّا، كان قد فات الأوان".

أجل، ففي تلك الفترة كان ١,٢٠٠ من المأجورين قد استسلموا ووقعوا في الأسر، وكما سوف يقول "جون كينيدي" لمساعديه، في ما بعد، بأنّه "لم تكن لديه أيّ رغبة بضرب نساء كوبا وأطفالها بالقنابل، والقيام "بتصعيد خالٍ من المسؤوليّة، لمجرّد أنّ هذا ما طالب به المتزمّتون[1]".

---

١ - Fay P. B. Jr., *The Pleasure of His Company,* (New York,1966), P. 161.

غادر "أيزنهاور" كامب ديفيد قانعًا بتفسيرات خليفته، الذي أضاف إلى ما ذكرناه، أنّ "الدولتين العظميين ـ الاتّحاد السوفياتيّ والولايات المتّحدة ـ تستطيعان الآن، أن تجرّد إحداهما الأخرى قوّتها في السلاح النوويّ". وأنّ "الولايات المتّحدة أضعف نسبيًّا من الشيوعيّين" من حيث القوّات المسلّحة الاعتياديّة، وأنّ القوّة البحريّة للولايات البحريّة "لا تعدّل الموقف بشكل كامل[1]".

وعندما جلس الرئيس السابق، للمرّة الثانية، لكتابة مذكّراته في ٥ حزيران - يونيو ١٩٦١، كان متأثّرًا بالانطباعات من أحاديث قادة الغزو المباشرين. وقد وصم "أيزنهاور" الرئيس "كينيدي" بالعار لأنّه لم يوجّه "الضربة الموعودة" إلى كوبا، و"لتردّده وتهيّبه في وقت غير مناسب". وختم "أيزنهاور" يوميّاته قائلاً: "إذا ما أصبحت هذه القصّة معروفة، يومًا ما، للشعب الأميركيّ... فسيحدث انفجار رهيب، وأعتقد أنّه ستجري إدانة حرفية للإدارة المحليّة[2]".

منذ الساعات الأولى، التي أعقبت تحطيم قوّات التدخّل في بلايا ـ خيرون، توجّه "ألن دالاس" للشكوى إلى "نيكسون" المسؤول السابق للبيت الأبيض في عهد "أيزنهاور"، عن إعداد الإنزال. عندما رأى "نيكسون" مدير وكالة المخابرات المركزيّة بحالة تهيّج يقتله الألم، عرض عليه قدحًا من الويكسي. فقال "دالاس": "هذا ما أفكّر به الآن، إنّني سأسقط وأنهار بدون قدح الويسكي. إنّ هذا أسوأ يوم في حياتي". ثمّ بعد ذلك، كما يقول "نيكسون" في مذكّراته، انهالت الشكاوى من "دالاس" على الرئيس "كينيدي": تأجيل التدخّل من شباط - فبراير إلى نيسان - إبريل، تردّد دائم، جعل وكالة

١ - Schlesinger A. M. Junior, *Robert Kennedy And His Times*, P. 453.

٢ - The Eisenhower Diaries, P. 386.

المخابرات المركزيّة في حالة محمومة، تخوّف من أن يلغي العمليّة كلّها، رفضه في اللحظة الأخيرة قصف الجزيرة بطائرات الأسطول البحريّ الأميركيّ. فأجاب "نيكسون" وكأنّه يلمّح له إلى تفضيل وكالة المخابرات المركزيّة لجون كينيدي في أثناء الحملة الانتخابيّة، بأنّه إذا ما كان الآن في البيت الأبيض، لانهال على كوبا بكامل طاقة القوّات المسلّحة الأميركيّة. وكرّر "نيكسون" القول نفسه في اليوم التالي، للرئيس "كينيدي" في البيت الأبيض، مضيفًا أنّه لو كان مكانه لأرسل دون تردّد، القوّات الأميركيّة إلى كوبا. كان هذا الصوت، هو صوت "المتزمّتين"، الذين تحدّث عنهم "جون كينيدي" لمستشاريه.

نشرت مجلّة "بيرد" الأميركيّة الواسعة الانتشار في ١ نيسان ـ أبريل ١٩٨٤ مقالاً لـ"ت. شولتز" عن لقاءاته وأحاديثه مع كاسترو. يقول شولتز بأنّ كاسترو كان واثقًا من أنّه، في عهد كينيدي كان من الممكن العثور على "أشكال ما للتفاهم مع الولايات المتّحدة". ثمّ قال كاسترو: "إنّني أحكم على كينيدي، في ضوء كلّ ما حدث في العلاقات مع كوبا، بدءًا بالتدخّل في خليج الخنازير. إنّني لا أحمّل كينيدي أيّ مسؤوليّة عن هذا التدخّل، فقد ورث كينيدي هذا المخطّط بكامله عن إدارة أيزنهاور".

أدّت الهزيمة في كوبا إلى العديد من العواقب. من ناحية أولى، اعتبر موظّفو الاستخبارات المشاركون في العمليّة، موقف البيت الأبيض خطيئة كبيرة. ونسبها بعضهم إلى ضعف خبرة الرئيس الشاب وإلى خور عزيمته. أمّا بعضهم الآخر، ممثّلو القوى اليمينيّة الأكثر تعنّتًا في وكالة المخابرات المركزيّة، فكانوا يميلون إلى اعتبار تصرّفات الرئيس "خيانة".

وهكذا ولدت في وكالة المخابرات المركزيّة جماعة معادية للرئيس "كينيدي"، أو عصابة، كما يدعوها بعض الباحثين الأميركيّين. بهذا الصدد، عندما سمح "بيسيل"

لنفسه بأن يسمّي، صراحة" بيان "جون كينيدي" "مراءاة فوق العادة"، كان يدرك أنّه لن يخسر شيئًا. فقد كان يعرف، هو ودالاس، أنّ أيّامهما كانت معدودة في وكالة المخابرات المركزيّة.

من ناحية أخرى، حلّت نهاية "العصر الذهبيّ" حيث كانت وكالة المخابرات المركزيّة خارج أو فوق الانتقادات، من جانب الكونغرس والصحافة. وحسب تعبير "كولبي" فالفشل في كوبا "اشتهر بأنّه بداية المسيرة التي انحدرت بنتيجتها وكالة المخابرات المركزيّة، من وضعها كهيئة حكوميّة، من أرفع الهيئات سمعة وهيبة واحترامًا، إلى دور إدارة من أكثر الإدارات تعرّضًا للانتقاد والإدانة". ويرتكب "كولبي" تشويهًا واضحًا عندما يصوّر وكالة المخابرات المركزيّة، خلال مرحلة تقرُب العشرين عامًا بعد نيسان ـ أبريل ١٩٦١، على أنّها "كبش الفداء" لأخطاء الإدارات المختلفة وفشلها. ومثّل هذا الموقف كستار، لإخفاء الأعمال الإجراميّة لفرسان المعطف والخنجر، الذين يستحقّون إدانة أكبر ممّا سمح به الصحافيّون والمشرّعون لأنفسهم في الستّينات وحتّى في السبعينات.

في هذا المجال، يهمّنا ما إذا كان البيت الأبيض قد انتقد "جون كينيدي"، وإذا كان قد انتقده، فإلامَ أدّى هذا الانتقاد. لقد سمح الرئيس "كينيدي" لنفسه بالإفصاح عن عدد من الآراء الصريحة المنصفة بالاستخبارات المركزيّة. غير أنّ "كولبي" يعتقد أنّ عبارة "كينيدي" الشهيرة "سأمزّق وكالة المخابرات المركزيّة أربًا إربًا"، قد قالها منفعلاً، ولم تعكس أيّ نوايا جديّة من جانبه. ففي حديثه الصريح مع "ج. ريستون" معلّق صحيفة نيويورك تايمز، عبّر "جون كينيدي"، حسب قول "شليزنغر" الذي حضر هذا اللقاء، عن الفكرة التالية: "لقد ارتكبت خطأ على الأغلب، بإبقائي على "ألن دالاس". هو يتمتّع بقدرات ضخمة كبيرة، لكنّني لن أعمل معه في يوم من الأيّام، لهذا لا أستطيع

تقدير معنى ما يقوله لي... إنّ "دالاس" شخصيّة أسطوريّة، والعمل صعب مع الشخصيّات الأسطوريّة... من الواجب أن يكون لدى أحد في وكالة المخابرات المركزيّة، رجل يمكن أن يكون بيني وبينه اتّصال دائم وموثوق، رجل أستطيع أن أحصل منه، بلغة الرياضيّين، على تمريرة دقيقة. لقد ارتكبت خطأ عندما وضعت "روبرت كينيدي" على رأس وزارة الدفاع. إنّ "روبرت" يجب أن يكون في وكالة المخابرات المركزيّة... لقد أدركت شيئًا، هو أن علينا أن نعمل الكثير في وكالة المخابرات المركزيّة. إنّ "ماكنمارا" يعمل في وزارة الدفاع، و"راسك" عمل الكثير في وزارة الخارجيّة، بيد أنّه ليس هناك مَن يعمل في وكالة المخابرات المركزيّة[1]".

بالاختلاف عن العبارة التي قالها منفعلاً، هذه الأفكار التي أعرب عنها "كينيدي" في حديثه مع "ريستون"، لا يمكن تفسيرها إلاّ على أنّها رغبة الرئيس في استبدال مدير وكالة المخابرات المركزيّة والتخلّص من الشخصيّة الأسطوريّة وإخضاع الاستخبارات لرقابة أقوى وأشدّ فعاليّة من جانب البيت الأبيض. ولكن لم تكن هناك نيّة عند "جون كينيدي" بانتقاد وكالة المخابرات المركزيّة. ومن الأمور ذات الدلالة أنّ "كينيدي" قاطع بحدّة نائبه "ليندون جونسون" عندما استغلّ هذا الأخير الهزيمة في خليج الخنازير، وسمح لنفسه بـ"الانتقاد العامّ لوكالة المخابرات المركزيّة". بيد أنّه استمرّ بتوجيه العبارات غير الحميدة إلى الوكالة، وكان الرئيس مضطرًّا لسماعها والإصغاء إليها. على سبيل المثال، "ر. لوفيت"، أعرب للرئيس الأميركيّ عن أفكار كان يحاول عبثًا، باعتباره عضوًا في المجلس الرئاسيّ لنشاط الاستخبارات، إقناع "أيزنهاور" بها. وقد بدأ "لوفيت" حديثه بأن اعتبر الهزيمة في خليج الخنازير بمثابة برهان مأساويّ عن

١ - Schlesinger A. M. Junior, Robert Kennedy And His Times, P. 458.

صحّة جميع التنبّؤات للمجلس الرئاسيّ لنشاط الاستخبارات في السنوات السابقة. وأعلن "لوفيت" قائلاً إنّ وكالة المخابرات المركزيّة يجب أن تخضع لرقابة صارمة، بيد أنّه كان من المستحيل الحديث عن هذا الموضوع، في عهد "ألن دالاس" و"أيزنهاور". كما أشار أيضًا إلى التضخّم الكبير في النفقات الماليّة لوكالة المخابرات المركزيّة، وإلى روح المغامرة الخطيرة لدى العاملين فيها، وإلى التنظيم السيّء لهذه الوكالة[1].

كان هذا الصوت، صوت تلك الأوساط من الطبقة الحاكمة، التي كانت ترقب، دون حماسة، تحوّل وكالة المخابرات المركزيّة إلى مركز من مراكز القوّة والنفوذ في واشنطن، قادر تدريجًا على إخضاع الإدارات الأخرى العاملة في مجال الأمن القوميّ. هذه الأوساط كانت تنوي إجراء تعديل معيّن بمساعدة "جون كينيدي"، الذي رأى أن من الممكن الأخذ بيد هذه الأوساط، وأجرى بعض التعديلات. في البداية، أحيى نشاط المجلس الرئاسيّ لنشاط الاستخبارات، حسب قول أحد مساعديه، وقرّر إعطاءه اسمًا مغايرًا بعض الشيء، وهو "مجلس الرئيس الاستشاريّ للاستخبارات الخارجيّة". في البداية بقي "ج. كيليان" رئيسًا للمجلس، لكن في عام ١٩٦٣، أصبح مدير المجلس "ك. كليفورد" الرجل الموثوق من جانب الرئيس، وأحد "مهندسي" قانون الأمن القوميّ لعام ١٩٤٧، ووزير الدفاع الأميركيّ لاحقًا.

خلال الفترة الواقعة بين أيّار - مايو وتشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦١، عقد مجلس الرئيس الاستشاريّ للاستخبارات الخارجيّة ٢٥ اجتماعًا، أي أكثر من اجتماعاته خلال السنوات الخمس السابقة، التي مرّت على وجوده. وقد تمتّع المجلس الاستشاريّ بدعم

---

١ - Schlesinger A. M. Junior, *A Thousand Days*, P. 276.

الرئيس، وكانت توصياته تطبّق عمليًا. لكنّ هذا المجلس، كما يؤكد "شليزنغر"، كان "مراقبًا غير مكتمل، فهو لم ينظّم على نحو يستطيع معه اكتشاف الأمور التي تريد إخفاءها وكالة المخابرات المركزيّة، وهي التي بلغت مستوى رفيعًا من المهارة في التستّر على عمليّاتها[1]".

وضع الرئيس على رأس اللجنة ٥٤١٢ لمجلس الأمن القوميّ الجنرال "م. تايلور" الذي رفض اقتراح "كينيدي" الأوّل بترؤّس وكالة المخابرات المركزيّة. لقد قاد الجنرال "تايلور"، في أعوام الحرب العالميّة الثانية، فرقة إنزال جويّ، وشغل في أعوام رئاسة "أيزنهاور" منصب رئيس أركان الجيش، غير أنّه استقال احتجاجًا على ذلك الضرر الذي لحق بالقوّات المسلّحة العادية، والذي نتج عن عناد إدارة "أيزنهاور" وتصميمها على تطوير القوّات النوويّة. وبصفته مستشارًا عسكريًّا للرئيس "كينيدي" ومن ثمّ رئيسًا للجنة رؤساء الأركانات، شارك "تايلور" في صياغة مذهب الردّ المرن، الذي ينصّ على الاستمرار في تطوير القوّات النوويّة الاستراتيجيّة، مع زيادة أهميّة القوّات المسلّحة العادية، ولا سيّما القوّات الخاصّة المعدّة للعمليّات العسكريّة ضدّ الثورات والانتفاضات.

إستقبلت أوساط "دالاس" العليا في وكالة المخابرات المركزيّة المذهب العسكريّ الجديد بفتور. ففي عهد "أيزنهاور"، عندما كان يسيطر على الإدارة العسكريّة المدعوّون بـ"العسكريّين النوويّين"، الذين ركّزوا اهتمامهم بصورة فريدة على السلاح النوويّ، وكانوا ينظرون إلى كلّ صراع محتمل مع العالم الاشتراكيّ، من خلال منظور "الانتقام المكثّف" النوويّ، كانت وكالة المخابرات المركزيّة ترى من حقّها

١ - Schlesinger A. M. Junior, *Robert Kennedy And His Times*, P. 458.

إدارة "الأعمال العسكريّة غير الرسميّة" كما قال "بيسيل". وكانت إدارة الأعمال العسكريّة غير الرسميّة تعني من قبل وكالة المخابرات المركزيّة، التوسيع الدائم لجيوش الوكالة وأسطولها الجويّ وميزانيّتها، وتأثيرها على السياسة الخارجيّة. وقد رأى قادة وكالة المخابرات المركزيّة، في تعديل المذهب العسكريّ، تقليصًا حتميًّا لمجالات عملهم. وكان الأمر يبدو كذلك فعلاً.

أصدر الجنرال "تايلور"، عن طريق مجلس الأمن القوميّ، المذكّرتَين التوجيهيّتَين رقم ٥٥ و٥٧، اللتين انتقلت بموجبهما المسؤوليّة عن العمليّات شبه العسكريّة، من وكالة المخابرات المركزيّة إلى وزارة الدفاع. ولكن، إذا حكمنا، من خلال الموادّ والوثائق المنشورة، لوجدنا أنّه لم يكن هناك نظام دقيق. والمعيار الرئيسيّ لسحب العمليّات شبه للعسكريّة من وكالة المخابرات المركزيّة كان تعاظم مقاييس هذه العمليّات، بحيث لم تعد تكفي وكالة المخابرات المركزيّة ما لديها من وحدات مقاتلة ومعدّات ووسائل نقل لتنفيذ الهدف المطلوب. ويدعو "كولبي" قرار "تايلور" هذا "موقفًا جديدًا، بصورة جذريّة، من وكالة المخابرات المركزيّة".

بعد هذا القرار، أصبح من الواجب نقل العمليّات شبه العسكريّة، من نوع التدخّل في كوبا، من وكالة المخابرات المركزيّة إلى البنتاغون لتنفيذها، حتّى وإن كان قد تمّ إعداد هذه العمليّات في الوكالة. واحتفظت الوكالة، في مثل هذه المواقف، بدور مساعد. وبالنتيجة، كما يعتقد "كولبي" فقد حصلت وكالة المخابرات المركزيّة على مذهب يحدّد مهامها في مجال الأعمال العسكريّة السريّة: فهذه الأعمال يجب ألاّ تكون واسعة المدى، وألاّ تصبح معروفة للملأ، أي بعبارة أخرى، يجب المحافظة على سريّتها وعلى مظهر عدم مشاركة الولايات المتّحدة فيها.

من الأمور الهامّة أنّ الرئيس "كينيدي" أرسل الجنرال "تايلور"، و"روستو" المسؤول في المجلس الأمن القوميّ، إلى فييتنام الجنوبيّة إثر الفشل في خليج الخنازير. في تلك الفترة كان "كولبي" يرأس مقرّ وكالة المخابرات المركزيّة في سايغون. ويخبر "كولبي" بأنّ "تايلور وروستو"، ووفقًا للمذهب الجديد لوكالة المخابرات المركزيّة وللمذهب الجديد لمكافحة الثورات، أوصيا بتوسيع الوجود العسكريّ للبنتاغون في فييتنام الجنوبيّة، وتسليمها العمليّات شبه العسكريّة في الريف ضدّ الثوّار، وهي العمليّات التي كانت تمارسها الاستخبارات. ودون أن يرى فرقًا بين مَن يدير الحرب بالوسائل العسكريّة ضدّ الثوّار ـ وكالة المخابرات المركزيّة أم البنتاغون ـ ينظر "كولبي" إلى هذا القرار، من زاوية التنافس بين الإدارات الأميركيّة في واشنطن، معتقدًا أنّ العسكريّين كانوا يسعون إلى التفوّق على الاستخبارات وحجبها عن أعين البيت الأبيض في الصراع من أجل فييتنام والهند الصينيّة بكاملها. وخلال فترة حكم الرئيس "جون كينيدي" ازداد عدد العسكريّين في فييتنام الجنوبيّة من ٦٨٥ إلى ١٦,٧٣٢ مستشارًا[١]".

بالنسبة لوكالة المخابرات المركزيّة، بقي مذهب "تايلور"، بشكل عامّ وشامل، حبرًا على الورق. وكما يتّضح من مذكّرات "كولبي" لم تقتصر الوكالة في فييتنام الجنوبيّة على العمليّات شبه العسكريّة الصغيرة، أمّا في لاووس المجاورة، فقد أنشأت جيشًا سريًّا من المأجورين بلغ تعداده ٣٦ ألف رجل، كان يخوض حربًا شديدة قاسية ضدّ قوّات التحرّر الوطنيّ، خارقة الوكالة بذلك، اتّفاقيّة جنيف بخصوص لاووس لعام ١٩٦٢، التي وقّعت عليها الولايات المتّحدة الأميركيّة.

---

١ -Schlesinger A. M. Junior, *Robert Kennedy And His Times*, P. 722.

تحدّثت مذكّرتا مجلس الأمن القوميّ رقم ٥٥ و٥٧ عن ضرورة تحديد مدى العمليّات التخريبيّة السريّة التي تقوم بها وكالة المخابرات المركزيّة وتقليصها. وقد قلّص "كينيدي" تقليصًا خفيفًا مخصّصات وكالة المخابرات المركزيّة في عام ١٩٦٢، وكرّر الشيء نفسه في العام التالي، عازمًا على أن يصل التقليص العامّ لميزانيّة الوكالة، بحلول ١٩٦٦، إلى عشرين في المائة[١]. وعيّن الرئيس شقيقه "روبرت كينيدي" وزير العدل "قيّمًا رئاسيًّا غير رسميّ على العمليّات السريّة"، بعد أن رفض، مثله مثل "تايلور"، منصب مدير وكالة المخابرات المركزيّة.

لم يُدخل الرئيس "كينيدي" أيّ تغييرات جذريّة على استراتيجيّة الأعمال التخريبيّة السريّة. يقول "سورنسون": "لقد احتفظت وكالة المخابرات المركزيّة لنفسها بدور وزارة "المكائد القذرة" أو شرعيّتها... غير أنّه كان يعتقد أنّها يجب أن تنفّذ ضمن إطار سياسته الخارجيّة، وأن تطابق أهدافه الديمقراطيّة في البلدان النامية، كما يجب أن يسبقها تخطيط أكثر دقّة ممّا كان يجري قبل التدخّل في خليج الخنازير[٢]". كان "كينيدي" يبرّر شرعيّة وضرورة الأعمال التخريبيّة السريّة بمهام الصراع ضدّ الشيوعيّة وبالأهداف الديمقراطيّة لسياسته تجاه البلدان النامية. وكما يشهد التاريخ لم يكن مهمًّا جدًّا، بالنسبة لوكالة المخابرات المركزيّة، بما كانت تغطّي "المكائد القذرة"، فقيمتها الحقيقيّة كانت تكمن في تسهيل توسّع الاحتكارات الأميركيّة، وتوفير أفضل الظروف لها من أجل استغلال الدول المستقلّة الفتيّة.

في خريف ١٩٦١ أعلن الرئيس عن تعيين مدير جديد لوكالة المخابرات المركزيّة مختارًا لهذا المنصب المليونير "ج. ماكويني" من كاليفورنيا، وهو شخصيّة بارزة في

---

١ - Schlesinger A. M. Junior, *A Thousand Days*, P. 428.

٢ - Sorensen Th., *Kennedy*, P. 712.

الحزب الديمقراطيّ، وكان نائبًا لوزير القوى الجويّة في إدارة الرئيس "هاري ترومان"، ومدير وكالة الطاقّة الذريّة في إدارة "أيزنهاور"، وكان شديد العداء للشيوعيّة وذا آراء محافظة متطرّفة. وقد احتاج إليه البيت الأبيض، كما يشير مساعدو "كينيدي"، من أجل حمايته من الانتقاد من جانب اليمينيّين، بسبب تلك التعديلات في جهاز الاستخبارات، وهي وإن لم تغيّر الكثير من حيث الجوهر، إلاّ أنّها استُقبلت من جانب أوساط معيّنة على أنّها موقف "جذريّ جديد".

إستُبدل الجنرال "ش. ب. كيبيل"، الذي شغل طيلة عشر سنوات في عهد "دالاس" منصب النائب الأوّل لمدير وكالة المخابرات المركزيّة، بالجنرال "م. كارتر". وبدلاً من "بيسيل"، نائب مدير الوكالة ومدير التخطيط، عُيّن "ر. هيلمز" الموظّف الكبير في الوكالة، الذي كان يُعتبر خبيرًا في جمع المعلومات الاستخباريّة وتحليلها، وقد اعتُبر تعيينه، من جانب حلقات السلطة العليا، على أنّه تصميم من جانب البيت الأبيض على تقليص "الأعمال الخفيّة". بيد أنّه لم تأخذ في الحسبان حقيقة أنّ "هيلمز" مَدين بترقيته في الاستخبارات لـ"ألن دالاس". وفي منصبه الجديد ومن ثمّ في منصب مدير الوكالة لم يكتفِ بعدم تقليص "المكائد القذرة" فحسب، بل وأكسبها مدى جديدًا أوسع، وتفنّنًا أكبر.

كما تمّ تغيير نائب مدير الوكالة للمعلومات الاستخباريّة، فبدلاً من "ر. ايموري" تمّ تعيين "ر. كلاين"، الرجل المحافظ المتطرّف. وكانت مديريّته تعدّ للرئيس "كينيدي" تقريرًا صباحيًّا يوميًّا بحجم ٣,٠٠٠ كلمة، وكانت التقارير تمرّ عبر مصافِ محافظة، الأمر الذي كان مناسبا لـ"ماكويني" إلى أبعد الحدود.

رغم التقليص الطفيف للأعمال التخريبيّة السريّة، لم يفكّر الأخوان "جون وروبرت كينيدي" أبدًا بالتخلّي عنها. فقد صادقا على برنامج كامل لهذه العمليّات ضدّ كوبا، أُطلق عليه اسم "مانغوستا" ووُضع على رأسه الجنرال "ي. لينسديل" الذي ورد ذكره

آنفًا. وتحوّلت مدينة ميامي بولاية فلوريدا إلى أكبر مركز لوكالة المخابرات المركزيّة بعد واشنطن. وكان هذا المركز يضمّ أكثر من سبعمائة من العاملين في الوكالة. وشنّت غارات جويّة وبحريّة عادرة على كوبا حيث كانت مجموعات المخرّبين تنظّم الانفجارات وتشعل الحرائق وتقضي على محاصيل قصب السكّر وما شابه ذلك. وكانت تجري الحملات التخريبيّة، كما في السابق، على أيدي المأجورين الكوبيّين، الذين كانوا يعتبرون جميع هذه الأعمال بمثابة فاتحة لغزو جديد كبير. وكانت تحلم، بمثل هذه الأمنيات، تلك العناصر من وكالة المخابرات المركزيّة، التي شاركت بنشاط في إعداد فرقة المأجورين في نيسان ـ أبريل ١٩٦١، ومن ثمّ ارتبطت بعلاقات وثيقة مع الشراذم الكوبيّة المعادية للثورة.

رأت "العصابة الكوبيّة" في وكالة المخابرات المركزيّة، في أزمة الكاريبي خريف ١٩٦٢، فرصة مناسبة لتنفيذ نواياها. هذه الأزمة أُثيرت من جانب الأوساط العسكريّة الأميركيّة والاستخبارات، التي استقطبت المعطيات الاستخباريّة واحتكرتها، وصوّرت الصواريخ السوفياتيّة الدفاعيّة المتوسّطة المدى في كوبا على أنّها سلاح هجوميّ يهدّد "الأمن القوميّ" للولايات المتّحدة.

رفض "جون وروبرت كينيدي" اقتراح العسكريّين ووكالة المخابرات المركزيّة بالقصف المدفعيّ الكثيف لجزيرة كوبا وغزوها، ولجأ إلى "الحجر الصحيّ" أو الحصار البحريّ. هذا الإجراء، كان يشكّل خرقًا صارخًا للقانون الدوليّ، غير أنّه خيّب آمال الأوساط العسكريّة المتشدّدة. وممّا زاد في سخط هؤلاء، التزام الرئيس "كينيدي" بعدم اللجوء إلى التدخّل في كوبا وغزوها، وهو الالتزام الذي يشكّل جزءًا من الاتّفاقيّات التي أنهت أزمة الكاريبي. ويؤكّد بعض المؤرّخين الأميركيّين، على أنّ الأخوين، منذ اللحظة الأولى، شرعا بتقليص كبير لبرنامج "مانغوستا". وكان للطعنة

التـي تلقّاهـا "روبـرت كينيـدي" نتيجـة لخـرق الأمـر الـذي أصـدره بعـدم إرسـال فـرق المخرّبين إلى كوبا، أثناء المرحلة العصيبة للمفاوضات من أجل تسوية أزمة الكـاريبي، دور كبير في ذلك.

عندما أجرى "روبرت كينيدي" تحقيقًا في هـذا الحـادث، استرعت انتباهـه الواقعـة التالية. فقد تمّ إعداد عشر مجموعات يبلغ عددها الإجماليّ ستّين مخرّبًـا لعمليّـة تهـدف إلى التغلغل في كوبا، وكأنّه دون علم القيادة العليا لوكالة المخابرات المركزيّة. وكـانت قـد أرسـلت منهـا إلـى الجزيـرة ثـلاث مجموعـات. أصـدر الأوامـر لهـذه المجموعـات بالانطلاق "و. هارفي"، رئيس المجموعة العمليّاتيّة الكوبيّة الخاصّة. وقد قـال "روبـرت كينيدي"، في حديث خاصّ صريح عام ١٩٦٤، إنّ مثل هذا التسيّب وانعدام الرقابـة قـد تركـا فـي نفسـه "انطباعًـا رهيبًـا[١]". وأبعد "هـارفي" عـن منصبـه وعيّـن مكانـه رئيسًـا للمجموعة الكوبيّة "د. فيتسجيرالد" الذي كان يرأس قبل ذلك قسم الشـرق الأقصـى فـي مديريّة التخطيـط. بيـد أنّـه يجـدر التـأكيد علـى أنّـه رغـم جميـع هـذه التذبذبـات باتّجـاه التصعيد أو باتّجاه التخفيف، فقد كانت الحرب ضدّ كوبا تحظى بالأفضليّـة، فـي أعمـال وكالة المخابرات المركزيّة، وكانت تجري بعلم البيت الأبيـض وموافقتـه. عـلاوة علـى أنّ عمليّـات برنـامج "مانغوسـتا" كـانت تخضـع لإشـراف الجنـرال "تـايلور" و"روبــرت كينيدي"، كانت تبحث الأعمال المضادّة لكوبا، بصورة دوريّـة، مـن جـانب هيئـة دائمـة خاصّة. وكان يتمّ ذلك على النحو التالي: في الثانية ظهرًا من كلّ يوم خميس، كـانت تجتمع اللجنة ٥٤١٢ برئاسة الجنرال "تايلور" وبحضور معاون الرئيس لشـؤون الأمـن القوميّ، ونائب وزير الخارجيّة لشؤون السياسـة، ونـائب وزيـر الدفـاع، ورئيس لجنـة

---

١ - Schlesinger A. M. Junior, *Robert Kennedy And His Times*, P. 533.

رؤساء الأركانات، ومدير وكالة المخابرات المركزيّة. وبعد الانتهاء من بحث شؤون وكالة المخابرات المركزيّة كان ينضمّ إلى المشتركين في الاجتماع "روبرت كينيدي"، ويشرعون ببحث برنامج الصراع ضدّ الثورات والانتفاضات. وكانت هذه العمليّة تدعى باجتماع اللجنة الخاصّة بمكافحة الثورات. وفي المساء كان ينتقل كبار المسؤولين المجتمعين إلى بحث مخطّطات العمل ضدّ كوبا، في إطار ما يُدعى بالجماعة الخاصّة الموسّعة.

ففي عهد "كينيدي"، إذن، كانت هناك ثلاث مجموعات خاصّة، لها ملاك واحد لكنّ وظائفها مختلفة: اللجنة ٥٤١٢، والجماعة الخاصّة بالأعمال المضادّة للثورات، والجماعة الخاصّة بكوبا ذات الملاك الموسّع. كان يبدو وكأنّ هذه المنظومة المتشعّبة للإدارة والتنسيق كانت توفّر للبيت الأبيض رقابة كاملة على الحرب السريّة التي تمارسها الاستخبارات المركزيّة في الخارج. غير أنّ أمثلة كوبا وجنوب فييتنام ولاووس وجهوريّة الدومينيكان تُظهر أنّ الأمر لم يكن دائمًا على هذا النحو.

من الممكن الإشارة إلى الأحداث والظواهر الخفيّة المختلفة، التي كانت تحيط بتكتيك الاستخبارات في البلدان المذكورة، والتي لم تطابق، في عدد من الحالات، المبادئ السياسيّة الأساسيّة. ولكن سنقتصر، هنا، على ذكر أهمّها وأكبرها.

كانت لدى وكالة المخابرات المركزيّة مخطّطات لاغتيال رجالات الدول والزعماء السياسيّين الأجانب. وقد قال الرئيس "كينيدي" في حديث صريح للصحافيّ المعروف "ت. شوانز" إنّه يعاني "ضغطًا كبيرًا من جانب مستشاريه في الاستخبارات المشتركة، الذين لم يذكر أسماءهم، من أجل السماح لهم باغتيال فيدل كاسترو". بعد أن ذكر مضمون هذا الحديث في عام ١٩٧٤، أكّد على أنّ الرئيس، حسب قوله، كان شخصيًّا، ولاعتبارات أخلاقيّة، ضدّ هذا العمل قطعيًّا، مؤكّدًا على ألاّ تشارك الولايات المتّحدة

أبدًا في الاغتيالات السياسيّة. وكان "روبرت كينيدي" قد أكّد، أكثر من مرّة في عام ١٩٦٧، على أنّه عندما علم في أوائل الستّينات بمخطّطات اغتيال "فيدل كاسترو" منع هذه المخطّطات وحظّرها قطعيًّا[١]".

بالرغم من موقف الأخوين "كينيدي" السلبيّ، كانت مديريّة التخطيط بوكالة المخابرات المركزيّة ترسم، بنشاط، مخطّطات اغتيال زعيم الثورة الكوبيّة. وقد نظّمت خلال ذلك دسائس ذات طابع مشبوه للغاية. ففي تحضيره لتنفيذ خطط "ر. كوبيلاس سيكاديس" خائن الشعب الكوبيّ، أرسل "هيلمز" نائب مدير وكالة المخابرات المركزيّة لمقابلة "سيكاديس" في باريس، د". فيتسجيرالد" رئيس المجموعة الكوبيّة الخاصّة تحت ستار "السيناتور الأميركيّ الممثّل الخاصّ لروبرت كينيدي". ويحاول المحقّقون الأميركيّون المستقلّون، في مقتل "جون كينيدي"، تقويم هذه المناورة بمثابة خطوة مفتعلة تهدف إلى إظهار مخطّطات اغتيال فيدل كاسترو، على أنّها أمر شخصيّ من "روبرت كينيدي"، وأنّ اغتيال الرئيس "كينيدي" في ولاية دالاس في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٣، بمثابة انتقام كوبيّ منه.

لقد قدّم "إيدالبيرتو دو غيفارا كينتانا" الخبير القانونيّ الكوبيّ، الذي شغل لاحقًا منصب المدّعي العامّ في جمهوريّة كوبا، تحليلاً مفصّلاً لهذه العمليّة، في المحكمة الدوليّة، "الشبيبة تدين الأمبرياليّة" في أثناء المهرجان العالميّ للشبيبة والطلبة في هافانا صيف ١٩٧٨. يقول "دو غيفارا كينتانا" لقد أطلقت وكالة المخابرات المركزيّة شائعات مفادها أنّ "كوبيلاس" الذي اعتقلته السلطات الكوبيّة، كان "عميلاً مزدوجًا". وحسب هذه الرواية التي اختلقتها الوكالة، فقد أعلم "كوبيلاس" السلطات الكوبيّة بمخطّطات اغتيال

Summers A., *Conspiracy*, (New York1980), P. 271.- ١

قائد الثورة الكوبيّة وانتقامًا منها، قررت كوبا تنظيم اغتيال "جون كينيدي". وأكّد الخبير القانونيّ الكوبيّ على أنّ الاستخبارات الأميركيّة كانت تنوي تحقيق "نتائج نهائيّة في الصراع ضدّ الثورة الكوبيّة". وقال "دو غيفارا كينتانا" إنّه لو لم تتمكّن من إظهار مسؤوليّة كوبا عن اغتيال الرئيس "كينيدي" فإنّ أيّ عمل، بما في ذلك العدوان المباشر ضدّ بلادنا، المزيّفة، التي حاولت وكالة المخابرات المركزيّة عن طريقها اتّهام كوبا بالتلبّس في هذه الجريمة، والتزام الولايات المتّحدة بعدم التدخّل في كوبا، وتصميم الشعب الكوبيّ على حماية ثورته مهما كان الثمن غاليًا، وكذلك توازن القوى الجديد على الساحة الدوليّة، كلّ هذه العوامل أدّت إلى نسف المخطّطات العدوانيّة ضدّ الشعب الكوبيّ. وتابع كلامه قائلاً: إنّ المعلومات والمعطيات المتوفّرة في التحقيقات المختلفة، تدعو إلى الاعتقاد بأنّ مقتل الرئيس الأميركيّ كان بندًا مركزيًّا وأساسيًّا من مؤامرة حاكتها القوى السياسيّة والاقتصاديّة الجبّارة في الولايات المتّحدة، وممثّلو الأوساط الرجعيّة المتطرّفة، غير الموافقة على سياسة "جون كينيدي" الخارجيّة والداخليّة، على حدّ سواء. ورغم أنّ هذه السياسة لم تشكّل أيّ ابتعاد ملموس عن أهداف النظام الرأسماليّ في الولايات المتّحدة، فإنّ التغييرات التي جرت في عهد "كينيدي" قد مسّت، إلى حدّ ما، مصالح المجمع الحربيّ - الصناعيّ والاتّحادات الاحتكاريّة النفطيّة وبعض الاحتكارات الأميركيّة الأخرى، كما مسّت رجال الثورة المضادّة، من ذوي الأصل الكوبيّ، وعصابة المافيا، وبخاصّة وكالة المخابرات المركزيّة.

ثمّة جانب آخر مثير للريبة في قصّة "كوبيلاس". يقول "شليزنغر" إنّ وكالة المخابرات المركزيّة لم يكن لها علم بالمفاوضات التي جرت في خريف ١٩٦٣م مع الكوبيّين، بناء على تعليمات البيت الأبيض. غير أنّ الوكالة علمت بذلك. ويؤكّد شليزنغر على أنّ قصّة "كوبيلاس" كلّها، تثير ذلك القلق الكبير لهذا السبب. فقد اتّخذت

وكالة المخابرات المركزيّة قرارًا فوق العادة، بالإعداد لاغتيال فيدل كاسترو، في الفترة ذاتها التي كان فيها "جون كينيدي" يبحث إمكان تطبيع العلاقات مع كوبا. ويقول السفير الأميركيّ السابق "و. ايتوود": عندما علمت بهذه النوايا "كان بإمكان العناصر المتهوّرة في وكالة المخابرات المركزيّة" بالاشتراك مع المهاجرين الكوبيّين، "أن تقوم بذلك العمل الجنونيّ كاغتيال الرئيس".

وُلدت مخطّطات الاغتيالات السياسيّة للزعماء الأجانب في وكالة المخابرات المركزيّة في عهد "دالاس"، وبموافقته الكاملة. ويؤكّد خليفته "ج. ماكوين" على انّه لم يكن يعرف شيئاً، ولم يكن له علم بقرار وكالة المخابرات المركزيّة، إشراك قتلة من نقابة الإجرام الأميركيّة في تنفيذ مخطّطاتها. وفي الوقت نفسه، يحاول "هيلمز وكولبي" اللذان ترأسا وكالة المخابرات المركزيّة، في ما بعد، إثبات أنّ الأخوين "كينيدي" كانا على علم بجميع مخطّطات الاستخبارات ومشاريعها الآثمة. مثل هذه التأكيدات يفنّدها، من جهة ثانية، مستشارو "جون كينيدي" ومعاونوه السابقون. كما أنّ لجنة مجلس الشيوخ الخاصّة بدراسة نشاط الاستخبارات "لجنة تشرش" لم تعثر على أيّ أدلّة ضدّ الأخوين "كينيدي" في هذا المجال.

في محاولات "هيلمز وكولبي" وغيرهما من كبار المسؤولين في الاستخبارات تتراءى الرغبة في رفع المسؤوليّة عن عاتقهم، وتحميل المسؤوليّة الأساسيّة للأخوين "كينيدي"، وفي السعي إلى الانتقام منهما، لأنّهما خيّبا آمال "الاستخبارات المشتركة" في عدد من خطواتها، سواء تجاه كوبا أو تجاه فييتنام الجنوبيّة...

خصّص الصحافيّ الإنكليزيّ "ي. سامرس" عدّة سنوات لدراسة ظروف اغتيال "جون كينيدي" وعلاقات الرئيس بالاستخبارات. وقد اهتمّ اهتمامًا كبيرًا بعمل لجنة مجلس النوّاب في الكونغرس الأميركيّ، الخاصّة بالتحقيق في مقتل "جون كينيدي"

و"مارتن لوثر كينغ" في العامَي ١٩٧٦ و١٩٧٨، كما أجرى مقابلات وأحاديث كثيرة مع أعضائها، ومع الخبراء والعاملين السابقين في الاستخبارات. وقد أشار المؤرّخ "شليزنغر" والسفير الأميركيّ السابق "ي. ايتوود" في مقابلتهما معه في التصريحات المذكورة أعلاه حول "كوبيلاس"، إلى احتمال تلبّس "العناصر المتهوّرة في وكالة المخابرات المركزيّة" بمقتل "جون كينيدي". كما توقّف "سامرس" أيضًا، على المناحرات التي ظهرت بين البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزيّة، بخصوص جنوب فييتنام.

يقول "سامرس": "حول مسألة فييتنام، كان الرئيس "كينيدي" يعلم أنّه في صراع مباشر مع تجمّع قوى داخل وكالة المخابرات المركزيّة، كان يمسك، عمليًا، بأيديه الحرب مع فييتنام الجنوبيّة، وإنّ وكالة المخابرات المركزيّة كانت، عمومًا، ضدّ انسحاب المستشارين العسكريّين الأميركيّين، وكانت تنظر بكآبة إلى سياسة الرئيس القاضية بالفصل الشامل للقوّات المتحاربة. وقد حاول الرئيس إخفاء هذه الاختلافات الجذريّة عن الجمهور. وكان شخصيًا يشعر بقلق جدّيّ، وكان من بين خطواته الأخيرة، تشكيل مجموعة عمليّاتيّة لمراقبة الأعمال الاستخباريّة للولايات المتّحدة.

لم نعثر على أيّ تفاصيل في الأدبيّات الأميركيّة حول المجموعة العمليّاتيّة الخاصّة بمراقبة الأعمال الاستخباريّة للولايات المتّحدة. أمّا في ما يتعلّق بالنزاع بين "كينيدي" ووكالة المخابرات المركزيّة حول السياسة في فييتنام، فقد حدث هذا النزاع فعلاً، رغم أنّه لم يكن حادًّا، كما كان يتصوّر "سامرس". يقول "سورنسون": "أختلف مستشارو الرئيس "كينيدي" في الرأي بخصوص الوضع الداخليّ في سايغون، أكثر من اختلافهم حول أيّ مسألة أخرى طُرحت على الحكومة آنذاك". وكانت الاختلافات تتعلّق بتلك المسائل مثل: هل يجب العمل على تعزيز الوجود العسكريّ الأميركيّ في فييتنام

الجنوبيّة أم سحب المستشارين العسكريّين تدريجًا، ونقل إدارة الحرب إلى جيش سايغون، وهل يجب الإبقاء على نظام "تغودين ديم وأخيه نيو"، أم يجب استبداله بعصبة من الجنرالات كي يقوموا بالصراع بقوّة أكبر ضدّ حركة التحرّر الوطنيّ الفييتناميّة؟. وكانت وكالة المخابرات المركزيّة تدعو إلى توسيع الوجود العسكريّ في فييتنام الجنوبيّة، وتصعيد الحرب فيها. أمّا في ما يتعلّق بـ "تغودين ديم وأخيه نيو"، فقد كانت الاستخبارات الأميركيّة تقوم، حسب اعتراف "كولبي" بلعبة مزدوجة: كانت تبدو وكأنّها لا تعارض الإبقاء على نظامهما، وفي الوقت نفسه، تمارس عليهم أيّ ضغط بهدف عرقلة الانقلاب العسكريّ، الذي كانوا يعدّون العدّة له.

حتّى الآن، يعرض الباحثون الأميركيّون روايات مختلفة حول من كان صاحب المبادرة في الانقلاب الدمويّ في سايغون: البيت الأبيض أم وزارة الخارجيّة أم وكالة المخابرات المركزيّة. يؤكّد "كولبي" على أنّ وزارة الخارجيّة، بالذات، كانت صاحبة المبادرة، وعلى أنّ البيت الأبيض قد دعم فكرتها وأعطى موافقته عليها. يقول "كولبي": "واضح تمامًا أنّ القرار الأميركيّ بخصوص الانقلاب قد اتّخذه البيت الأبيض وليس وكالة المخابرات المركزيّة". ويؤكّد على أنّ الرئيس "كينيدي" وافق على الإطاحة بنظام "تغودين ديم"، ما أدّى إلى التدخّل العسكريّ المباشر للولايات المتّحدة في فييتنام، وإلى الانهيار اللاحق للسياسة الأميركيّة. وللتأكيد على فرضيّته هذه، يستند "كولبي" إلى رسالة مستعجلة أعدّتها وزارة الخارجيّة، ووقّعها "جون كينيدي" في ٢٤ آب ـ أغسطس،ورد فيها أمر إلى "غ. كيبوت لوج" السفير الأميركيّ في سايغون وإلى جميع العاملين تحت أمرته، أي إلى مقرّ وكالة المخابرات المركزيّة، بأن يدرسوا، بشكل عاجل، جميع الخيارات الممكنة في قيادة جنوب فييتنام، وأن يضعوا الخطط التفصيليّة حول كيفيّة استبدال "ديم"، إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. غير أنّ كولبي يتجاهل برقيّة

أخرى ليست أقلّ أهميّة من الأولى، كان البيت الأبيض قد أرسلها إلى السفير "لوج" ردًّا على الخبر الوارد من سايغون، حول الصدامات بين جنرالات جنوب فييتنام وعملاء وكالة المخابرات المركزيّة. وقد جاء في هذه البرقيّة المؤرّخة في ٥ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٦٣، ما يلي: "... أقرّ الرئيس اليوم توصية تحظّر، في الوقت الحاليّ، القيام بأيّ مبادرات يمكن تفسيرها على أنّها تشجيع سريّ نشيط للمؤامرة[١]". وقد وردت هذه البرقيّة أيضًا، في مجموعة وثائق البنتاغون السريّة، التي نُشرت في الولايات المتّحدة عام ١٩٧١. أمّا البرقيّات اللاحقة وحتّى يوم وقوع الانقلاب، كما يظهر من وثائق البنتاغون، فلا تحوي أيّة إشارة إلى أنّ الرئيس "كينيدي" ألغى أمره السابق، بعدم تشجيع الجنرالات على الإقدام على الانقلاب العسكريّ. وقد وردت إشارة غير مباشرة، إلى انعدام مثل هذا الإلغاء في قرار البيت الأبيض عام ١٩٧٠ بـ"فبركة" برقيّتين على أساس وثائق وزارة الخارجيّة، تنسبان إلى الرئيس "كينيدي" أمرًا بالقيام بالانقلاب والقضاء على "نغودين ديم". وكتبت صحيفة الـ غارديان" البريطانيّة تقول: "إنّ تحريف الوثائق قد تمّ بهدف إظهار تلبّس "كينيدي" وليس وكالة المخابرات المركزيّة في اغتيال الرئيس ديم".

لقد أكّد "روبرت كينيدي" بعد اغتيال أخيه، على أنّ الرئيس المغتال كان ضدّ القضاء على "نغودين ديم"، وأنّ جميع مرؤوسيه كانوا يعرفون حظره بهذا الخصوص. وهنا يبرز السؤال التالي: ما الذي لم يرق للمخابرات الأميركيّة في الرئيس "نغودين ديم" وأخيه، لا سيّما وأنّ القيادة العسكريّة الأميركيّة في سايغون، كما تشهد بذلك وثائق البنتاغون، كانت أيضًا ضدّ الإطاحة بـ"الرئيس" الدمية ونظامه؟ إنّ وكالة المخابرات

---

١ - The Pentagon Papers, (New York1971), PP. 215- 216.

المركزيّة، تنفيذاً منها لإرادة الاحتكارات النفطيّة، بادئ ذي بدء، كانت تسعى بمختلف الوسائل إلى وضع بلدان الهند الصينيّة تحت الوصاية الأميركيّة. ولكن اعتبارًا من خريف ١٩٦٣، كما يقول الصحفيّ الإنكليزيّ "بريندون"، الذي كان يعرف الرئيس "كينيدي" عن كثب، "كان الرئيس يبدو متعبًا من النزاع الفييتناميّ، وكثيرًا ما كان يتساءل عن كيفيّة التخلّص من الالتزامات حيال سايغون[1]".

في أواخر أيلول ـ سبتمبر، أرسل الرئيس "كينيدي" "مكنمارا" والجنرال "تايلور" إلى سايغون. وبعد عودتهما، قدّما توصية للرئيس تقضي بسحب الألف الأوّل من الخبراء العسكريّين الأميركيّين، بحلول نهاية عام ١٩٦٣، من جنوب فييتنام، وسحب بقيّة العسكريّين الأميركيّين جميعهم، بحلول عام ١٩٦٥. وقد أقرّ الرئيس هذه الخطّة رغم اعتراض وكالة المخابرات المركزيّة على هذا النهج.

إلى حدّ ما، تطابقت مخطّطات "جون كينيدي" مع المؤشّرات الجديدة التي ظهرت، في تلك المرحلة، على الميول الحياديّة لقيادة نظام سايغون. ويشير "شليزنغر" إلى أنّ "نغودين ديم" قد بدأ يميل إلى التسوية السلميّة للمشكلة الفييتناميّة، وكاتب شقيقه "نيو" بتعابير ديماغوجيّة لكنّها غيرر مألوفة بالنسبة للولايات المتّحدة، بسحب المستشارين العسكريّين الأميركيّين من جنوب فييتنام. وحتّى إذا كانت هذه المناورات مجرّد دسائس صغيرة من جانب دمى سايغون الذين أرادوا أن يظهروا، في أعين واشنطن، أعلى وأرفع ممّا هم عليه، فلا يمكن لوكالة المخابرات المركزيّة أن تقف منها موقف اللامبالاة...

---

١ - Brandon H. & Kalvelge C., *American Government Like It Is,* (New York, 1972), P. 86

لقد عاش "جون كينيدي"، بعد اغتيال "نغودين ديم" وشقيقه، نحو ثلاثة أسابيع فقط. ولكن خلال هذه الفترة القصيرة من الوقت، وفي حديثه مع السيناتور "ج. سمازوس"، عبّر عن شكوكه بأن تكون وكالة المخابرات المركزيّة هي التي اغتالت "ديم". وقد صرّح "سمازوس" قائلاً: "أذكر أنّ الرئيس "كينيدي" كان مذعورًا للغاية، من فكرة الاغتيالات السياسيّة. وكان يقول إنّ وكالة المخابرات المركزيّة كانت تدبّر أمورها وتنفّذها، في حالات كثيرة، دون علم منه، وأنّ هذا كان يسبّب له الأذى. وكان يشكو من أنّ وكالة المخابرات المركزيّة كانت تتمتّع باستقلال ذاتيّ تقريبًا. وقال لي إنّه يعتقد أنّ وكالة المخابرات المركزيّة هي التي دبّرت اغتيال "ديم و"تروخيلو"(ديكتاتور جمهوريّة الدومينيكان) وقد كان مذهولاً وغاضبًا جدًّا لذلك. وأراد أن يفرض رقابة على ما تفعله وكالة المخابرات المركزيّة[1]".

بالطبع، ينفي "ماكوين" مدير وكالة المخابرات المركزيّة، و"كولبي" الذي كان يشغل في تلك الأثناء، منصب رئيس قسم الشرق الأقصى في مديريّة التخطيط، بمراءاة، أي دور الاستخبارات الأميركيّة في المؤامرة، وفي القضاء على "ديم" و"نيو". غير أنّ "كولبي" نفسه، يعترف بأنّ "ل. كونين"، العقيد العامل في وكالة المخابرات المركزيّة، كان منذ بداية الانقلاب حتّى انتهائه وإنجازه، في أركان الجنرالات المتمرّدين، وكان يرسل من الأركان معلومات مفصّلة إلى مقرّ الوكالة في سايغون، وإلى السفير "لوج" عن كلّ ما كان يجري. وهذا يعني أنّ الانقلاب قد خُطّط له في لانغلي، مقرّ وكالة المخابرات المركزيّة في الولايات المتّحدة.

---

١ - Anderson J. K., *Anatomy Of Error,* (London,1970), P. 30.

لقد جاء ذكر الأسباب التي دعت حكومة الولايات المتّحدة إلى اتّخاذ قرارها بالتخلّص من دمى سايغون، الذين أصبحوا غير مناسبين لها. ويمكن هنا إضافة سبب آخر هو سعي الولايات المتّحدة إلى أن تُظهر، لجميع الأنظمة الخاضعة لها، أنّ عدم الطاعة والتمرّد يعاقبان بقسوة. هنا أيضًا، تتداعى المقارنة بالقضاء على ديكتاتور جمهوريّة الدومينيكان "تروخيلو"، الذي غدا متمرّدًا جموحًا إلى حدّ لا يطاق. وكانت خطّة استبعاده والقضاء عليه قد أُقرّت من قبل الرئيس "أيزنهاور". وفي الفترة بين كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٦٠ وكانون الثاني ـ يناير ١٩٦١، أقرّت اللجنة ٥٤١٢ تسليم دفعة صغيرة من الأسلحة الناريّة إلى مجموعة من الجنرالات الذين اختلفوا مع "تروخيلو". ولم يشكُ الجنرالات أبدًا في نقص في السلاح، غير أنّهم احتاجوا إليه، بصفة "دعم رمزيّ" من جانب الولايات المتّحدة[1].

عندما استلم "جون كينيدي" عمله كرئيس للولايات المتّحدة في ٢١ كانون الثاني ـ يناير، اصطدم على الفور بمشكلة الدومينيكان. وقد اتّخذ موقفًا مزدوجًا من الديكتاتور المتطرّف "تروخيلو". فقد خشي "جون كينيدي" أن يخلفه "نظام شيوعيّ"، لهذا طالب بعدم إزاحته من الساحة السياسيّة، إلى أن يتمّ إعداد بديل مناسب له. وختم الرئيس إحدى البرقيّات المرسلة إلى عاصمة الدومينيكان سانتو ـ دومينغو بالعبارة التالية: "إنّ الولايات المتّحدة لا يمكنها، من حيث المبدأ، أن تؤيّد الاغتيالات السياسيّة". ولكن في اليوم التالي، في ٢٩ أيّار ـ مايو، اغتيل "تروخيلو"، لأنّ "جون كينيدي" نفسه قال بصراحة في البيت الأبيض لمساعده "ر. غودوين"، بأنّه لا يعترض على "رحيل

---

١ - International Herald Tribune, 24, XI, 1975.

تروخيلو"، غير أنّ هذا يجب أن يتمّ من جانب الدومينيكيّين أنفسهم، دون "دفع" لهم من جانب الولايات المتّحدة[1].

يرتبط بجمهوريّة الدومينيكان فصل هام في العلاقات بين وكالة المخابرات المركزيّة والبيت الأبيض في عهد "جون كينيدي". نتيجة للانتخابات التي جرت، لأوّل مرّة، في الدومينيكان، انتُخب رئيسًا للجمهوريّة الليبراليّ "خوان بوش"، الذي أعلن تمسّكه بـ"الاتّحاد من أجل التقدّم"، وهو برنامج "جون كينيدي" في أميركا اللاتينيّة، الذي كان موجّهًا لمحاربة القوى التقدّميّة، والذي كان يركّز الاهتمام على الأنظمة النيابيّة المدنيّة وليس على الأنظمة العسكريّة. وكان "خوان بوش" و"جون كينيدي" يرتبطان بعلاقات صداقة شخصيّة. وفي ٢٥ أيلول ـ سبتمبر ١٩٦ جرى انقلاب عسكريّ في سانتو ـ دومينغو، حرم "خوان بوش" من السلطة وأرغمه على مغادرة البلاد. هذا الانقلاب كان مفاجأة حقيقيّة لـ"جون كينيدي"، رغم أنّ وكالة المخابرات المركزيّة كانت على علم بالانقلاب الذي يجري الإعداد له، وزوّدت، مسبقًا، الصحافيّ الأميركيّ "هـ هندريكس" الوثيق الصلة بالاستخبارات، بالمعلومات اللازمة. كان يقف خلف هذا الانقلاب، بالإضافة إلى الاستخبارات المركزيّة، المافيا الأميركيّة التي حوّلت جمهوريّة الدومينيكان، بعد فقدها لكوبا، إلى مقمرة كبيرة في حوض الكاريبي ومركز لتجارة المخدّرات.

بعد أسبوع واحد، حدث انقلاب في هندوراس، فاستدعى "جون كينيدي" على الفور، السفيرَين الأميركيّين من جمهوريّة الدومينيكان وهندوراس، وأوقف المساعدة الاقتصاديّة والعسكريّة عن هذَين البلدَين.

---

١ - Schlesinger A. M. Junior, *Robert Kennedy And His Times*, PP. 490- 491.

بعد انقضاء أقلّ من نصف عام على مقتل "جون كينيدي"، ساعدت وكالة المخابرات المركزيّة، بنشاط، الانقلاب الرجعيّ العسكريّ في البرازيل، أكبر بلدان أميركا اللاتينيّة، وهو الانقلاب الذي ألحق الضربة القاضية الأخيرة ببرنامج "الاتّحاد من أجل التقدّم"، الإصلاحيّ البورجوازيّ. وحرّكت وكالة المخابرات المركزيّة أنصارها وعملاءها المتطرّفين في جميع بلدان أميركا اللاتينيّة، تدريجًا، بلدًا إثر آخر. وهذا سيؤكّد حقيقة، على أنّ وكالة المخابرات المركزيّة لم تؤيّد جوانب معيّنة من سياسة "كينيدي" في أميركا اللاتينيّة، كما هو الأمر في الهند الصينيّة. من بين اعتراضات وكالة المخابرات المركزيّة على سياسة "جون كينيدي"، يسترعي الانتباه، بادئ ذي بدء، السخط على خطوات الرئس باتّجاه التخفيف من حدّة التوتّر، والابتعاد ـ وإن كان هذا الابتعاد خفرًا ـ عن استراتيجيّة الحرب الباردة، وعلى محاولات تحسين العلاقات السوفياتيّة الأميركيّة. ومن وراء ظهر الرئيس، كان "ماكوين" مدير الوكالة، على سبيل المثال، يُقنع أعضاء الكونغرس بعدم التصديق على اتّفاقيّة موسكو التي وقّعها الاتّحاد السوفياتيّ والولايات المتّحدة وبريطانيا حول حظر التجارب النوويّة في البرّ والبحر والجوّ[1]. وحتّى أيّامه الأخيرة، لم يعلم "جون كينيدي" بعدم ولاء مدير وكالة المخابرات المركزيّة، على هذا النحو الصارخ.

"غ. هانت"، أحد أفراد "العصابة الكوبيّة" في وكالة المخابرات المركزيّة الذي صوّر، في كتابه "أبعث لنا ذلك اليوم"، الأخوين "كينيدي" على أنّهما "مصيبة قوميّة" لأميركا، كتب يقول: "لقد ذُهلنا من الموقف الإيجابيّ الذي أصبح دارجًا في واشنطن، من التخفيف من حدّة التوتّر الدوليّ". ولعلّ "ج. أولكوت" الذي كان يعمل في أوائل

---

١ - Halerstam D., The *Best And The Brightest*,(New York, 1972), P. 294.

الستّينات في قاعدة كبيرة للمخابرات المركزيّة الأميركيّة بالقرب من طوكيو، قد عرى، على نحو أكبر، الاتّجاهات التي كانت تسود وكالة المخابرات المركزيّة.

يقول "أولكوت" في مذكّراته: "إنّ مقتل "جون كينيدي" لم يحزن أحدًا من العاملين في قاعدة طوكيو التي تدخل في عداد قواعد الدرجة الأولى لوكالة المخابرات المركزيّة. فقد بدا مقتله وكأنّها نهاية منطقيّة لرئيس جلب لنفسه الحقد والسخط المتزايدَين. وقد نشأ هذا الحقد والسخط عليه نتيجة الفشل في خليج الخنازير، وسياسة التفاوض مع الشيوعيّين، التي اتّبعتها إدارة "كينيدي" حسب رأي الأغلبيّة.

هذه المشاعر كانت تسيطر، على نحو خاصّ، على الموظّفين العمليّاتيّين من المراتب العليا. فقد اعتبر رؤساء الفروع ونوّابهم ورؤساء العمليّات وعناصر الاستخبارات، "جون كينيدي" خطرًا على الأجهزة السريّة. وأصبح فقدان الامتيازات الخاصّة، والعلاوات الماليّة، والوضع الرفيع، والرواتب التقاعديّة الكبيرة، أي كلّ ما يحصل عليه "أساتذة المعطف والخنجر"، إمكانًا واقعيًّا، بل واحتمالاً قائمًا.

في القاعدة، كما هو الأمر في وكالة المخابرات المركزيّة عامّة، كانت تسيطر الآراء المحافظة والمعادية للشيوعيّة. وكان من غير المنطقيّ التأييد العلنيّ الصريح لـ"ليبراليّة كينيدي"، لأنّ هذا كان يعني المخاطرة بالترقيّ في المناصب والترفيع في الخدمة. وبحلول يوم ٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر، أي يوم اغتيال كينيدي، كنّا نعرف هذا جيّدًا. وقد كوفئ "كينيدي"، أثناء تصديق معاهدة حظر التجارب النوويّة في أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٢، بنعته بـ"الخائن" و"السائر في ركاب الاتّحاد السوفياتيّ". وقد اعتُبر دعم الإدارة للتكامل العنصريّ و"حملة كينيدي الصليبيّة الشخصيّة" ضدّ التنزيلات الضريبيّة لاستنزاف موارد الاحتكارات النفطيّة، بمثابة هجوم على حريّة الأعمال. كما كنّا نخاف كثيرًا من التسوية السياسيّة والانسحاب من فييتنام، بدلاً من النصر العسكريّ الكامل.

بيد أنّ الأكثر تردّدًا وشرًّا، كان اتّهام "كينيدي" بخرف الاتّفاق السريّ مع "دالاس" حول دعم التدخّل في خليج الخنازير[1]".

وحتّى إذا ما كان هناك شيء من المبالغة في هذا المقطع، ففيه يتجلّى بوضوح ذلك الاتّجاه في وكالة المخابرات المركزيّة، الذي لم نعهده فيها في عهد "ترومان" و"أيزنهاور"، وهذا الاتّجاه هو السخط على الرئيس وعلى سياسته. وقد عُرضت هذه الأفكار وطُوّرت بالتفصيل من جانب "ج. أولكوت" وغيره من العاملين السابقين الآخرين في وكالة المخابرات المركزيّة، في جلسات لجنة مجلس النوّاب الخاصّة بالتحقيق في مقتل "جون كينيدي" و"مارتن لوثر كينغ". فقد درست هذه اللجنة مسألة إمكان تلبّس وكالة المخابرات المركزيّة في اغتيال "جون كينيدي"، وكشفت عن وقائع السلوك المريب لعدد من العاملين في الوكالة، وهو السلوك الذي تجلّى، على وجه التحديد، في ارتباطهم بعلاقات مع "لي هارفي أوسوالد" المتّهم باغتيال الرئيس. ووجّهت اللجنة انتقادًا حادًّا إلى وكالة المخابرات المركزيّة، لإخفائها عن لجنة "أورين"، خلال أعوام ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦، إضبارة "أوسوالد" والوثائق والموادّ الأخرى، ولخداعها لجنة "أورين". وفي الآن نفسه، اعترفت اللجنة بأنّها لم تستطع الحصول، من وكالة المخابرات المركزيّة، على كثير من الوثائق والموادّ المتعلّقة باغتيال الرئيس. أعلنت اللجنة أنّها لم تعثر على وقائع تثبت التأكيدات القائلة بأنّ وكالة المخابرات المركزيّة كانت متلبّسة في مؤامرة تهدف إلى اغتيال الرئيس "جون كينيدي". وقد خلصت لجنة مجلس النوّاب الخاصّة بالتحقيق في مقتل الرئيس "كينيدي" و"مارتن لوثر كينغ" إلى حكم مفاده أنّ رجال عصابة المافيا والتجمّعات الكوبيّة المعادية للثورة هم مشاركون

---

١ - Clandestine America, 1978, May - June.

محتملون في المؤامرة[1]. وقد كان المهاجرون الكوبيّون، بخاصّة، على ارتباط وثيق بوكالة المخابرات المركزيّة، الأمر الذي يقود المحقّقين الأميركيّين إلى تحقيقات ودراسات جديدة لآثار مشاركة الاستخبارات في المؤامرة. إنّ بحث الدور الممكن لوكالة المخابرات المركزيّة في اغتيال "كينيدي" من قِبَل لجنة مجلس النوّاب الخاصّة، وقبلها من قِبَل لجنة "تشرش" ولجنة "روكفلر"، وظهور عدد من الكتب في الولايات المتّحدة، التي تحاول إثبات هذا الدور، وظهور الأبحاث والدراسات التي تعالج النزاعات بين وكالة المخابرات المركزيّة والبيت الأبيض في أعوام ١٩٦١ ـ ١٩٦٣، إنّ هذه الوقائع كلّها بحدّ ذاتها، قد تطلّبت من أعمدة "الاستخبارات المشتركة" وأركانها اتّخاذ التدابير التي "تبعدها عن حرق يديها". وقد بدأ العاملون السابقون في وكالة المخابرات المركزيّة بتخصيص أهمّ حيّز لـ "جون كينيدي" في كتبهم ومحاضراتهم التي يلقونها أمام الجمهور الواسع، وأخذوا يربطون باسمه أسلوب قيادة الاستخبارات الذي أكسبها طابعًا عدوانيًّا مخفّفًا أنيقًا. في مثل هذا المفهوم بالذات، تتردّد أوصاف العلاقات بين "جون كينيدي" ووكالة المخابرات المركزيّة، التي نجدها في كتاب "كولبي"، حيث يقول: "جوهر المسألة هو، أنّ وكالة المخابرات المركزيّة لم تستطع أن تحوز على صديق لها في منصب الرئيس أفضل من "جون كينيدي". لقد كان يفهم الوكالة فهمًا جيّدًا وقد استخدمها بصورة فعّالة، معتمدًا خلال ذلك على قدراتها العقليّة في تحليل العالم المعقّد. لقد استخدم "كينيدي" مواردها السياسيّة السريّة وشبه العسكريّة الموهوبة، من أجل الردّ على تعقيدات الوضع الدوليّ بصوت خافت[2]".

---

١ - Report Of The Select Commitee On Assassinations, U.S. House Of Representatives, Ninety - Fifth Congress, Second Session, (Washington,1979), PP. 109- 180.

٢ - Colby W., *Forbath P. Honorable Men,* P. 221.

يبدو أنّ الأمور كانت هكذا فعلاً، ولكن هل اقتصرت على ذلك؟. على أساس مثل هذه الصبغة، "إنّ وكالة المخابرات المركزيّة لم تستطع أن تحوز على صديق لها في منصب الرئيس أفضل من "جون كينيدي"، تغرس في أذهان الأميركيّين فكرة مفادها أنّه لم تكن هناك أيّ خلافات بين "جون كينيدي" ووكالة المخابرات المركزيّة، وبالتالي فهي لم تشترك في مؤامرة ضدّه. بالطبع كان "جون وروبرت كينيدي" نصيرَين ثابتَين لاستخدام وكالة المخابرات المركزيّة في السياسة الخارجيّة، لقد حاولا تعزيز "الاستخبارات المشتركة" ساكبَين فيها "دمًا طازجًا". وكلاهما، وبالأخصّ روبرت، مارسا شخصيًّا قيادة الاستخبارات، واستوعبا مخطّطاتها العمليّاتيّة. بيد أنّ هذه الوصاية، من جانبهما، أثارت تذمّرًا في وكالة المخابرات المركزيّة التي اعتادت العمل باستقلال أكبر وبرقابة أقلّ. كما أنّ الاتّجاهات الجديدة في سياسة "جون كينيدي" الخارجيّة لم ترق لـ"العناصر المتهوّرة" في الوكالة. هذا كلّه وغيره، خلق النزاعات الخفيّة، وهي خلافات ونزاعات لم تحدث من قبل بين وكالة المخابرات المركزيّة من جهة، وبين "ترومان" و"أيزنهاور" من جهة أخرى.

عندما يعيد المرء قراءة تقويم "كولبي" يتساءل: هل من المعقول أنّ "جونسون" الذي استلم الرئاسة بعد اغتيال "كينيدي" كان صديقًا أقلّ وفاء وإخلاصًا وتعاطفًا مع وكالة المخابرات المركزيّة من سلفه؟ الأدبيّات الأميركيّة لا تضمّ، حتّى الآن، أيّ إشارة تدلّ على أنّ "جونسون، لم يرق، بشكل من الأشكال، لـ"الاستخبارات المشتركة". والعكس هو الصحيح، فقد لوحظ في عهده التحام نادر لمصالح البيت الأبيض و"الاستخبارات المشتركة"، اشتهر بأنّه عودة إلى عصر "ترومان" و"أيزنهاور [1]".

---

١ ـ فيتالي فاشيلفتش بتروستكو، البيت الأبيض والاستخبارات الأميركيّة، ترجمة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، (دمشق، ١٩٨٩) ص١٢٣ ـ ١٥٤.

تجاوُزات وكالة المخابرات المركزيّة

جاءت فضيحتا ووترغيت والحرب الفييتناميّة عندما ضلّلت الحكومة الأميركيّة الشعب بالمسار الحقيقيّ للحرب وعندما غطّى الرئيس نيكسون على تورّط البيت الأبيض في اقتحام مقرّ اللجنة القوميّة الديمقراطيّة. ولم يجد الكونغرس منفذاً آخر يتطلّع منه بعد أن أماط، سيمور هارش الناشر في صحيفة نيويورك تايمز، اللثام في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٧٤ عن حقيقة خرق وكالة المخابرات المركزيّة لبنود ميثاقها بأن تجسّست على الأميركيّين أنفسهم ممَّن عارضوا حرب فييتنام.

في ١٩٧٥ بدأت اللجنة التي ترأسها السيناتور الراحل "فرانك تشرش" تحقيقاتها التي قلبت الوكالة رأسًا على عقب وغيّرت جذريًّا من منهجيّتها في العمل. لقد وجدت اللجنة وكذلك لجنة الرئيس التي ترأسها نائب الرئيس "نلسون روكفلر" أنّ الوكالة، على مدى عشرين عامًا، قد استسلمت وفتحت بشكل غير قانونيّ الرسائل البريديّة بين الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفياتيّ، واحتفظت بملفّات لآلاف المواطنين الأميركيّين، وفهرست أسماء ثلاثمائة ألف مواطن أميركيّ دون أن تكون لهم أيّ علاقة بالتجسّس.

ليس هذا فحسب، بل إنّ الوكالة تسلّلت إلى المجاميع المنشقّة في واشنطن العاصمة وأجرت تجارب بالـ .L.S.D على مواطنين أميركيّين لا تحوم حولهم ذرّة شكّ، الأمر الذي حدا بأحدهم إلى الانتحار. وقامت الوكالة بعدّة محاولات فاشلة لاغتيال عدد من الزعماء الأجانب من بينهم الزعيم الكوبيّ فيدل كاسترو.

لم تفعل الوكالة أيًّا من هذه الأعمال دون مصادقة الرئيس عليها أو إصداره أمرًا مباشرًا لها، ومعظمهم يعرف هذه الحقيقة ومن ضمنهم المدّعي العام.

هذه الإساءات جميعها قد توقّفت بمجرّد أن تكشفت خيوطها. وإنّ الوكالة نفسها هي التي كشفت النقاب عن معظمها تقريبًا.

لقد أصدر جيمس شيلسنجر، بصفته مديرًا للوكالة، أمرًا عام ١٩٧٣، إلى جميع موظّفي الوكالة بالإبلاغ عن أيّ نشاط يقع خارج الميثاق القانونيّ للوكالة، وكان مخاض ذلك "المجوهرات العائليّة" أو مجوهرات أسرة وكالة المخابرات المركزيّة، وهي وثائق بلغ تعداد صفحاتها ستّمائة وثلاث وتسعين صفحة قدّمها ويليام كولبي إلى مجلس الشيوخ بعد أن تمّ ترشيحه لمنصب مدير وكالة المخابرات المركزيّة.

إنّ هذه الإساءات لم تكن مجرّد نشاطات غير مناسبة وغير قانونيّة فحسب، بل إنّها جسّدت نقصًا في فهم ماهيّة أميركا. كما عكست هذه الإساءات وجهًا شنيعًا للّاكفاءة التي تحلّت بها الوكالة. فهي قد جنّدت، على سبيل المثال، عناصر من المافيا لاغتيال كاسترو، وهو عمل لا يمثّل مجرّد خرق صارخ لميثاقها بل غباء أيضًا.

أفضت مرافعات تشرش إلى إحكام قبضة الكونغرس على النشاطات السريّة وكذلك تأسيس لجان استخباريّة دائمة عامَي ١٩٧٦ و١٩٧٧ لمراقبة الوكالة وفروعها المرتبطة بها. وكان هذا بصيص الأمل الأخير الذي نظر منه الأميركيّون للوكالة وما ستفعله بعدئذ. أمّا ضبّاط الوكالة فقد كرّروا قولهم الذي تعلّموه: "إنّكم تخبرون العامّة بأخطائنا وتكتمون عنهم نجاحاتنا".

لقد أثبتت النظرة القديمة المأخوذة عن الوكالة صحّتها، فهي ليست كما تبدو عليه. فحتّى المعلوماتيّة البسيطة مثل عدد مستخدمي الوكالة أمست مجهولة للصحافة التي

بلغها أنّ هذا العدد يبلغ ستّة عشر ألف مواطن، في حين كان العدد الحقيقيّ يربو على اثنين وعشرين ألفًا ناهيك عن استخدام أربعة آلاف مواطن آخرين على أساس العقد او الدوام الجزئيّ.

لوكالة المخابرات المركزيّة محطّات موزّعة في مائة وثلاثين بلدًا تتراوح، في حجمها، من محطّة ذات شخص واحد كتلك الموجودة في بعض الأقطار الأفريقيّة، إلى مراكز تتألّف من ستّين شخصًا، بما فيهم موظّفو الإعانة، في مدن كطوكيو وروما. ويتواجد قرابة ١٥٪ من موظّفي الوكالة خارج البلاد.

تضمّ محطّات الوكالة، بالاعتماد على حجمها، مديرًا للإعانة وضابطًا ماليًّا وضابط اتّصالات وضابط نقل وضابط ملاك. وللمحطّات الكبيرة فروع يتركّز اهتمامها في الأمور السياسيّة الداخليّة والأمور السوفياتيّة والإرهاب والمخدّرات والأسلحة النوويّة والاتّصال مع المخابرات المحليّة وأجهزة الأمن الداخليّ.

تحصل وكالة المخابرات المركزيّة من خلال اتّصالاتها مع المخابرات المحليّة على معلومات عن أناس ذوي أهميّة لها، وهي تقدّم، بالمقابل، المعلومات التي يحتاجها البلد المضيف، مثلاً مكان أحد اللاجئين، والاعتمادات الماليّة لمساعدة ذلك البلد في مواجهة مشاكل الإرهاب والشيوعيّة المحليّة. بيد أنّ وكالة المخابرات المركزيّة تلعب على الحبلَين، فهي تجنّد أعضاء في أجهزة المخابرات المحليّة لمعرفة ما يفعله البلد لاختراق أو مقاومة الوكالة المركزيّة، وتسعى، في ذات الوقت، للحصول على المعلومات التي لا ترغب أجهزة المخابرات المحليّة مشاطرة الوكالة بها. وفي الغالب يكون اتّصال ضبّاط الوكالة مع الأجهزة المحليّة ذريعة للتودّد إلى أفراد هذه الأجهزة وتجنيدهم. وعلى النقيض من هذا الأمر، جنّدت غانا "شارون سكربنج" موظّف إعانة في وكالة المخابرات المركزيّة لتعرف غرض الوكالة داخل البلاد.

يتمثّل دور المحطّات الرئيسيّ في تجنيد العملاء كي يزوّدوا الوكالة بما تفعله الحكومة المضيفة، ونقل نشاطات دبلوماسيّي الدول الأخرى كالاتّحاد السوفياتيّ والصين الشيوعيّة، التي هي موضع اهتمام الوكالة. ويتسلّم ضبّاط الوكالة المعلومات من العميل، طبقًا لدرجة حساسيّة منصبه، في فترة الغداء عن طريق فيلمات توضع في ثمار ميتة ساقطة من جذل الأشجار. وينقل العميل الوثائق أو الميكروفيلم إلى ضابط الوكالة في محفظة صغيرة أو أيّ مادّة أخرى لمّا يمرّ أحدهما بالآخر. وغالبًا ما تستخدم الإرسالات المشفّرة بالراديو أو الأقمار الصناعيّة أو بأشعّة الليزر الموجّهة على البنايات. والسبيل الوحيد لاعتراض الاتّصالات بالليزر يكون في نصب جهاز استقبال في طريق الأشعّة.

إنّ علينا، إذا أردنا ان نعرف ماهيّة وكالة المخابرات المركزيّة الحقيقيّة وطرق تفكير وعمل ضبّاطها، أن نسبر غور المكوّنات الخمسة للوكالة والتي هي أربع مديريّات ومكتب مدير وكالة المخابرات المركزيّة. فلكلّ من هذه المديريّات رسالتها وثقافتها ونصيبها من العمل الخاصّ بها، ونادرًا ما اطّلعت مديريّة على نشاط المديريّة الأخرى المعنونة إلى مدير وكالة المخابرات المركزيّة D.C.I.[1]. حتّى لتبدو كلّها كفرق رياضيّة متخاصمة تدخل كلّ منها في تنافس صامت مع الأخرى لعلّها تفوز بالأموال المخصّصة للوكالة أو أن تسرق الاهتمام إليها أو أن تحوز منصبًا ساميًا لها لإدراكها أنّها الأهمّ بين هذه المديريّات.

---

١ - إنّ منصب مدير المخابرات المركزيّة D.C.I. لا يعني أنّه مدير لوكالة المخابرات المركزيّة فقط بل لكامل المجتمع الاستخباريّ الذي يشتمل على عشرات الوكالات الاستخباريّة العسكريّة ووكالة الأمن القوميّ وقسم الاستخبارات المضادّة لمكتب التحقيقات الفدراليّ، الذي تخضع ميزانيّته إلى الكونغرس عن طريق مدير وكالة المخابرات المركزيّة.

تضمّ كلّ مديريّة فروعًا داخليّة مفصلة وذات طبيعة يتفرّد فيها كلّ فرع عن الآخر. إذ أناطت مديريّة العلوم والتكنولوجيا بمكتب الخدمات الفنيّة التابع لها مهمّة تزويدها بمعدّات فتح الأقفال ونصب أجهزة التنصّت وبناء أجهزة تحويل الصوت إلى كتابة ورقيّة تُستخدم في الكتابة السريّة. وأشركت مديريّة الإدارة المكتب الأمنيّ التابع لها في التحقيقات التجسّسيّة يدًا بيد مع مكتب التحقيقات الفدراليّ، وفي تفتيش مكاتب الوكالة خشية وجود أيّ أجهزة تجسّس خارجيّة. كما أوكلت المديريّة ذاتها بمكتب الإدارة الماليّة مهمّتَي إصدار شيكات الدفع وغسل الأموال المستخدمة في العمليّات السريّة، وبمكتب السوفيات مهمّة تنظيم الإشراف على منازل ضبّاط الوكالة وشراء الأسلحة لاستخدامها في الحروب البعيدة. أمّا مديريّة الاسخبارات فقد أوكلت مركز مكافحة المخدّرات التابع لها مهمّة استخدام الأقمار الصناعيّة لمراقبة حقول وزرع نباتات الكوكا والسفن المحمّلة بمادّة الكوكايين. كما كلّفت مركز مكافحة الإرهاب بأن يأخذ على عاتقه مسؤوليّة تعقّب الحسابات المصرفيّة للإرهابيّين وتوظيف الأقمار الصناعيّة لاعتراض الشيفرات الإلكترونيّة في تحويل الأموال من مصرف لآخر.

كما تملك الوكالة، بالإضافة إلى بناية مقرّها الرئيس، القديمة والجديدة، معملاً للطباعة خاصًّا بها يصدر الوثائق المصنّفة الروتينيّة، وكذلك مذكّرة الرئيس اليوميّة الموجزة التي تتألّف من ثماني إلى تسع صفحات ينتهي العمل منها يوميًّا في تمام الساعة الساسة صباحًا على شكل نسخة ثنائيّة الطيّ تسلّم إلى مدير الوكالة في منزله ليتصفّحها في طريق ذهابه إلى البيت الأبيض لعرضها على الرئيس في تمام الساعة الثامنة صباحًا. ويوجد لها أيضًا مصنع طباعيّ سريّ آخر يقع في الطابق التحتيّ لمقرّ الوكالة الجديد، يصدر شهادات الميلاد المزوّرة وجوازات سفر أجنبيّة وإجازات سوق يستخدمها ضبّاط الوكالة في مهمّاتهم السريّة، بالإضافة إلى كتب ومنشورات بلغات

أجنبيّة لتوزيعها في الخارج، أو منشورات يتمّ إسقاطها في بلدان أخرى مثل العراق تُستخدم لأغراض الدعاية.

بالإضافة إلى ذلك تتفق الوكالة على اثنَين وعشرين مكتبًا آخر موزّعين داخل واشنطن، يأوي أحدها محطّة معلومات البثّ الإذاعيّ والتلفزيونيّ الخارجيّ التابعة للوكالة والتي ترقب وتترجم البثّ في جميع مناطق العالم، من ضمنها برامج تلفزيونيّة في سبعة وأربعين بلدًا. أمّا بقيّة المكاتب فمستأجرة بأسماء شركات وهميّة يتمّ استخدامها لتجنيد ضبّاط وكالة المخابرات الأجنبيّة بأن يديروا أعقابهم لبلدانهم ويتجسّسوا لصالح الولايات المتّحدة.

وتملك الوكالة في مدينة روسلين بفرجينيا مكتبًا لتجنيد جواسيس الوكالة نفسها، وهم لفيف من الضبّاط يعيشون في مناطق ما وراء البحار تحت حماية عملاء مجنّدين وسريّين خاطروا بحياتهم لأجل قضايا الولايات المتّحدة. فذلك هو دور الوكالة في أن تجمع المعلومات الاستخباريّة الخارجيّة، وهي لهذا الغرض أقامت لها مائة وثلاثين محطّة موزّعة في أرجاء العالم المتباعدة.

ما تزال الوكالة تقبع تحت طابع السريّة الكبير، فقد قرّر أعضاء جمعيّة نشاطات موظّفي الوكالة، في أواخر عام ١٩٩٠، بيع الصور الفوتوغرافيّة التذكاريّة للوكالة كالقمصان وقبّعات لاعبي البايسبول، فلقي هذا القرار المعارضة الشديدة من نائب المدير للإدارة لأنّ الوكالة تعتمد الاحتفاظ الدائم بالجانب المعتم عنها لدى الآخرين، وبرّر اعتراضه بعدم إمكانيّة الضبّاط السريّين أن يأخذوا لأولادهم مثل هذه التذكارات التي تخصّ الوكالة، وقال ريتشارد كير نائب المدير إنّ مبدأ الدعاية لصالح الوكالة يتعارض مع ميلها السرّيّ. فالوكالة قرّرت أن تبقى دومًا محجوبة حتّى أنّ السريّة توجب على الموظّفين توقيع تعهدّ، أثناء دخولهم أو خروجهم من سلك الخدمة، ينصّ

على إخضاع كلّ مذكّراتهم الخاصّة بعملهم لرقابة الوكالة أوّلاً. وبهدف المحافظة على السريّة أيضًا وافق العاملون في الوكالة على الخضوع لجهاز كشف الكذب مرّة كلّ خمس سنوات خوفًا من تسرّب الأسرار خارج حدودها.

ما تزال وكالة المخابرات المركزيّة شيفرة محيّرة لمعظم الأميركيّين. فبينما يراها البعض تهديدًا للحريّات الأميركيّة يجد فيها آخرون الحامي لنفس الحريّات. وقد وجد اقتراع هيئة رأي البحث لعام ١٩٧٩ أنّ ٦٢٪ من الأميركيّين ذوو آراء طيّبة عن وكالة المخابرات المركزيّة، بينما يمقتها ٢٤٪ معظمهم من خرّيجي الجامعات وذوي الدخل المرتفع، ولم يبدِ ١٤٪ رأيهم في الموضوع. وذكر "روبرت سيمونس" الضابط السابق في الوكالة والممثّل الحالي لولاية كينتاكي: "يتمتّع الشعب الأميركيّ عامّة بالصراحة خاصّة مع أحسن الأمور، لذا يبدو الشيء السرّيّ قبيحًا لديهم. إنّنا كبلد ينشد له أن يكون كمدينة على رابية ليرى منها الجميع، فأسلمت أنّ أيّ شيء سريّ لا يمكن أن يحفل بالطابع الأخلاقيّ والقانونيّ". أمّا نحن، كي نفرّق بين الحقيقة والأسطورة، فعلينا التمعّن في كلّ جزء من أجزائها، فهي لم تعد كيانًا منفردًا بل إنّ لكلّ حيّز فيها أسراره الخاصّة به[1].

١ ـ كيسلل رونالد، داخل السي أي أي وكالة المخابرات المركزيّة، ترجمة مالك فاضل البديري، الأهليّة للتوزيع والنشر (عمّان، لا.ت) ص١٤ ـ ٢٠، ٣١.

عمليّة الانقلاب على الإيرانيّ محمّد غلام مصدّق

"محمّد غلام مصدّق"، إيرانيّ، من مواليد ١٨٨٠، شغل مناصب سياسيّة مهمّة في إيران حتّى عام ١٩٢٠، أصبح عضوًا في البرلمان الإيرانيّ من عام ١٩٢٣ حتّى عام ١٩٢٨، تمّ نفيه سنة ١٩٢٨ من قبل الشاه رضا بهلويّ نتيجة لمواقفه السياسيّة والاقتصاديّة التحرّريّة. في آذار ١٩٣٩ رجع إلى طهران كنائب وقائد للجبهة الوطنيّة الإيرانيّة. عام ١٩٤٩ أصبح رئيسًا للجنة البتروليّة البرلمانيّة حيث قاد الحرب ضدّ الاستثمارات والامتيازات النفطيّة الأجنبيّة ورفع شعار تحرير البترول الإيرانيّ من التبعيّة للغرب.

في ٢٨ نيسان ـ إبريل ١٩٥١ قادت الجماهير الشعبيّة محمّد غلام صادق بفعل الضغط على القصر الملكي الإيرانيّ لمنصب رئيس الوزراء، وفي اليوم التالي أقرّ مجلس الوزراء مشروع رفض الامتيازات النفطيّة الأجنبيّة. جوبهت سياسة محمّد غلام صادق التحرّريّة الاقتصاديّة بعداء كلّ الشركات النفطيّة الأجنبيّة السبع التي كانت تسيطر على مجمل تجارة النفط العالم. توفّي بعد خروجه من السجن إثر مرض سرطانيّ يوم ٥ آذار ـ مارس ١٩٦٧. وهو يُعتبر من السياسيّيتن البارزين الوطنيّين الذين حملوا لواء التخلّص من التبعيّة الأجنبيّة...

قصّة ما تعرّض له محمّد غلام مصدّق أنّه في ليلة ١٥ آب ـ أغسطس ١٩٥٣، اقتحمت قوّات الحرس الملكي للشاه بيوت الوزراء لاعتقالهم،

وقد تكفّل الجنرال نصيري، مساعد الشاه القويّ، باعتقال رئيس الوزراء محمّد غلام مصدّق.

أمام مقاومة حرس رئيس الوزراء، فشل انقلاب الشاه على حكومته، واضطرّ للهرب إلى روما عن طريق بغداد. ومع تزايد التظاهرات الشعبيّة العارمة التي اجتاحت إيران تأييدًا لسياسة محمّد غلام مصدّق الوطنيّة والتحرّريّة والداعية لتأميم البترول الإيرانيّ، وما رافق تلك التظاهرات من تحطيم لتماثيل الشاه المنتشرة في كلّ المدن الإيرانيّة، بدأت مؤامرة إعادة إيران إلى النفوذ الأميركيّ مجدّدًا، وأوكلت مهمّة تنفيذ المؤامرة إلى الجنرال "فضل الله زاهدي" مرشّح الشاه لخلافة محمّد غلام مصدّق، وكان زاهدي مختبئًا في مقرّ السفارة الأميركيّة بطهران بمعيّة الجنرال الأميركيّ "تورمن شوارتزكف"، وقد جُعلت السفارة مقرًّا لتنفيذ الانقلاب المضاد...

قبل ذلك التاريخ، وتحديدًا في ١٩ آب ـ أغسطس ١٩٥٣، جنّدت المخابرات الأميركيّة بعض عناصر الشعب للنزول إلى شوارع طهران بسيّارات عسكريّة إيرانيّة وإحداث اضطرابات واستفزازات واعتداءات على المحلّات والمواطنين، والقيام بهتافات معادية لحكومة محمّد غلام مصدّق. وجرى تحويل مبلغ ١٩ مليون دولار أميركيّ من الإدارة الأميركيّة لتمويل الانقلاب المضاد، وذلك بشهادة مجلّة The Nation الأميركيّة. كما تمّ تجنيد مجموعة من حرس القصر الملكيّ وتسليحها تسليحًا خاصًّا مع تدريب عناصرها داخل السفارة الأميركيّة بطهران. وفي يوم ١٩ آب ـ أغسطس تحرّكت قوّات الانقلاب من مقرّ السفارة الأميركيّة بقيادة الجنرال زاهدي مدعومة بالدبّابات والمدفعيّة وحاصرت مقرّ رئيس الوزراء، ومحطّة الإذاعة، ووزارة الدفاع، وتمكّنت قوّات الانقلاب المضادّ هذه من السيطرة على الوضع بمساعدة المستشارين العسكريّين للسفارة الأميركيّة وكلّهم من رجال الـ CIA.

بعد يومين من الانقلاب، سلّم محمّد غلام مصدّق رئيس الوزراء نفسه بعد هربه من قصره... وحُكم عليه بالسجن الانفراديّ ثلاث سنوات، ومن ثمّ أطلق سراحه ليوضع قيد الإقامة الجبريّة. إلى أن توفّي في ٥ آذار ـ مارس ١٩٦٧، إثر مرض عضال، وكان محمّد غلام مصدّق يُعتبر من أشهر السياسيّين الإيرانيّين.

قال وزير الخارجيّة البريطانيّة أنطوني إيدن بعد سماعه بسقوط مصدّق: "لقد نمتُ سعيدًا في تلك الليلة"...

بعد الانقلاب المضادّ على حكومة محمّد غلام مصدّق دخلت إيران مجدّدًا حلبة النفوذ الأجنبيّ، وبالذات الأميركيّ، حتّى اعتبرت إيران الشرطيّ الأميركيّ الأوّل في الخليج والشرق الأوسط[١].

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص٨٠ ـ ٨١.

مُحَاولَة التخلُّص من فيديل كَاسترُو

"فيديل كاسترو"، قاد الثورة ضدّ حكم الديكتاتور "فولجنسيو باتيستا" في أول كانون الثاني ١٩٥٩، وما زال لغاية الآن رئيسًا لكوبا الجزيرة التي تقع على بعد أميال من اليابسة الأميركيّة. من هنا الاهتمام الزائد والمتواصل بإقامة نظام موال للولايات المتّحدة على أنقاض النظام الشيوعيّ الحاليّ. أحصي أكثر من عشر محاولات أميركيّة للتخلّص من كاسترو باء جميعها بالفشل.

كانت المحاولة الأولى ليل ٢٠ تمّوز ـ يوليو ١٩٦٠، إذ تمّ إنشاء فريق عمل مشكّل من "رينشارد بيسل" نائب مدير الـ CIA، و"تريس بارنس" نائبه للخطط وكذلك عن مديريّة العمليّات السريّة في الـ CIA، ومن "ج. سي. كنغ"، رئيس قسم العالم الغربي في مدرسة الخطط.

تمّ وضع أوّل خطّة للتخلّص من كاسترو على أن يكون أداة التنفيذ أحد الكوبيّين الناقمين على النظام الشيوعيّ والمتعاون سابقًا مع الوكالة. وقد أكّد بيسل في شهادته أمام لجنة تشيرش هذه المعلومات، ولم يتمّ السير بتنفيذ أولى هذه المحاولات للشكّ بأن يكون الكوبيّ المتعاون عميلاً مزدوجًا.

بعد الاستغناء عن تنفيذ المحاولة الأولى، جرت خلال الحقبة من أعوام ١٩٦٠ لغاية ١٩٦٥ أكثر من تسع محاولات شارك فيها جميعًا وخطّط لتنفيذها فريق الاغتيال في قسم الخطط، وتراوحت هذه المحاولات بين تقديم أسلحة وكبسولات سامّة إلى

القوى المعارضة لكاسترو، وبين نزول فريق عملانيّ كامل من المخابرات إلى الساحة لتنفيذ عمليّات الاغتيال المباشر، كذلك تمّ التخطيط لاستعمال الأقلام المسمّمة والمساحيق الجرثوميّة القاتلة...

ولم تتوقّف محاولات الـ CIA على رسم الخطط لتنفيذ الاغتيال، بل صاحبتها أيضًا خطط أخرى هدفت إلى تشويه سمعة كاسترو بواسطة استعمال أدوات للهذيان يظهر من خلال هذه الأدوات وكأنّه مجنون فعلاً، ومن أبرز الخطط لذلك محاولة رشّ استديوهات الإذاعة الكوبيّة قبل ساعات من إلقاء كاسترو لخطاب مباشر عبر الإذاعة بموادّ عقاريّة معروفة باسم LSD، على أن تنشر هذه المواد في قاعة الاستوديوهات... أمّا تأثيرها فجنونيّ على الحاضرين، وهي تجعل المتكلّم يهذي وينسى نفسه، وهذا ما يعرّضه وخطابه للسخرية من قبل المشاهدين والمستمعين كذلك. كما تمّ الاتّفاق على دهن صندوق سيجار بالموادّ ذاتها في نفس الوقت وتقديمه لكاسترو قبل إلقاء خطابه...

هذه الخطط لم تنفّذ بسبب عدم الوثوق من صلاحيّة هذه الموادّ لفعل التأثيرات المطلوبة، وللخوف من انكشافها بعد فشل قدرتها على تنفيذ هذه المخطّطات الهلوسيّة.

كذلك وضعت خطّة لتشويه صورة كاسترو بإزالة لحيته المعروفة بواسطة مواد "الثاليوم" التي تُدهن بها جزمته أثناء قيامه بأيّ رحلة خارج كوبا... في تلك الحقبة، وخلال تركه لجزمته للتلميع والتنظيف خارج غرفته... تؤخذ من قبل عملاء بمادّة الثاليوم. وقد جرت تجربة هذه الموادّ على كثير من الحيوانات وأثبتت الاختبارات نجاحها، لكنّ هذه الخطّة لم تنفّذ أيضًا لأنّ كاسترو كان قد ألغى رحلاته إلى الخارج خلال تلك المدّة[١].

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص٧٨ ـ ٧٩.

في ١٧ نيسان - إبريل ١٩٦١ ثار الرئيس جون كينيدي إلى درجة الجنون عندما علم بالهزيمة التي أصابت عملاء وكالة المخابرات المركزيّة مع مَن غزوا كوبا، فأمر بإعادة تنظيم جهاز المخابرات المركزيّة الأميركيّة وبتحضير أعمال جديدة لقلب نظام فيدل كاسترو.

كتب روبرت كينيدي في إحدى رسائله السريّة: "لن يكون هناك أيّ تعايش ممكن مع نظام مجاور كالحكم الكاستروي".

وصرّح الرئيس كينيدي، أثناء حملته الانتخابيّة موجّهًا كلامه إلى وكالة المخابرات المركزيّة: "إذا كنتم عاجزين عن مواجهة كاسترو فكيف يمكنكم إقناعنا بأنّكم قادرون على مجابهة خروتشوف".

لقد شعر الرئيس كينيدي، بعد استلامه مهامه، بالرضا المرير عندما تبيّن بأنّه خُدع عندما التقى خروتشوف في فيينّا، وبعدما انتهت المحادثات بينهما قال منذهلاً: "لقد أضناني، لقد عاملني بترفّع، وأعتقد بأنّ ذلك كان بسبب عمليّة خليج الخنازير. وهو ينكر، بدون شكّ، بأنّ الغلمان وحدهم، الذين لا يملكون أيّ تجربة، يمكن أن يندسّوا في عشّ زنابير كهذا. فبالنسبة إليه يجب ألاّ يكون في العقل شيء حتّى يقوم المرء بعمليّة كهذه، ولا بدّ من أن يكون المرء عاجزًا تمامًا حتّى يقودها بهذا الشكل، وطالما أنّنا لم نستطع اقتلاع هذه الفكرة من ذهنه فلن نتوصّل لشيء معه. لذلك لا بدّ لنا من أن نفعل شيئًا".

هكذا بدأ كينيدي التخلّص من ألن دالاس مدير الاستخبارات وكما ذكرنا سابقًا، قال الرئيس الأميركي جون كينيدي: "إنّ ألن دالاس شخصيّة خرافيّة، ومن الصعب العمل مع الشخصيّات الخرافيّة، ويلزمني لهذه الوظيفة شخص لا يسبّب لي أيّ مشكلة على أن تكون العلاقات معه مباشرة وكاملة وألاّ يخفي عنّي شيئًا. لقد ارتكبت خطأ عندما

عيّنت "بوبي" (أخ الرئيس) فـي وزارة العدل وكـان يجب أن أوليـه وكالـة المخـابرات المركزيّة".

لم يكن بمقدور كينيدي أن يغيّر من وزارته التي لم يمضِ علـى تشكيلها إلاّ فترة قصيرة، فعيّن على رئاسة وكالة المخابرات المركزيّة مدير أعمال كاليفورنيّ هو جـون ماكون، الرجل اليمينيّ الطويل الباع والصارم. ودون أن يضيّع هذا الأخير أيّ وقت بدّل الجوّ العائليّ والمجمعيّ الذي كان سائدًا في عهد ألن دالاس بجوّ يسوده الانضباط الشديد الذي يسـيطر علـى المؤسّسـات الصناعيّـة. أطلـق عليـه الموظّفـون لقـب "جـون البشوش" بعكس صفته الحقيقيّة. وكانت أولى أعماله إلغاء الهاتف البينيّ - الإنـترفون - الذي كان يسمح لكبار الضبّاط بأن يقطعوا، في أيّ وقت شاؤوا، العمـل الـذي يقـوم بـه المدير حتّى يعرضوا القضايا الملحّة. كما أنّه أغلق البـاب بينـه وبيـن نائبـه وأمـر بـأن يجري العمل ليلاً حتّى يضع نائبه "مارشال كارتر" أمام الواقع عندمـا يـأتي للعمـل فـي اليوم التالي، فيفهم ما جرى في اليوم المنصرم.

أقال جون ماكون نائب المديـر "شـارل كـابل" الـذي كـان ينـوب عـن آلـن دالاس". وكان "ريتشارد بيسيل" ينتظر هذا المنصب لأنّه كان الرجل الثاني في مكتـب العمليّـات. ولا شكّ في أنّ أكثر الطامحين لهذا المنصب كان "ليمان كيركباتريك" الذي كان المفتّش العـام لوكالـة المخـابرات المركزيّـة. وهـذا لا شـكّ فـي أنّـه أمـر طبيعـيّ إذ قبـل عشـر سنوات، في عام ١٩٥٢، نُكبت مهنته جرّاء إصابتـه بـ"الشـلل" عندمـا كـان علـى قـاب قوسَين أو أدنى من تعيينـه فـي منصـب نـائب مديـر العمليّـات، وكـان يمكـن، فـي ذلـك الحين، أن يشتغل تحت إمرتـه مجموعـة مثـل هيلمز وأنغلتـون وهـارفي. وهكـذا عُيِّن هيلمز وقبع هو علـى كرسيّ في مستشفى. وعندمـا عـاد إلـى العمـل، بعد ذلـك بثمانيـة أشهر، رأى نفسه مضطـرًّا للانتقـال علـى كرسـيّ متحـرّك ولـم يكـن يسـتطيع تحريـك

ذراعه الأيمن إلاّ جزئيًا، فعُيّن في منصب المفتّش العام. وقد قال أحد زملائه: إنّ هذا النوع من المناصب لا يمكن أن يكون مجالاً لتلقّي أوسمة النصر بل إنّه عقاب.

لم يكن كيركباتريك قد ارتكب أيّ هفوة، لكنّ هذا التعيين أغاظه فحقد على كلّ عمليّات الاستخبارات. وهي التي حملت وزر عمليّة خليج الخنازير. ومن ثمّ كان عليه أن يحدّد أسباب هذا الفشل بحكم عمله. فاعترف بأنّ تقريره كان شديدًا واستنتج قائلاً بأنّ العمليّة صُمّمت بشكل سيّء وكذلك كان تنفيذها. أمّا المشنّعون، وكانوا كثرًا، فقد قضوا بالحال "بأنّ العمليّة كانت مبيّتة وبأنّها لا تعبّر إلاّ عن طموح صاحبها". وكان الغرض من تقريره النيل من ريتشارد بيسيل وألن دالاس، هكذا قال أحد ضبّاط الاستخبارات الذين تأثّروا من التقرير. وكان كلّ سطر من التقرير يقول: "لو كنت أنا المسؤول لما حصل ذلك". ومع هذا فإنّ هذا التقرير رفع من معنويّات "جورج بوندي" مستشار الرئيس لشؤون الأمن القوميّ ممّا جعله يقدّم استقالته ويصرّح قائلاً بعد قراءته التقرير عن عمليّة خليج الخنازير: "إنّ ذلك يلقي ضوءًا ناصعًا على القضيّة، لقد ارتكب كيرباتريك كذبة واضحة حتّى يستعملها إذا ما حاز على رضاء جون ماكون". كان أنغلتون هو الذي تابع العمليّة بأكملها وقد شرح ذلك، في ما بعد، قائلاً: لقد أرسل كيركباتريك تقريره، وأخذ سيّارته إلى المطار ليقدّمه إلى ماكون قبل أن يغادر بالطائرة المتوجّهة إلى لوس أنجلوس، ولم يكن قد تمّ تعيينه رسميًّا لرئاسة الاستخبارات.

قرأ ماكون التقرير في الطائرة وكوّن فكرة عن أنّ كيركباتريك لا بدّ من أنّه يخفي شيئًا ما. والواقع أنّ المفتّش العام كان يحاول خداع رئيسه ومتابعة حربه الصغرى ضدّ العناصر المتخفّية، كما ادّعى أنغلتون. ومن كاليفورنيا اتّصل ماكون بكيركباتريك وسأله عمّا إذا كان قد أعطى نسخة من التقرير لألن دالاس. وعندما أجاب كيركباتريك بالنفي وبّخه ماكون باعتبار ألن دالاس ما زال رئيسًا من الناحية الرسميّة. فاعترف

كيركباتريك بأنّه قد يكون أخطأ. وعندما استلم ماكون مهامه رسميًّا أتلف كلّ نسخ التقرير واحتفظ بواحدة فقط في أرشيفه الشخصيّ.

لقد كان على ماكون أن يلغي آثار عمليّة خليج الخنازير، لكنّ هذا الأمر لم يكن سهلاً بالنسبة إليه كمدير صارم وقدير. فقدّم، بعد فوات الأوان، تقريرًا جاء فيه أنّ العمليّة كانت الفرصة الأخيرة لمحاولة قلب نظام فيدل كاسترو من قِبَل المبعدين الكوبيّين قبل أن يحصل على الأسلحة والخبراء من الدول الشيوعيّة، ما جعل من مركزه غير قابل للنيل منه من قِبَل أيّ هيئة بمَن فيها الولايات المتّحدة الأميركيّة. وكانت إمكانيّات التدخّل الخفيّ من قِبَل وكالة المخابرات المركزيّة ضعيفة فكانت عمليّة خليج الخناير الضربة القاضية. لكنّ رئيس الجمهوريّة كان مصمّمًا على متابعة قضيّة التخلّص من كاسترو بأيّ شكل.

قامت وكالة المخابرات المركزيّة بنصب شبكة من العملاء في الجزيرة، لكن دون جدوى، لذلك قرّروا تقديم موعد الإنزال. وفي هذا قال "بيسيل": "لم نجد في كوبا قاعدة واحدة تسمح لنا بإقامة منظّمة سريّة، ولقد أسقطنا معدّات بالمظلّات. لكن، من بين اثنَي عشر إنزالاً، لم تتوفّر لدينا التأكيدات الكافية على أنّها وصلت إلى الأيدي التي نبغي أن تصل إليها". كما جرت محاولة إدخال العملاء عن طريق البحر أثناء الليل لكنّ إمكانيّة نجاتهم كانت شبه معدومة. حتّى أنّ مَن نجا من العملاء تعرّض للتوقيف والاعدام بعد الانتهاء من عمليّة خليج الخنازير.

من جهة أخرى قال أحد ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة ردًّا على أسئلة حول أسباب فشل عمليّة الخنازير: "لم يكن رئيس الولايات المتّحدة ليبالي بمشاكل وكالة المخابرات المركزيّة بل كان يريد حقًّا النتائج الملموسة. إنّ تصرّف البيت الأبيض يملي بأولّيات سياسة عظيمة وينحي إلى الوراء تمامًا الأهداف البعيدة لوكالة المخابرات

المركزيّة، لذا فمن الصعب أن نرسل الجواسيس لأنّ ذلك يتطلّب وقتًا، لكنّ أولئك العملاء لا يهتمّون بذلك ولا يريدون التعرّف عليه، والنتيجة أنّهم، بذلك، يلقون جزافًا في الريح نتائج سنوات من العمل في سبيل مكاسب دقيقة.

أسرّ الأخوان كينيدي إلى "بيل هارفي" بأن يعود مسرعًا من برلين إلى الولايات المتّحدة. وعند وصوله في تشرين الثاني - أكتوبر ١٩٦٢ طلب منه بيسيل أن يطبّق على كوبا برنامج Z.R. Riffles. كان هارفي قد أمضى عدّة أشهر في التفكير بهذا البرنامج في نطاق أكبر سريّة ممكنة وذلك تحت غطاء وظيفته الرسميّة كرئيس لمجموعة D وهي فرع غايته الاعتراضات، أي اتّخاذ الإجراءات المضادّة للجاسوسيّة، وتلك أسهل الأمكنة التي يمكن أن تجري فيها الأعمال القذرة.

في البداية كانت كلّ فروع وكالة المخابرات المركزيّة تحمل أحرفًا مثل "ملاك آ" مهمّتها المعلومات عن البلدان الأجنبيّة، والعمليّات"ج" أي التجسّس المضادّ. كما أنّ مختلف هذه الفروع، بما فيها المجموعة المضادّة للتجسّس التابعة لأنغلتون قد أُضيفت إلى رموزها تعابير أخرى لتجعلها أكثر وضوحًا. لكنّ المجموعة D بقيت محافظة على أقصى سريّتها وراء أبواب محروسة ٢٤ ساعة في اليوم من قبل جنود البحريّة الـ"مارينز".

عندما استلم هارفي هذا الفرع، كان في ذلك المكتب ثلاث خزائن مفاتيحها في غاية السريّة. ولمزيد من الأمان وضع هارفي خزانة رابعة تزن أكثر من طنّ كان وحده يعرف تركيب أرقام فتحها.

في بداية حكم الرئيس كينيدي أسرّ "بيسيل" إلى هارفي عن إنشاء وحدة عمل جديدة في الوكالة وقال له: إنّها المرّة الثانية التي يطلب منّي البيت الأبيض إنشاء مثل هذه الوحدة. وكان هارفي يسمّي ذلك "الزرّ السحريّ"، و"أحدث الحوافز" و"اعتراف

الضعف"، بينما كان بيسيل يسمّي ذلك "العمل التنفيذيّ"، ويقول بألاّ يتمّ ذكر كلمة اغتيال وهي المعنى الحقيقيّ للعمل التنفيذيّ...

حاولت وكالة المخابرات المركزيّة اغتيال كاسترو في أثناء عمليّة خليج الخنازير، لكنّ العمليّة تحوّلت إلى كوميديا مضحكة، كما عبّر عنها أحد المتآمرين فيها. فلقد قام العقيد "شفيلد إدواردز" رئيس قسم الأمن، بتكليف "روبرت ماهيو"، العميل القديم في مكتب التحقيقات الفدراليّ الذي أصبح تحريًا خاصًّا، بأن يجنّد، من الوسط الإجراميّ، أشخاصًا يثق بهم للقيام بهذا العمل. واتّصل ماهيو بـ"جون روسيللي" أحد الأعضاء القدامى في عصابة آل كابوني الذي دخل السجن بتهمة ابتزاز الأموال من منتجي هوليوود، ثمّ اتّصل بـ "سام جيانكانا" و"سانتو ترافيكافتي"، وهما قطبان من أقطاب المافيا كان المدّعي العامّ يريد رأسيهما بأيّ وسيلة. لكنّ ماهيو ارتاب من جيانكانا لأنّه تحدّث عن العمليّة مع خليلته المغنيّة "فيليس ماك غاير" فقامت بدورها بإيصال الخبر إلى ممثّل صديق لها يدعى "دان روان"، فكان بالإمكان أن تصبح العمليّة قصّة لسيناريو فيلم هوليودي. فأرسل ماهيو، على الفور، مفتّشًا خاصًّا إلى لاس فيغاس طالبًا منه التنصّت على هاتف غرفة "روان". لكنّ إحدى خادمات الفندق ضبطته.

أمّا السلاح الذي خُصّص لاغتيال كاسترو فقد أثار صنعه قضايا شائكة بالنسبة إلى فرع الخدمات التقنيّة، كما أنّ حبّات السمّ المقرّرة لم تكن لتذوب في الماء. كلّ هذه القضايا لم تكن إلاّ بمثابة دعابة لو لم يترك المشتركون فيها آثارهم التي تقود مباشرة إلى القاعة البيضاويّة في البيت الأبيض وإلى غرفة نوم الرئيس...

لقد التقى كينيدي شخصيًّا في مكان عام، أحد المتآمرين "طوني فارونا" وهو المتحدّث الرسميّ باسم المنفيّين الكوبيّين. لم يكن كينيدي ليفعل ذلك إلاّ ليطمئن "فارونا" والزعماء الكوبيّين المنفيّين الآخرين إلى أنّ الولايات المتّحدة عازمة على بذل ما

بوسعها لتثأر لرفاقهم الذين قُتلوا في خليج الخنازير. إنّ مجرّد حصول اللقاء يدين السلطة الأدبيّة لإدارة كينيدي الجديدة في ما لو اكتُشفت المؤامرة.

في نفس الوقت كان كينيدي على اتّصال مباشر مع "جوديت كامبل" وهي سيّدة كثيرة الغزل خاصّةً من جون راسيل وسام جيانكانا. وهذه الصورة لا تتلاءم قطّ مع الصورة التي يجب أن تكوّن عن رئيس الولايات المتّحدة، كما يمكن أن تقنع أيًّا كان بأنّ هذه السيّدة يمكن أن تقوم بدور المراسل بين البيت الأبيض والمافيا حول قضيّة تنظيم المؤامرة.

لتحاشي كافّة التعقيدات ابتُكر تعبير "العمل التنفيذيّ" التابع لهارفي ضمن إطار مجموعة من الشروط الصارمة هي: الأمن الأقصى، وعدم التبعيّة لأيّ جهاز أو دائرة. تلك كانت الأوامر الصادرة إلى هارفي التي كان لا بدّ من اتّباعها. لذلك اتّخذ اسمًا رمزيًّا هو "كوبارك" وهو الرمز الخاصّ لوكالة المخابرات المركزيّة في كتاب الرموز الأميركيّة في ذلك الحين.

كان المطلوب من هارفي ألاّ يستمدّ العون من أيّ هيئة تعود إلى الولايات الأخرى، على أن يتمّ تقرير كلّ شيء شفويًّا ضمن الهيئة "بين كلّ شخص وآخر" وألاّ يكتب أيّ تقرير، كما لا بدّ من أن يكون الأشخاص المكلّفون بتنفيذ "العمل التنفيذيّ" ضبّاطًا أكفاء رابطي الجأش قد برهنوا عن أفعالهم في عمليّات سابقة، ولديهم خبرة واسعة في عمليّات التجسّس المضادّ. ولم يكن من بين هؤلاء إلاّ هارفي ليستوفي كلّ الشروط. فاتّخذ ادّعاء سمّاه Kutube. وبما أنّه يتبع المجموعة D احتفظ بهذا الرمز، ثمّ سعى للبحث عن اسم رمزيّ مسروق من القواميس الرمزيّة للدول الشيوعيّة لتتشكّل التغطية المناسبة عند البحث عن الجاني بعد تنفيذ العمليّة، لذلك أعطى رمز Riffle لأبحاث Kutube. وهكذا اتّخذت العمليّة اسمها الخاصّ والنوعيّ Kutube/D.

لم يكن من السهولة إيجاد الشخص المناسب إذ يجب ألاّ يكون قادرًا على القيام بأيّ عمليّة ابتزاز، وهذا شرط من شروط العمليّة. كما أنّه من الضرورة ألاّ تتوضّح، في المستقبل، أيّ علاقة بينه وبين الولايات المتّحدة الأميركيّة، لذلك يجب ألاّ يكون الجاني مواطنًا أميركيًا أو مقيمًا فيها، ويجب ألاّ يكون قد حصل على تأشيرة دخول إلى الولايات المتّحدة.

كان الكورسيكيّون من الأناس الموصى بهم على عكس الصقليّين، بسبب المافيا. من جهة أخرى كان المجرمون المحترفون من المرفوضين لهذه المهمّة وكذلك الموقوفون رهن التحقيق، وأخيرًا كان ذلك هو التدبير الاحترازيّ الأخير أن يتمكّن المسؤولون الأميركيّون من إلصاق التهمة بالسوفيات أو بالتشيكيّين أو بالبلغار، في حال فشل العمليّة. لذلك حُضّر ملفّ لهذا الغرض يحتوي على وثائق مسبقة التاريخ وكلّها مزوّرة بالطبع، وأُعطيت رقم ٢٠١ وتحتوي على هويّات مزيّفة لكلّ الأشخاص، خصومًا كانوا أم اصدقاء، بمن فيهم الجاني العتيد بحيث يبدو مماثلاً لقاتل خصم ويعمل لحساب السوفيات أو التشيكيّين. وحتّى يكتمل التزوير اتّخذ ذلك الملفّ مظهر التجسّس المضادّ وأُعطي رمز .C.E. وكتب هارفي في مذكّراته: "لا بدّ من الحديث عن ذلك مع Jim A". ليصل هارفي إلى نتيجة حسنة في بحثه، كانت لديه ورقة رابحة كاملة الصفات، فكتب في مذكّراته يقول: وقّع T. J. Win عقدًا معنا وهو عميل رئيسيّ مهمّته تحديد الأشخاص المؤهّلين في خدمتنا، وكان "وين" هذا أوروبيًّا ومغامرًا حقيقيًّا دخل في خدمة الولايات المتّحدة الأميركيّة منذ نهاية الخمسينات باعتباره مخبرًا في قسم المخدّرات التابع لمكتب التحقيقات الفدراليّ، ولم يكن على هذا المكتب إلاّ أن يطري نفسه على الخدمات التي أدّاها له "وين"، الذي قال عنه أحد ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة بأنّه قادر على عمل كلّ شيء.

كان "وين" هذا، الذي لا يتجاوز راتبه السنويّ ٧,٢٠٠ دولار، قد جُنّد في فرانكفورت في أوّل تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٠ ليقوم بمهمّة فريدة في الكونغو، كانت تنطوي على مخاطر جسيمة منها، اغتيال "باتريس لومومبا" الزعيم الكونغوليّ، عن طريق حقن طعام الرئيس أو معجون أسنانه بفيروس قاتل. وتمّ إرسال محقن إلى الكونغو مع قناع جرّاح وقفّازات من الكاوتشوك ضمن الحقيبة الدبلوماسيّة. واستقلّ أحد عملاء الوكالة الطائرة ليحمل حوجلة الفيروس. لكنّ العمليّة فشلت بسبب صعوبة النفاذ إلى أوساط لومومبا. وعندما وصل "وين" إلى الكونغو كان لومومبا قد أُقيل واعتُقل بعدما نصبت له المخابرات الأميركيّة فخًّا آخر فأوعزت إلى عملائها من جنود الأمم المتّحدة بتسهيل عمليّة فراره من السجن، وأفضت إلى خصوم لومومبا بالموعد المقرّر للفرار، وعندما هرب الزعيم الكونغوليّ من زنزانته ووصل إلى خارج الثكنة التي كان معتقلاً فيها تلقّاه خصومه فمات مثخنًا بطعنات الحراب.

يبدو أنّ وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة لم يسعدها الحظّ في اغتيال كاسترو، لكنّ بيسيل كان موقنًا من نجاحه. ولقد تكدّر كثيرًا، هو وهارفي، عندما سمعا تصريح الرئيس كينيدي في سياتل بولاية واشنطن، في اليوم التالي للنهار الذي قرّرا فيه القيام بتطبيق برنامج "Z.R. Riffle" على كوبا، إذ جاء في التصريح: "باعتبارنا من الأمم الحرّة لا يمكننا أن نعمد، كخصومنا، إلى وسائل مثل الإرهاب والاغتيال والوعود الكاذبة والقلاقل والأزمات المفتعلة"...

لم يكن برنامج "Z.R. Riffle" إلاّ شكلاً صغيرًا من العمليّات التي كانت إدارة كينيدي تمهّد لها ضدّ كاسترو، إذ إنّ هذا البرنامج قد تمّ عرضه في تقرير قدّمه أحد المساعدين في البيت الأبيض "ريتشارد غودوين" قبل خمسة عشر يومًا من ذلك الخطاب. وممّا قاله غودوين بعد ذلك: "إنّ الهدف من ذلك هو إشعال نار الثورة في

الجزيرة الكوبيّة". لذلك كان لابدّ من تسلل العملاء ليجروا الاتّصالات مع مجموعات المقاومة اتي استطاعت الاستمرار في العمل بعد عمليّة خليج الخنازير، لتشكّل، شيئًا فشيئًا، حركة انتفاضيّة تستطيع اكتساب أنصار من بين أفراد الشعب الذين يئنّون من الركود الاقتصاديّ الناتج عن الأخطاء الإداريّة للكاستروييّن، وكذلك بسبب الحرب الاقتصاديّة التي شنّتها الولايات المتّحدة، سواء بالحظر التجاريّ المكشوف أو خفية بعمليّات التخريب. وقد كتب غودوين في تقريره يقول إنّ هذا البرنامج يتطلّب استنفار كافّة أعضاء الحكومة وخاصّة أخ الرئيس الذي يجب أن يكون قائدًا لهذه العمليّة. لكنّ جون كينيدي فضّل أن يوكل هذا العمل للجنرال "إدوارد لانسديل" الذي كان تابعًا للقوى الجويّة وعميلاً لوكالة المخابرات المركزيّة، وهو الذي قاد حربًا لا شرعيّة ضدّ المنتفضين الشيوعيّين في الفيليبيّين وفييتنام، وكان قد عاد إلى واشنطن، قبل أسبوع من تسلّم كينيدي مقاليد الحكم رسميًّا، وقدّم للبيت الأبيض تقريرًا من اثنتَي عشرة صفحة عن تدهور الموقف في فييتنام وطالب فيه بالتدخّل المباشر والسريع للولايات المتّحدة الأميركيّة في الحرب. وممّا جاء في التقرير: "أصبحت فييتنام في موقف حرج... إنّها منطقة تحوّلت فيها الحرب الباردة إلى مواجهة مباشرة ممّا يضطرّنا لاتّخاذ إجراءات عاجلة". وقد سبّب هذا التقرير تأثيرًا عميقًا على الرئيس بحيث أنّه أراد أن يسمّي الجنرال "لانسديل" سفيرًا في سايغون لكنّ "دين راسك" وزير الخارجيّة رفض هذا التعيين ونجح في منعه مهدّدًا بالاستقالة. أمّا كينيدي فقد كان مضطرًّا لتطبيق تدابير عاجلة في "منطقة حارّة أخرى" من الحرب الباردة وكان "لانسديل" الرجل اللازم له.

في ٣٠ تشرين الثاني - أكتوبر ١٩٦١ أعطى الرئيس كينيدي إلى وزرائه الأمر باستعمال كلّ الوسائل الممكنة لمساعدة كوبا على قلب نظام فيدل كاسترو، وأوكل إلى لانسديل إدارة العمليّات.

أُنشئت لهذه الغاية هيئة مراقبة برئاسة الجنرال "ماكسويل تايلور" المستشار العسكريّ للرئيس كينيدي ضمّت مستشار الرئيس لشؤون الأمن القوميّ "ماك جورج بوندي"، ورئيس وكالة المخابرات المركزيّة "جون ماكون"، ورئيس أركان الاتّصال بين الجيوش "ليمان ليمينتز"، ووكيل وزارة الدفاع "روزويل جيلباتريك"، ووكيل وزارة الداخليّة "ألكسيس جونسون".

كان واضحًا أنّ المهمّة ليست لتسويد صفحات من الورق، وكان قد تقرّر في ما مضى، أن ينضمّ شقيق الرئيس إلى هذه الهيئة التي سُمّيت "المجموعة الخاصّة الموسّعة".

وكتدبير احتياطيّ بارز ضدّ كلّ تسرّب عرضيّ تقرّر أن يعطى لهذه العمليّة ضدّ كوبا اسمًا رمزيًّا غير نظاميّ. فكلّ عمليّات وكالة المخابرات المركزيّة كانت تبدأ بحرفين يحدّدان جغرافيًّا إحداثيّات العمليّة. فكانت إحداثيّات كوبا بذلك الرمز وهو .A.M. من ثمّ تمّ تكليف الضابط المسؤول عن الرموز بإيجاد لائحة برموز تبدأ بـ.M.O وهو رمز لمكان آخر في العالم بعيد تمام البعد عن كوبا. وهكذا تمّ اختيار اسم Mongoose، وأصبح اسمًا قد يلفت انتباه الفضوليّين إلى مكان آخر ناء تمامًا عن كوبا.

بعد الانتهاء من هذا الإجراء التفصيليّ قام ماكون، دون أيّ آراء مسبقة، وبحضور بيسيل نفسه، بتكليف هيلمز بإدارة عمليّة "مونغوس". فتواجدت هكذا الفرصة لإبعاد بيسيل منظّم عمليّة الإنزال في خليج الخنازير.

على العكس من بيسيل عرف هيلمز كيف يتجنّب الفشل. وكان هذا الأخير بيروقراطيًّا حذرًا، فبدأ بفصل كوبا عن المياه النائمة في فرع البحر الكاريبي وأنشأ قوّة تدخّل خاصّ، وعرف كيف يجد لنفسه مخرجًا في إقامة المجموعات الفعّالة، بحيث أنّه،

عندما تتأزّم الأمور، يجد الوسيلة للخلاص. "هكذا قال أحد زملائه حتّى يبرهن عن نفاذ بصيرته، ولقد عرف مسبقًا أنّ مثل تلك العمليّة لن تلقى النجاح الكامل".

في الواقع، كان الفشل مقدّرًا لعمليّة "مونغوس" منذ البداية. فمركز التنبّؤات القوميّ التابع لوكالة المخابرات المركزيّة كان قد عبّر عن رأيه بما يلي: "من المستحيل إثارة انتفاضة شعبيّة حقيقيّة ضدّ كاسترو، حتّى أنّ موت فيديل كاسترو لن يسبّب انهيار نظامه". لكنّ الإدارة الأميركيّة كانت تريد ذلك بأيّ ثمن. وتلك إرادة ثابتة لم تكن لها أيّ علاقة بالفطنة. لقد اعترف "روبرت مكنمارا" وزير الدفاع، في ما بعد، قائلاً: "لقد جعلنا حقدنا على كاسترو مصابين بالهستيريا كما هي حال الإدارة الأميركيّة اليوم ضدّ العقيد معمّر القذّافي في آذار ـ مارس ١٩٦٨. أمّا بالنسبة للبيت الأبيض فإنّ تشاؤم وكالة المخابرات المركزيّة لم يكن إلاّ كظاهرة لمقاومتها السلبيّة لأنّها لم تكن قد استفاقت بعد من عمليّة خليج الخنازير". كما صرّح لانسديل إلى بوبي كينيدي قائلاً: "إنّ هذه التنبّؤات خير اعتراض يمكن أن نقدّمه على برنامجكم".

ظاهريًّا كان لانسديل قد واجه كوبا وكأنّها فييتنام أخرى حيث يستطيع الثائرون أن يقيموا مواقع حصينة تسيطر على الأرياف ويقدّمون بديلاً سياسيًّا للفلاّحين الناقمين على السلطة القائمة. لكنّ كوبا ليست فييتنام. وكما قال لانسديل بعد ذلك: إنّ الشيوعيّين في فييتنام قد أمضوا عشرات السنين في التحضير للصراع النهائيّ وكانت عناصرهم قد تغلغلت في جماهير الشغّيلة المزارعين الذي قدموا من سنغافورة في العشرينات ليعملوا في الملكيّات الزراعيّة الفرنسيّة. ومن السخف أن نفكّر بأنّ نفس العمل العميق قد أصبح منفّذًا في كوبا خلال بضعة أشهر، خاصّة وأنّ الجزيرة كانت قد أصبحت إحدى الدول المنضمّة إلى كتلة الاتّحاد السوفياتيّ...

من جهته قال ماكنمارا بأنّ آليّة مراقبة الجماهير الشعبيّة هي نفسها المطبّقة في الاتّحاد السوفياتيّ. ولربّما كانت فيها أكثر صرامة. كما أنّ أحد ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة الذين اشتركوا في حملة التدخّل الثانية في كوبا قال أيضًا "إنّ لانسديل لا يريد أن يفهم بأنّه لا يعمل في أرض صديقة بل في بلاد عدوّة حيث لا توجد لدينا أيّ قاعدة".

لكنّ كلّ هذه الانتقادات لم تلق الآذان الصاغية. وفي وسط تلك الفوضى المنضبطة التي كانت تسيطر على جوّ مكتب روبرت كينيدي في الطابق الرابع من وزارة العدل، صرح هذا برصانة إلى هيلمز: "أن نقلب نظام كاسترو فذلك ممكن في الوقت الحاضر، وإنّ قضيّة كوبا لها المرتبة المطلقة من حيث الأهميّة ويجب ألاّ نبخل عليها بشيء سواء بالوقت أو بالمال أو بالرجال. وبالأمس أكّد الرئيس على أنّ الفصل النهائيّ من هذه القصّة لم يُكتب بعد، ويجب أن يكون ذلك، وسيكون". وكان جواب هيلمز أنّ وضع هارفي على قمّة قوّة التدخّل التعبويّة، وهو المرء ذو المسدّسَين، وبطل نفق برلين، والشرطيّ السابق الذي وضع كلّ جرأته ومخيّلته تحت تصرّف الحرب السريّة، هو أشدّ القطع الحربيّة التابعة لوكالة المخابرات المركزيّة تأثيرًا. ولا شكّ في أنّ نفق برلين قد أفلس منذ البداية. لكنّ هيلمز قدّر بأنّ ذلك ليس له أهميّة بعد ذلك، فتلك تفصيلات يمكن أن تترك لتنام بين طيّات الأرشيف.

كانت تسمية هارفي كافية لإقناع الإدارة الأميركيّة، أكثر من أيّ عمل آخر، بأنّ وكالة المخابرات المركزيّة تبذل قصارى جهدها. كما أنّ هارفي يمكن أن يكون بمثابة صمّام أمان بين هيلمز ونفاذ صبر البيت الأبيض.

في البدء لم يقدّر هارفي الموقف حقّ قدره وكأنّ هيلمز يحاول أن يستهتر به، وعندما جرى التأكّد من ذلك كان قد فات الأوان.

في الواقع قبل هارفي التحدّي بسرور ولم يكن ملاك المجموعة D يستلطفه كثيرًا فكان يمضي، معظم الوقت، في الاهتمام بالمظهر التقنيّ لعمليّات الإصغاء المطلوبة من وكالة الأمن القوميّ .N.S.A التي كان يجري تنفيذها على مختلف القطاعات الجغرافيّة التابعة لوكالة المخابرات المركزيّة. وبسبب ماضي هارفي كان يبدو الأكثر تأهيلاً لرئاسة المجموعة D. أمّا هو فكان يفكّر في وضع أفضل إذ كان لا يخفي طموحه بإدارة قسم الكتلة السوفياتيّة، وكان يأمل بالتوصّل إلى الحصول عليها إذا انتصر في عمليّة كوبا.

أعلن هيلمز على وكالة المخابرات المركزيّة، في بلاغ عام، إلحاق هارفي بالحملة، وهكذا تعرّف على لانسديل الذي كوّن عنه انطباعًا عظيمًا فقرّر أن يقدّم إلى رئيس الجمهوريّة ذلك الجيمس بوند الأميركيّ، لا سيّما وأنّ الجميع على علم بشغف الرئيس بمغامرات العميل البريطانيّ ٠٠٧ غير المعقولة.

كانت مجلّة "لايف" الأميركيّة قد صنّفت قصّة الدكتور "نو No" من بين الكتب العشرة المفضّلة لدى الرئيس كينيدي، وهي قصّة تحكي انتصار هذا البطل المزيّف على ديكتاتور شيطانيّ في إحدى الجزر الصغيرة من بحر الأنتيل. كما أنّ هذا الممثّل كان في طريقه ليمسي البطل الرومانسيّ الأكثر شعبيّة في الستّينات. وكان بوبي كينيدي يشاطر أخاه هذا الحماس.

شعر لانسديل بفرح كبير عندما سمع كينيدي يقول له أثناء إحدى المناقشات بأنّه الردّ الأميركيّ على جيمس بوند. فقال لانسديل، بكلّ تواضع، إنّ العميل الأميركيّ الحقيقيّ هو الشخص الذي عيّنه هيلمز للقضيّة الكوبيّة. وهكذا أبدى الرئيس رغبته بالتعرّف على هذا الرجل. وبعد وقت قصير تواجد هارفي ولانسديل في غرفة الانتظار التابعة للقاعة البيضاويّة. وبينما كانا ينتظران سأل لانسديل هارفي إذا كان ما

زال يحمل مسدسه الأبديّ. فأجابه هارفي بسحب المسدّس من جيب بنطاله، فذعر لانسديل لفكرة أنّه استطاع اختراق الأمن وهو مسلّح، وقد تُرك هذا السلاح في حجرة الثياب قبل دخولهما إلى القاعة البيضاويّة، وبينما هما على قاب قوسَين من باب القاعة مدّ هارفي يده إلى ظهره وخلع من حزامه سلاحًا آخر من عيار ٩,٦٥ وأعطاه إلى رجال الأمن المندهشين.

لم يشر كينيدي قطّ إلى الانطباع الذي بقي في ذهنه عن ذلك الجيمس بوند الأحمر الوجه ذي الرأس الكرويّة والعينَين الجاحظتَين، الذي تقدّم نحوه كالأحمق بمشيته التي تصنّعها ليعطي لنفسه بعض الأهميّة. لكنّ الرئيس استعاد بعض الثقة بمحدّثه عندما تكلّم بصوته الجهوريّ لدرجة أنّه لم يعد يتلذّذ بقراءة كتب إيان فلمينغ ومغامرات أبطاله. أمّا هارفي فوصف هذه المقابلة، في ما بعد، بالقول: "لم يتبادل الرئيس مع محدّثَيه إلاّ عبارات عاديّة إذ قال: أهذا هو جيمس بوند أميركا؟ فأجاب لانسديل: سيّدي الرئيس إنّه فعلاً كجيمس بوند من حيث غراميّاته مع النساء. عند ذلك رحّب الرئيس بهما ترحيبًا مناسبًا وتمنّى لهما النجاح في "الحملة" المضادّة لكاسترو، وأنهى المقابلة.

هكذا بدأت عمليّة مونغوس، ونقل هارفي المجموعة W إلى قبو مقرّ القيادة العامّة لوكالة المخابرات المركزيّة في لانغلي، وبدأ تشغيل أركانها.

كان لانسديل قد حضّر لائحة باثنتَين وثلاثين مهمّة لا بدّ من مواجهتها تبدأ من مهمّة جمع المعلومات حتّى عمليّات التخريب داخل كوبا دون أن ينفي إمكانيّة تدخّل الجيش الأميركيّ لمساندة التحرّك الشعبيّ الكوبيّ. بالإضافة إلى كلّ هذه المهمّات زاد المهمّة الثالثة والثلاثين، وكانت مشروعًا يرمي إلى تعجيز الشغّيلة الزراعيّين العاملين في حصاد قصب السكّر بالوسائل البيولوجيّة...

كما قال "ماكسويل تايلور" إنّ لانسديل لا تنقصه الأفكار لكنّها ليست بالضرورة قابلة للتطبيق. ولقد لاحظت وكالة المخابرات المركزيّة ذلك منذ أيّام فييتنام حين صمّم مشروعًا عن تجنيد شبكة الاتّصالات التابعة للفيتكونغ، والذي كان يبدو ظاهريًّا في غاية البساطة إذ كان يتضمّن استعمال "المنقل الاشعاعيّ" لتحديد أمكنة الأجهزة والإرسال والاستقبال المعادية فإذا تمّ ذلك لا يبقى إلاّ إرسال الحوّامات إلى تلك الأماكن للقضاء عليها. وكلّفت وكالة المخابرات المركزيّة أحد عملائها اليابانيّين بهذه المهمّة، لكنّه عرف، منذ اجتماعه الأوّل مع الخبراء الإلكترونيّين، بأنّ ذلك لن يتمّ تنفيذه لأنّ هذه الأجهزة لا تستطيع تحديد الأمكنة إلاّ في دائرة نصف قطرها ثلاثة كيلومترات، وبالتالي كان على الحوّامة أن تحوم فوق ثلاثين كليومترًا مربّعًا من الغاب للبحث عن جهاز حجمه بقدر الحقيبة.

قال أحد مساعدي هيلمز: لقد جعلنا جميعًا كالمجانين، فلم ينقطع عن إمطار هارفي بملايين الأوراق المكتوبة يوميًّا. وكانت المهمّة ٣٣ نموذجًا عن لانسديل، ولم يكن لوكالة المخابرات المركزيّة عميل واحد يستطيع القيام بهذه المهمّة بالسريّة اللازمة، وكان الحلّ الوحيد يتضمّن أن يرشّ بواسطة الطائرات المادّة المعجّزة على العمال الزراعيّين. لكنّ مثل تلك العمليّة كانت ستدمغ الولايات المتّحدة بشكل مباشر. "وسينتج عنها عادة تظاهرات وقلاقل في العالم كلّه". ذلك ما تنبّأ به تقرير أصدرته القيادة العامّة للقوّات المسلّحة، ومن الأفضل في هذه الحالة غزو كوبا الذي قد يسبّب، على الساحة العالميّة، نقمة أقلّ ممّا كان سيفعله توزيع المواد المعجّزة. كما أنّ ذلك الغزو قد يكون أقلّ ضررًا بمصالح الولايات المتّحدة على المدى البعيد.

نبش ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة رؤوسهم ليجدوا وسائل للتطبيق العمليّ لأفكار لانسديل المدهشة، وكانوا يضعون مسودّات تفوق غرابة الأفكار الأصليّة.

فمثلاً عمليّة "باونتي" كانت تهدف إلى إعطاء قيم لرؤوس الكوبيّين الشيوعيّين، فكانت المكافآت متناسبة مع أهميّة الشيوعيّين ومراتبهم أحياء أم أمواتًا. فتراوحت بين خمسة آلاف دولار للمخبر وعشرة آلاف لأعضاء الحكومة. أمّا رأس كاسترو فكانت بمبلغ مائتي ألف. وكان من المفروض أن توزّع مناشير من الجوّ لتعلن عن ذلك الإجراء للشعب الكوبيّ.

كما كان هناك مشروع آخر سُمّي "الإبادة بالاستضاءة" وهي فكرة مشابهة لفكرة ظهور المسيح الدجّال. وحسب قول توماس باروت، الضابط في وكالة المخابرات المركزيّة، الذي كان أمين سرّ المجموعة الخاصّة الموسّعة، كان ذلك المشروع يتضمّن أن يُشاع على نطاق واسع بأنّ ظهور المسيح قد أضحى وشيكًا وأنّ كاسترو هو المسيح الدجّال. وبعد أن تبلغ الإشاعة مستوى كافّة البشر في كوبا، تقوم غوّاصة أميركيّة بالطفو على مقربة من ساحل الجزيرة بحيث تبدو في أقصى الأفق وتطلق عدّة قذائف مضيئة، فيكون ذلك بمثابة ظهور المسيح، وهكذا ينقلب نظام المسيح الدجّال كاسترو.

ودون الخوض في مثل هذه الأمور يُذكر أنّ لانسديل صمّم مشروع عمل أساسيّ يهدف إلى قلب نظام كاسترو الشيوعيّ بثورة مفضوحة قبل نهاية تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٦٢، وكانت تلك الروزنامة غير معقولة، خاصّة من قِبَل رجل عرك حرب فييتنام وبرهن عن أنّه لا بدّ من سنين لتقوم حركة انتفاضيّة. وقد استنتج بعض أعضاء المجموعة W أنّ تاريخ نهاية تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٦٢، يأخذ بالاعتبار الحملة الانتخابيّة الأميركيّة التي تجري في تشرين الثاني ـ نوفمبر أكثر ممّا تهمّ كوبا.

حتّى أنّ المجموعة الخاصّة الموسّعة قضت بأنّ مشروع لانسديل شديد المبالغة وأصدرت توجيهات أكثر تواضعًا مثل: ١) إنّ جمع المعلومات يجب أن يكون الهدف

الأوّل للولايات المتّحدة خلال الأشهر التالية؛ ٢) لم تُمنع الأعمال المستترة ضدّ النظام الكوبيّ لكنّها أوحت بأنّ كلّ ما يمكن ان يسبّب قلاقل لكاسترو أو ثورة هو مقبول بالفعل. وهكذا برّرت هذه التوجيهات، مسبقًا، كافّة الأعمال الإجراميّة التي يمكن أن تقوم بها وكالة المخابرات المركزيّة.

إلتحق أربعمائة ضابط من الوكالة بالحملة العسكريّة وجُنّد الجواسيس من الدبلوماسيّين ورجال العمال المهاجرين الأجانب المتوجّهين إلى كوبا فحاولوا إغراء المسؤولين الكوبيّين الموجودين في غير بلادهم لإعلان الانشقاق عن وطنهم، وشرع بإعداد برامج عمل سياسيّة لحثّ دول أخرى على قطع علاقاتها الدبلوماسيّة مع كوبا.

قال عضو من المجموعة W : إنّها وحش نظرًا للجهود التي تبذل في سبيل ما يكفي قارّة بأكملها. وعندما أوكل إليّ ذلك العمل قيل لي بأنّني أستطيع أن أتّخذ من المساعدين ما أشاء.

وأُعيد تشغيل محطّة J.M./ Wave وهي قاعدة العمليّات المتقدّمة لوكالة المخابرات المركزيّة في فلوريدا بقيادة "تد شاكلي" وهو ضابط مقرّب جدًّا إلى هارفي منذ أيّام برلين. وباعتبار المحطة موجودة على الأرض الأميركيّة فلا يمكنها أن تعطي تغطية دبلوماسيّة كالسفارات، لذلك جرى تشغيلها تحت غطاء تجاريّ، ومن فوق البناء الخشبيّ نصف المتهدّم والواقع في زاوية مهجورة من حرم جامعة ميامي، وُضعت فوقها لافتة كُتب عليها "مؤسّسة زينيث التقنيّة". وفي الداخل كانت الجدران مغطّاة بجداول البيع والبراءات التجاريّة، كما وُضعت، أيضًا في مكان مناسب، شهادة "تشجيع لمؤسّسة زينيث من هيئة خيريّة".

أصبحت المحطّة، بسرعة، أعظم قاعدة لوكالة المخابرات المركزيّة في العالم، عمل فيها عدد كبير من الناس، وكانت تجري فيها عدّة طرز من العمليّات كاللقاءات

المستمرّة مع الثلاثة آلاف لاجئ كوبيّ الذين كانوا يصلون أسبوعيًّا من هافانا، وكإذاعات الدعاية والرسائل المرموزة على راديو "سوان". كذلك كان يجري فيها التدريب السريّ للفدائيّين الذين عليهم تنفيذ مهمّات في داخل كوبا، وأُقيمت قواعد ثانويّة في منطقة "إيفر غليدز" وهي منطقة مرزغيّة في فلوريدا، وكذلك في جزر مضيق فلوريدا، وأصبحت المرافئ السياحيّة لشبه الجزيرة المذكورة تعجّ بأعداد ضخمة من القوارب شديدة السرعة والمموّهة لتبدو كقوارب سياحيّة. كما أُنشئت ملاجئ في الأحياء المحيطيّة الفخمة حول ميامي. وقد استفاد من الدعم اللوجيستيكيّ لهذا المجمع الضخم مئات من المؤسّسات المشهورة. إشتغل آلاف من المنفيّين الكوبيّين في هذه المحطّة كسائقين وطيّارين وطبّاخين ومراسلين أو بصفة فدائيّين. وقد كان من المستحيل معرفة مدى نشاط المحطّة، أو أين تبدأ الخطوط العنكبوتيّة للمجموعات المضادّة لكاسترو التي كانت تعمل اعتبارًا من ميامي...

كانت هناك حركة دائمة من الذهاب والإياب بين الجزيرة الكوبيّة والقارّة الأميركيّة، وأُقيمت مؤسّسة حقيقيّة للنقل، وكانت فرق المنفيّين تُرسل إلى كوبا في الليل حتّى المياه الدوليّة على قوارب تموين طولها خمسون مترًا، ثمّ يصعدون إلى زوارق سريعة جدًّا طولها ستّة أمتار مصنوعة من الألياف الزجاجيّة ومجهّزة بمحرّكات قوّتها مائة حصان. أمّا آخر مائة متر فكانوا يجتازونها بواسطة قوارب مطّاطيّة تحرّكها محرّكات صامتة بقوّة تبلغ ٢٥ حصانًا. وعندما يصلون إلى الشاطئ كانوا يخبّئون قواربهم بين أشجار المانغو أو كانوا يفرغون هواءها ويدفنونها في الرمال. وكانت مهمّة بعض الفرق تنحصر في وضع الأسلحة في المخابئ المعدّة للعملاء الذين يشتغلون على أرض الجزيرة. كما أنّ عملاء آخرين كانوا يذهبون إلى مقاطعاتهم الأصليّة حيث يجدون، عند أهاليهم، المأوى والمأكل والمشرب ويحاولون أن يقيموا

شبكات سريّة. كانت لدى هؤلاء المعادين وليس العائدين، أجهزة إرسال يستخدمونها لرفع تقاريرهم عن حالة المواصلات والتموين والإمداد بالماء والكهرباء، ودوريّات المراقبة وكافّة الاجراءات التي تتّخذها السلطات الكوبيّة. كما كان عليهم حثّ المواطنين على أعمال التخريب كترك الأضواء منارة وترك المياه تجري، وكانت لديهم كميّات من فحم الغرافيت يضعون بعضًا منها في المحرّكات الانفجاريّة، كالسيّارات، فيتمّ تخريبها. لكنّ هذه النشاطات التافهة لم تثر الكوبيّين.

لربّما كانت أعمال التخريب بالقنابل تقوم بتلك الإثارة". هكذا قال ماكسويل تايلور. ولا نجد في الأرشيف الرسميّ لعمليّة "مونغوس" أيّ تلميحات إلى ضراوة هذه الحرب السريّة، لكنّ الأسماء الرمزيّة التي كان يعمل بعض العملاء تحت شارتها في داخل كوبا كالدم والسوط والجلد، تتحدّث بشكل مفصّل أكبر عن طبيعة الأعمال التي كانت مطلوبة منهم. وقد صرّح لانسديل: لقد انتهى الروتين فنحن في حالة حرب مع كوبا ويجب أن نتحمّل النتائج دون أيّ خور، "ممّا جعل أحد أعوان لانسديل يفسّر ذلك بمثابة أمر لقطع الرؤوس". وقد جرت محاولات لتخريب الأهداف الواقعة على مقربة من الساحل مثل الجسور والمحوّلات الكهربائيّة ومحطّات التلفزة والمؤسّسات الزراعيّة ومحطّات الريّ وسكّة الحديد. وكان المخرّبون ينصبون هاوناتهم على رمال الشواطئ ويطلقون عدّة رشقات ثمّ ينسحبون إلى عرض البحر...

و"كثيرًا ما كانت القنابل لا تصيب أهدافها بل القرى ممّا أدّى إلى تهديم المنازل". هكذا قال أحد قادة العمليّات شبه العسكريّة في المجموعة W. أمّا مساعد هارفي فقال: "لقد حدثت وفيّات وأضرار بالتأكيد، وكان ذلك مقابل لا شيء، وحسب معرفتي لم نحصل على أيّ نجاحات تستحقّ الذكر بل على الفشل المستمرّ".

لقد كان مقدرًا للصعوبات الاقتصاديّة الناجمة عن عمليّات التخريب أن تسبّب استياء لدى الشعب ممّا قد يكون قاعدة لعمل شبكات المقاومة. لكنّ المجموعة الخاصّة الموسّعة رفضت، في عدّة مناسبات، الموافقة على عمليّات يمكن أن تسبّب أضرارًا حقيقيّة للاقتصاد الكوبيّ. ذلك حسب رأي "توم بايت" أمين سرّ المجموعة الخاصّة الموسّعة الذي قال: "لم يكن أحد يعلم حقًّا ماذا يريد، فلم يكن قد انقضى عام على خليج الخنازير ومع ذلك لم يرضَ أحد بإعادة المحاولة. فكيف كانت إذن سياستنا حيال كوبا؟ وكانت تعليماتنا العسكريّة تقضي بأن نجعل الماء تغلي وبحيث أنّ النار لا تتعدّى ذلك. وقد استمرّوا يردّدون على مسامعنا هذه الجملة في ذلك الحين". لكن، بعد ذلك، قال مساعد هارفي للشؤون شبه العسكريّة: "لقد شعرنا في النهاية بأنّنا قد تورّطنا في قضيّة غير معقولة". قال هارفي لمساعده ذات يوم: "ما بهم هؤلاء الأوغاد، لماذا لا يأكلون أقفيتهم بعض الشيء؟".

في الواقع لم تكن المجموعة الخاصّة الموسّعة تثق بهارفي الذي لم يكن يبالي بها ولم يكن ليطلعها على يوم العمليّات وساعتها والأهداف المرتآة ومشاريع التخريب. لذلك طلب منه الجنرال ماكسويل تايلور معرفة التفاصيل. لكنّ هارفي كان يدّعي بأنّه يتعرّض للتعذيب بسبب ذلك التعطّش إلى المعرفة من قِبَل المجموعة الخاصّة الموسّعة، وكان مساعده يقول: "إنّهم يريدون أن يعرفوا كلّ شيء حتّى مقدار انحدار الشواطئ وتركيب الرمال والرواتب الغذائيّة التي ندفعها للرجال قبل عمليّات التسلّل".

أمّا رئيس العمليّات فقد قال: "لقد كنّا نشعر دائمًا بأنّهم يتّهموننا بأنّنا نقودهم إلى كارثة جديدة كمصيبة خليج الخنازير".

عزّز ذلك القول ما صرّح به مساعد هارفي: "إنّ ذلك كلّه وصمة لصفاتنا المهنيّة فما الفرق بين أن يكون لدى عملائنا مسدّسات من عيار ٩,٦٥ أو ١١,٤٥؟"

وعندما بلغ السيل الذبى أسرّ هارفي عن قلقه إلى جون ماكون وطلب منه بعض الفكاك الممكن من رقابة المجموعة الخاصّة، وبالتالي توفير الأوقات الضائعة في اجتماعات التنسيق أو الاستعلامات حتّى يرمّم المرونة والتأهيل المطلوبَين لجهد أقصى في العمليّات ضدّ كوبا.

كان بوبي كينيدي يعامل المسؤولين عن المجموعة W بقسوة وصلت يومًا إلى مداها الأقصى بحيث أنّه في نهاية أحد الاجتماعات قال الجنرال تايلور إلى هارفي في ما بينهما: "إنّ المرحلة التي وصلتم إليها تمكّنكم من بناء مدينة بكاملها". وعندما كان وزير العدل يكلّم هاتفيًّا رئاسة أركان المجموعة W في لانغلي فيصدر أمرًا ثمّ يقفل الخطّ كان الضابط الذي يتلقّى الأمر يتساءل عمَّن يخاطبه هل هو أخ الرئيس حقًّا أم أحد مازحي السوء. وفي يوم أعطى لأحد الضبّاط اسم رجل على علاقة مع مجموعة كوبيّة صغيرة لديها مشروع انتفاضة، فقام الضابط بالاتّصال مع هؤلاء الكوبيّين وتبيّن له عدم وجود أيّ مشروع حقيقيّ. وعندما أعطى الضابط الجواب الناتج إلى بوبي كينيدي، أمره هذا بالالتحاق بقاعدة "غوانتانامو" ليشترك مع المجموعة المذكورة. فاحتجّ الضابط قائلاً بأنّ وكالة المخابرات المركزيّة وعدت وزارة الدفاع بألاّ تجري أيّ عمليّات من القاعدة المذكورة، فأجاب بوبي كينيدي: حسنًا ذلك ما سنراه.

وكان وزير العدل، في بعض الأحيان، يمسك بزمام الأمور، مباشرة، واضعًا وكالة المخابرات المركزيّة أمام الأمر الواقع، كما جرى عندما أرسل لانسديل إلى ميامي في إطار المحاولة المجهَضة لتشكيل حكومة كوبيّة في المنفى، معترف بها من أهمّ المجموعات المضادّة لكاسترو. وغالبًا ما كان روبرت كينيدي يجتمع مع المنفيّين والمحسوبين كعملاء لهارفي، الذين لم يفتأوا ينقلون له شهادات من الدرجة الأولى عن حماقات وكالة المخابرات المركزيّة. وحسب ما قاله أحد مساعدي هيلمز: إنّ أحد

الكوبيّين قال له بأنّ وكالة المخابرات المركزيّة سألت المنفيّين عن رأيهم في الرئيس كينيدي. عند ذلك ضجّ بوبي قائلاً: لقد تجاوزتم الحدود.

كانت فعاليّة بوبي كينيدي تكمن في قدرته على قلب الأمور رأسًا على عقب ورفس البيروقراطيّة، وتلك هي أفضل ميزة فيه. أمّا في عالم الجاسوسيّة فإنّ لكلّ شيء حسابه المقدّر. لذلك كان طغيان بوبي في مثل هذه الأمور مثبّطًا لهمّة لانسديل مهما كان مقدار استقامة رأيه.

كان كينيدي حذرًا حيال هارفي مع أنّه كان يعترف بأنّ نفق برلين كان عملاً ضخمًا، أمّا عمله في كوبا فقد كان كارثة. ولم تكن الأمور تجري بشكل أفضل مع لانسديل. فبين هذا الأخير المستأصل لرجال العصابات وبين هارفي عميل التجسّس كان لا بدّ من صدام حقيقيّ. فلقد كان مزاجاهما متباينَين كاختلاف غابات فييتنام عن ساحات برلين. ولقد قال لانسديل: "إنّني لم أستطع أن أفهم يومًا الذين قاتلوا الروس، وأعتقد بأنّهم يقولون نفس الشيء عنّي".

بقي لانسديل فطريًّا جدًّا رغم خبرته الآسيويّة الطويلة ومعرفته بدسائسها. وكان هارفي يجده غريب الأطوار وخطرًا عامًّا، لأنّه طالما استعمل الرموز في مخابراته الهاتفيّة عندما يكون مجتمعًا مع هارفي إلى أن لاحظ هذا الأخير أنّه كان محور تلك المخابرات.

إتّخذت المقاطعة بين الرجلَين شكلها التامّ في ١٣ آب ـ أغسطس ١٩٦٢ عندما وجّه لانسديل إلى وزارتي الدفاع والداخليّة ووكالة الاستعلامات الأميركيّة ووكالة المخابرات المركزيّة تقريرًا عن مشروعات العمليّات الجديدة ضدّ كوبا، كتب فيه: "السيّد هارفي: إستعلامات وسياسة (بما فيها تصفية الزعماء) واقتصاد (تخريب وتلاعب) والمسائل شبه العسكريّة.

قبل ذلك بثلاثة أيّام وفي مكتب "دين راسك" لم يفتح هارفي فمه عندما بادر إلى فتح موضوع تصفية الزعماء كلّ من ماكنمارا وتايلور وبوندي وماكون وجليباتريك ولانسديل وجودوين وغيرهم من الرجال، خاصّة في ما يتعلّق بموضوع كاسترو.

قال هارفي لهيلمز: "لقد كان واضحًا، لكلّ المشتركين في الاجتماع، أنّ ذلك ليس بموضوع يمكن أن نفشيه". وفي الواقع لقد حُذف ذلك الموضوع من كلّ المحاضر الرسميّة للاجتماعات. وعندما وصل التقرير إلى علم لانسديل دعا هارفي إلى مقابلته وقال له: إذا وجدت نفسي متورّطًا في قصّة من هذا النوع فإنّني أخاطر بطردي. أصغى إليه هارفي دون أن يبتسم ثمّ اتّجه إلى مكتبه في القبو وأخذ التقرير وشطب جملة تصفية الزعماء، وطلب لانسديل بالهاتف وقال له بفظاظة: من غير المقبول ومن السخف أن نضع مثل هذا التعليق في ذلك النوع من المستندات، وإنّ وكالة المخابرات المركزيّة لا تذكر أبدًا مثل هذه القضايا بشكل كتابيّ ولا تشارك في أيّ اجتماع عن هذا الموضوع. وهكذا تورّط لانسديل في مشروع Z.R. Riffles دون أن يدري.

لم يكن لانسديل أبسط مشاكل مشروع Z.R. Riffles. فبناء على اقتراحات هيلمز عدل هارفي عن توظيف "وين" للبحث عن قاتل مناسب وعاد إلى سياق أكثر أمنًا لعمليّة الكوميديا البوليسيّة التي جرت محاولتها أيّام خليج الخنازير. وألحّ هارفي قائلاً: "إنّه هيلمز الذي ألصق بي تلك القضيّة، لكنّ جذورنا في كوبا، في ذلك الحين، لم تكن متأصّلة، وكنت مستعدًّا لأن أفعل كلّ شيء". وقد اختصر هارفي رأيه عن تلك العمليّة قائلاً بأنّها كانت تعرّض الحكومة لخطر الابتزاز سواء من الكوبيّين أو من الوسط الإجراميّ.

أهمل هارفي العميل السابق لمكتب التحقيقات الفدراليّ "ماهيو" وزعيمَي المافيا ترافيكانتي وجيانكانا، وأخذ يعمل فقط مع جون روسيللي. وعندما التقاه في مقصف

مطار ميامي قال هارفي لروسللي بأن ليس لديه بعد الآن إلاّ رئيس واحد هو "هارفي" أي نفسه، وأنّه يجب أن يقطع كلّ علاقة له مع ماهيو وترافيكانتي وجيانكانا ويبقى على اتّصال مع الكوبيّ طوني فارونا فقط. ومن ثمّ أعطى هارفي لروسيللي أربعة مضغوطات من السمّ مؤكّدًا له على "أنّها مؤثّرة أينما وكيفما ومتى ما وُضعت". وأجاب روسيللي بأنّ فارونا لا ينوي دسّ السمّ الجديد لفيدل كاسترو فقط بل لأخيه راؤول ولتشي غيفارا أيضًا.

في اليوم التالي استأجر هارفي وتِد شاكلي رئيس مجمع J.M.Wave مقطورة حشواها بالمفرقعات والمنفجّرات والبارود والمسدّسات وأجهزة الراديو بثمن لا يزيد على خمسة آلاف دولار، وتركاها في مرآب للسيّارات، واجتازا الطريق وأعطيا المفاتيح لروسيللي.

عند عودته إلى واشنطن أعلن هارفي، أمام المجموعة الخاصّة، أنّ ثلاث فرق قد تسرّبت إلى كوبا ممّا رفع عدد أوتاد وكالة المخابرات المركزيّة المغروسة في قلب كوبا إلى اثنَين وسبعين، لكنّه لم يأتِ على ذكر روسيللي أو فارونا أو المضغوطات السامّة أو المقطورة. وصرّح هيلمز، في ما بعد، أنّه تناقش مع هارفي طويلاً في أمر إعلام ماكون بالأمر أو عدم إعلامه، لكنّهما قرّرا عدم فعل ذلك لأسباب عديدة منها أنّ ماكون ما زال جديدًا في الوكالة وبالتالي سوف يتعاطى مع هذه المسألة من وجهة نظره رافضًا وجود عناصر من المافيا في القضيّة. كما أنّه لا بدّ أن يبقى بوبي كينيدي جاهلاً لما سيجري.

في الواقع إنّ وكالة المخابرات المركزيّة اضطرّت لأن تشرح للنائب العامّ لماذا يتوجّب على وزارة العدل أن تكفّ عن ملاحقة ماهيو وترافيكانتي وجيانكانا وروسيللي في محاولتهم التنصّت علىهاتف الممثّل "دان روان" وبالتالي للكشف عن مشروع

الاغتيال الأوّل. وهكذا حمل عبء ذلك منظّم المشروع "إدوارد شيفلد" والمستشار القانونيّ لوكالة المخابرات المركزيّة "لورنس هيوستن".

أعلم روسيللي هارفي بأنّ الحبوب السامّة والأسلحة وصلت إلى كوبا لكنّ شيئًا لم يحدث هناك.

في شهر حزيران - يونيو أرسل روسيللي إلى كوبا ثلاثة رجال مكلّفين بإنجاز العمل لكنّ كاسترو بقي في تمام الصحّة والعافية.

بعد أن مضت ثمانية أشهر على حديث بيسيل مع هارفي حول تطبيق برنامج Z.R. Riffles وبعد انقضاء ثمانية أشهر على أوامر رئيس الجمهوريّة باستعمال كلّ الوسائل الممكنة لمساعدة كوبا على قلب النظام الشيوعيّ، كانت النتيجة الملموسة، خلال تلك الفترة، هي تلك الكميّات الهائلة من الأسلحة التي استطاع الاتّحاد السوفياتيّ تزويد كوبا بها.

في ٨ آب - أغسطس اجتمعت المجموعة الخاصّة الموسّعة لتفحص الخطّ (ب) المسرّع الذي لم يكن إلاّ عودة إلى "مشروع العمل القاعديّ" الذي وضعه لانسديل لإقامة ثورة في كوبا قبل شهر تشرين الأوّل ــ أكتوبر. لكن في هذه المرّة توصّلت المجموعة إلى نفس النتائج تقريبًا التي كان قد أقرّها، لسنة خلت، مكتب التنبّؤات القوميّ التابع لوكالة المخابرات المركزيّة.

لم يعد بالإمكان قلب كاسترو بالوسائل المستترة. ولم يكن التوصّل إلى ذلك الهدف ممكنًا إلاّ بالتدخّل العسكريّ المباشر للولايات المتّحدة، وذلك فعلاً ما أعلنه ماكسويل تايلور لرئيس الجمهوريّة في ٢٠ آب ــ أغسطس، ومع ذلك لم تصنّف عمليّة "مونغوس" على الرفّ.

في ٢٢ آب - أغسطس، عندما كانت الباخرة ستريت هام هيل" متّجهة إلى الاتّحاد السوفياتيّ وهي تحمل ثمانمائة ألف كيس من السكّر الكوبيّ، توقّفت في ميناء سان جوان في بورتوريكو لضرورة التصليحات، فقام عملاء وكالة المخابرات المركزيّة بتوزيع مادة البيتركس، وهي مادّة غير ضارّة لكنّ طعمها منفّر جدًّا.

في اليوم التالي قام بوندي، المتحدّث الرسميّ باسم الرئيس، بتوجيه الأوامر بتطبيق الخطّ (ب) المسرّع من عمليّة "مونغوس"، وطلب من هارفي لائحة بكافّة الأهداف التي يمكن تخريبها. لكنّ لانسديل كان من أنصار الهجوم على مناجم "متاهامبري" وعلى مصانع السكّر والنيكل. وتلقّى عملاء وكالة المخابرات المركزيّة أوامر بتشجيع إتلاف المحاصيل سواء بالحرق أو بنشر بذور الأعشاب الضارّة أو باستعمال المبيدات العشبيّة الكيميائيّة، وتخريب المواسم، وتحريض العمّال الزراعيّين على التباطؤ في العمل وتخريب الأكياس والعبوات الكرتونيّة ووسائل التوضيب الأخرى. وأخذ البنتاغون بدراسة مشاريع Contigency II وهي عمليّة مموّلة جوًّا ضدّ كوبا. وفي ٧ أيلول - سبتمبر التقى هارفي بروسيللي في ميامي وسأله عن سبب التأخير في موت كاسترو، فلم يحصل على جواب...

في ٨ أيلول - سبتمبر بينما كانت إحدى طائرات الاستطلاع التابعة لسلاح البحريّة الأميركيّة تقوم بمهمّة روتينيّة فوق الأطلنطي وعلى عرض السواحل الكوبيّة صوّرت باخرة سوفياتيّة اسمها "اومسك" متّجهة إلى هافانا، وكانت تبدو على سطحها سيّارات ناقلة يتراوح وزنها بين ٢,٥ و٥ طنّ، بالإضافة إلى سواتر تمتدّ حتّى كوّات المركب فتمنع رؤية نوعيّة حمولة العنابر. ومن مقدار اتّساع الكوّات تمكّن الخبراء من التعرّف على أنّ الباخرة مصنوعة أصلاً لنقل الخشب الذي لا تصدّره روسيا إلى كوبا، فاستنتجوا أنّ المركب يحمل بضاعة غير الخشب، وأنّه، بسبب عدم توفّر النقل استُعمل

هذا المركب لنقل مادّة أخرى. بالإضافة إلى ظاهرة جديدة واضحة هي أنّ الباخرة كانت تبحر وقد ظهر واضحًا خطّ الغاطس فيها مع أنّها محمّلة، وذلك يعني أنّ العنابر غير مليئة، ممّا يدلّ على أنّ المركب يحمل أشياء قليلة الكثافة وكبيرة الحجم.

في ١٢ أيلول - سبتمبر، بعد تفريغ الباخرة لحمولتها السريّة خلال الليل، شاهد أحد عملاء وكالة المخابرات المركزيّة الذي كان يعمل بوظيفة محاسب في بلدة صغيرة واقعة في الجنوب الغربيّ من هافانا، صاروخًا ذا أبعاد عظيمة مقطورًا بالجرّارات، فسارع في السفر إلى فلوريدا. وفي نفس اليوم أكّد تقرير سريّ صادر عن مكتب الأمن القوميّ التابع لوكالة المخابرات المركزيّة على أنّ السوفيات لن يقيموا صواريخ موجّهة في كوبا لأنّهم لم ينصبوا مثيلاتها في بلدان الكتلة الشرقيّة، إذ من شأن مثل هذا العمل أن يخلق لهم مشاكل لا حصر لها من حيث الإدارة والمراقبة، وزيادة واضحة في عدد المستشارين السوفيات في كوبا ستكون موضع الشبهات. لكنّ جون ماكون كان له رأي آخر تمامًا، فمنذ أن شاهد صور قواعد سام التي كان الروس يقيمونها غربيّ كوبا أضحى متأكّدًا من أنّها ستُستخدم يومًا للدفاع عن الصواريخ ذات الرؤوس النوويّة ضدّ أيّ هجوم جويّ أميركيّ.

بعد ثمانية أيّام على مشاهدة عميل وكالة المخابرات المركزيّة للصاروخ في كوبا، وصل إلى مركز "أوبالكو" في فلوريدا حيث راح عناصر الوكالة يستنطقونه عن التقرير الذي قدّمه للتأكّد من أنّ الأبعاد التي قدّمها عن الصاروخ تتّفق مع أبعاد الصواريخ السوفياتيّة العابرة للقارات المتوسّطة المدى MRB.M. مع ذلك لم يقتنع المحقّقون من النتائج، فلقد مضى عام على توارد الأخبار من المنفيّين الكوبيين الذين يصرّون على وجود صواريخ سوفياتيّة في كوبا، لذلك عرض المحقّقون على المحاسب العميل صورًا ورسومًا لنماذج الصواريخ المصنوعة في العالم، وكانت كلّها

في نفس الأبعاد، ليتمكّن العميل من أن يميّز الشكل الصحيح للصاروخ الذي شاهده إلى أن تعرّف عليه وكان MRB.M.

أُرسل النبأ إلى واشنطن والتُقط بنفس الحذر حتّى أنّ أحد العاملين كتب ملاحظة على جانب التقرير تفيد بأنّ الصاروخ المشاهد هو "سام الدفاعيّ". في نفس الوقت تلقّت وكالة المخابرات المركزيّة، من عميل آخر لها في كوبا، رسالة فيها كتابة سريّة غير مرئيّة تفيد بوجود عمليّات تهجير للسكّان المدنيّين في منطقة "سانت كريستوبال" على بعد ٧٥ كلم جنوبي غربي هافانا. وهكذا تطابق هذا الخبر مع تقرير المحاسب.

في صباح ١٤ أيلول ـ سبتمبر غادرت طائرة استطلاع U-2 الأجواء الدوليّة لفوريدا وحطّت في جزيرة "بينوس" على بعد ٢٥ كلم في عرض الشاطئ المتوسّط لكوبا. ثمّ عملت نصف دورة وصعدت باتّجاه الشمال ولم تستغرق أكثر من خمس دقائق لاجتياز كوبا وتصوير أربعة عشر صاروخًا من ذوات المدى المتوسّط أطوالها عشرون مترًا وذلك في منطقة محرّجة جدًّا في ضواحي سان كريستوبال. وهذا ما أكّدت عليه الصور التي تمّ تحليلها في المركز الوطنيّ للتحليل الفوتوغرافيّ.

في ١٦ تشرين الأوّل ــ أكتوبر عُرضت الصور على رئيس الجمهوريّة ومستشاريه، وقال بوبي كينيدي: "في الواقع لقد استطاع المحلّلون الفوتوغرافيّون أن يميّزوا الصواريخ وكذلك مدى تقدّم الأعمال بعد أن استعملوا موجز الصيانة والتشغيل الذي حصلوا عليه من العقيد أوليد بنكوفسكي بواسطة وكالة المخابرات المركزيّة، واستنتجوا أنّه لم يتبقّ إلاّ ثمانية عشر ساعة حتّى ينتهي العمل بها تمامًا، وربّما كانت تلك أهمّ خدمة قدّمها العميل المذكور أعلاه".

بسبب وجود القذائف النوويّة في كوبا اتّضحت ضرورة تنفيذ عمليّة "مونغوس" بصورة ملحّة. وطلب بوبي كينيدي من هيلمز أن يبذل قصارى جهده في هذه العمليّة.

وحسب ملاحظات هيلمز فإنّ النائب العامّ أطلعه على استياء الرئيس الشديد، خاصّة وأنّ هذه العمليّة ما تزال تئنّ منذ عام دون أيّ أعمال تخريب واضحة، وإنّ ما جرت محاولته مرّتين حتّى الآن بالسمّ قد فشل.

إنطلق من قاعدة "سامر لاندكي" فريق من الكوماندوس مؤلّف من ثمانية رجال باتّجاه كوبا، وكان هدفهم مناجم النحاس.

عند وصولهم إلى الشاطئ تنبّه لهم الكوبيّون وحاولوا ردعهم فعادوا إلى القارب حيث بقوا ثلاثة أيّام يحاولون التسلّل، إلى أن سمعوا بيانًا إذاعيًّا بصوت الرئيس كينيدي يعلن حصار كوبا التي اتّخذ منها الروس قواعد للصواريخ، فعاد الفريق إلى فلوريدا مباشرة وهم يهلّلون فرحًا للرئيس الذي اتّخذ إجراء صارمًا ضدّ كاسترو، بالرغم من فقدانهم أحد الرفاق في كوبا.

إستغلّ هارفي فترة الزخم هذه وأعطى أمره بإرسال عشرة فرق من الكوماندوس مجهّزة بقنابل مضيئة ومشاعل، على أن يبقى عناصرها في حالة التأهبّ القصوى إذ ما قرّر الرئيس التدخّل العسكريّ.

وصل الخبر صدفة إلى النائب العامّ الذي قال في ما بعد: "إنّ أحد الرجال الذين التحقوا بتلك الفرق اتّصل بي ليبلغني استعداده للقيام بهذه المهمّة لكنّه كان يريد أن يعرف ما إذا كان الأمر يستحقّ العناء".

وقام النائب العامّ بإعطاء الأوامر لإلغاء المهمّة، لكنّ ثلاثة فرق كانت قد غادرت وأضحى كينيدي في غاية الغضب وقال لهارفي: "لقد وضعنا في عهدتك أرواح هؤلاء الرجال، وهكذا أنت تلقيهم في مثل هذه العمليّة الحمقاء. فبأيّ سلطة ترسل يا هارفي إلى كوبا ستّين رجلاً من هؤلاء الأبرياء في وقت أضحى فيه أيّ عامل مثير يمكن أن

يسبّب حربًا نوويّة". أجاب هارفي بأنّ العسكريّين هم الذين طلبوا منه القيام بالعمل العسكريّ. وعندما استُفسر العسكريّون عن ذلك أجابوا بعدم معرفتهم بتلك الحملة إطلاقًا. عندها أصرّ كينيدي على تفسير أفضل محذّرًا هارفي من أن لديه دقيقتَين فقط للإجابة، واستمرّ هارفي يتكلم خلال الدقيقتَين، فقام كينيدي من مكانه وغادر القاعة.

في ذلك المساء عاد ماكون إلى القيادة العامّة لوكالة المخابرات المركزيّة غاضبًا، ليس من هارفي وحده، بل من "شرمان كنت" رئيس المكز القوميّ للتنبّؤات، إذ رغم اتّصالاته الملحّة معه تبيّن عجزه عن التنبّؤ بإقامة القواعد الصاروخيّة في كوبا. وهكذا دعاهما ماكون إلى مكتبه وأزاح هارفي عن رئاسة المجموعة W وعيّن بدلاً منه "ليزموند فيتز جيرالد" الذي كان يشغل قبل ذلك رئاسة قسم الشرق الأقصى. وهذا الأخير ينتسب إلى عائلة ثريّة من نفس الوسط الإيرلنديّ الذي ينتسب إليه كينيدي في بوسطن، وكان رجلاً مثقّفًا يتمتّع بكثير من الجاذبيّة الشخصيّة، وبالتالي فقد كان الرجل المناسب لتحسين العلاقات مع البيت الأبيض. وليملأ الفراغ الذي تركه في مكتب رئاسة الشرق الأقصى عيّن ماكون لهذا المنصب "ويليام كولبي" الكاثوليكيّ المقدام ذا رباطة الجأش والضمير الحيّ. وهكذا نزل "ليزموند فيتز جيرالد" إلى القبو عند المجموعة W بينما انتقل هارفي إلى مكتبه حيث راح يرتّب أوراقه بانتظار أن يتّخذ المسؤولون قرارًا بشأنه.

مع ذلك كان لا بدّ من نزع فتيل المشروع Z.R. Riffles، لذلك سافر هارفي إلى لوس أنجلوس ليعلم روسيللي بأنّ الأمر لم يعد يتعلّق بالإطاحة بكاسترو. وكان هارفي قد فقد أيّ أمل في ذلك.

كان هارفي وروسيللي متقاربَين جدًّا لا سيّما في عدائهما للشيوعيّة. بالنسبة لروسيللي كان أمر الفتك بكاسترو عملاً قوميًّا كما هو بالنسبة لهارفي، لذلك لم يطلب

روسيللي قرشًا واحدًا مقابل أتعابه أو لتغطية نفقاته بالرغم من قدرته على ابتزاز الأموال الطائلة من أعلى مراتب المسؤولين في الدولة. كما أنّ الرجلَين التقيا على كره شخص واحد هو بوبي كينيدي لأنّه أعلن الحرب على محترفي الجريمة ومنهم روسيللي ولأنّه تجرّأ على التدخّل في شؤون المهنة بالنسبة لهارفي.

قدم روسيللي إلى واشنطن لوداع هارفي في حفلة عشاء وديّة واستقبله هذا في المطار القوميّ بينما كان رجال مكتب التحقيقات الفدراليّ المكلّفون بمراقبة روسيللي يلاحقانهما، وبما أنّهم لم يكونوا يعرفون رفيقه فقد ارتابوا بانتمائه إلى الوسط الإجراميّ، وحاولوا الاتّصال بضابط الاتّصال بين مكتب التحقيقات الفدراليّ ووكالة المخابرات المركزيّة "سام بابيش" للاستعلام وعرفوا أنّه هارفي. فحذّر بابيش هارفي من أنّ علاقته بروسيللي لن تبقى طيّ الكتمان على مدير مكتب التحقيقات الفدراليّ، وبالتالي فإنّ الخبر سيصل إلى ماكون الذي كاد يتعرّض للطرد في ما لو تبيّن وجود أيّ علاقة له بقضيّة الاغتيال. لذلك قرّر هارفي وهيلمز عدم إخباره بشيء. لكن كان على هيلمز أن يواجه مشكلة كبرى هي ماذا سيفعل بهارفي الذي طلب الالتحاق بلاوس. عند ذلك لفت هيلمز نظر هارفي إلى أنّ ذلك غير ممكن بسبب "وزنه واضطرابات غدّته الدرقيّة"، لكنّ الحقيقة كانت غير ذلك. فكان على هارفي ألاّ تكون له أيّ علاقة بالعمليّات التي يمكن أن تهمّ البيت الأبيض مباشرة. فقرّر هيلمز أن يعهد إليه بالشؤون الإيطاليّة. وقد أدهش ذلك التعيين كلّ البشر إذا كان يبدو غير معقول. فمهمّة هارفي، منذ ذلك الحين، ستصبح على علاقة مع قسم الاستخبارات الإيطاليّة، وهو الرجل المعروف بصراحته وحبّه للمشروبات الكحوليّة ومسدّسَيه، وهو الذي استطاع أن يثير سخط كافّة المسؤولين عن الأمن القوميّ الأميركيّ. وبين ليلة وضحاها نراه معرّضًا لمثل تلك التجربة في إيطاليا. وحسب رأي أحد ضبّاط وكالة

المخابرات المركزيّة: "كأنّنا نرسل فيلاً إلى مخزن لبيع القيشاني، أفلا يمكن إيجاد رجل أفضل؟". لكن كان من المفروض إبعاد هارفي عن الولايات المتّحدة بأسرع وقت ممكن، وكانت روما المكان الوحيد الشاغر لضابط بمثل رتبته. وهكذا أضحى هارفي، ذلك المرء الذي خدم الدولة بأمانة، هو المراد إبعاده وليس روسيللي المجرم المعروف.

لقد أثّر هذا التناقض كثيرًا على هارفي ففقد، لأوّل مرّة في حياته، ثقته بنفسه، ذلك ما أشار إليه أنغلتون. فبدلاً من أن يكافأ على ما فعل من حيث إقامة شبكة الاستخبارات التي سمحت باكتشاف الصواريخ السوفياتيّة، وبدلاً من أن تعلّق الأوسمة على صدره، نراه مبعدًا إلى خارج أميركا مهانًا ومجروحًا.

لقد كانت عمليّة مونغوس كارثة بالنسبة لوكالة المخابرات المركزيّة، لكنّها نجحت نجاحًا باهرًا في قضيّة الصواريخ، وعملت وسائل استخبارات وكالة المخابرات المركزيّة بشكل مدهش سواء من الناحية البشريّة أم من الناحية التقنيّة، وقدّمت للرئيس الأميركيّ صورة واضحة عن كلّ تطوّرات الموقف خطوة بخطوة ممّا جعله يعيد النظر في كثير من الأعمال، وبالتالي جعلته يكسب الرهان على خصومه السوفيات[1].

---

١ ـ رصاص د. محمود سيّد، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة غول وعنقاء وخلّ، ماذا فعلت؟، دار المعرفة (دمشق، ١٩٨٨) ص٢٩٥ ـ ٣٢٢.

عمليّة التخلّص من باتريس لومومبا

باتريس لومومبا: زعيم أفريقي ومناضل وطنيّ بارز معروف عالميًّا. كان مناهضًا للاستعمار وللهيمنة الأجنبيّة. نادى بالحريّة والاستقلال السياسيّ والاقتصاديّ لبلاده. تمّ اغتياله في عام ١٩٦١ بعد القبض عليه بواسطة "تشومبي" الذي تزعّم انفصال "كاتانغا" الغنيّة بالمعادن عن "الكونغو"، والذي توفّي بدوره في سجنه بالجزائر. تعاونت المخابرات الألمانيّة الغربيّة والبلجيكيّة والأميركيّة على التخلّص من لومومبا.

***

في خريف ١٩٦٠، بناء على أوامر مجلس الأمن القوميّ الأميركيّ، عُهد إلى الـ CIA بمهمّة التخلّص من "باتريس لومومبا". ثمّ اتّخاذ كلّ الترتيبات ومن ضمنها الاستطلاع والاستكشاف ووسائل القتل ومكانه.

"ريتشارد بيسل"، نائب مدير الوكالة لشؤون الخطط، أمر "برونسون تويدي" رئيس قسم أفريقيا بالوكالة، وضع دراسة للتخلّص من لومومبا، وبنفس الوقت طلب من "جوزيف شيدر"، العالِم في الوكالة، اتّخاذ الاستعدادات للتخلّص من الهدف المطلوب. جهّز شيدر المواد السامة المطلوبة لوسائل التخلّص هذه. وفي أواخر أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٠، تمّ تسليم المواد السامّة لضابط المحطّة في "ليوبولد فيل" الذي أكّد له الأمر الصادر من الرئيس أيزنهاور بعمليّة اغتيال لومومبا. وقد أكّد شيدر الأمر في شهادته أمام لجنة "تشرش" للتحقيق بعمليّات الوكالة.

وإذا كانت عمليّة التخلّص من لومومبا قد تمّت بالتصفية الجسديّة المباشرة، بعد اعتقاله، من دون استعمال الموادّ السامّة بواسطة جنود تشومبي، العسكري المتمرّد على لومومبا، فإنّه لم يُعلم لتاريخه الدور الحقيقيّ الذي لعبته المخابرات الأميركيّة في هذه الأحداث، مع الافتراض مسبقًا أنّه كان للوكالة دورًا هامًّا لعبته في إنهاء حياة الزعيم الأفريقيّ من خلال التصميم على التخلّص منه كما ورد سابقًا[1].

---

١ - وود جان، جواسيس للبيع، ص٧٧ ـ ٧٨.

إغتيَال الرئيس الدومينيكَاني رافائيل ترُوخيللو

"رافائيل تروخيللو"، رئيس جمهوريّة الدومينيكان، عُرف نظام حكمه بـ"الحكم العائليّ"، وسُمّي "حكم آل تروخيللو الاستبدادي"، إلاّ أنّه في الحقبة الأخيرة من حكمه وضع الكثير من الإصلاحات التي كان مؤمّلاً من تنفيذها أن تشهد الدومينيكان نهضة إقتصاديّة واجتماعيّة وسياسيّة مهمّة. وبعد اغتياله قام الجيش بقيادة الجنرال "وازن" اللبنانيّ الأصل بالسيطرة على الحكم وإعادة البلاد إلى حلبة المصالح الأميركيّة.

في ٣١ أيّار ـ مايو ١٩٦١، أطلق معارضون دومينيكان النار على الرئيس تروخيللو فصرُع على الفور، وكانت المعارضة الدومينيكانيّة نشطة منذ أوائل العام ١٩٦٠، حيث قادت الكثير من الاضطرابات والمظاهرات وأعمال الشغب ضدّ المؤسّسات الحكوميّة، ولم تهدأ المعارضة هذه رغم كلّ الوعود والخطط التي وُضعت وأُعلنت من قبل النظام من أجل الحدّ من حكم العائلة، وإعطاء صلاحيّات وحريّات واسعة في المجالَين النقابيّ والإعلاميّ، وتوزيع الأراضي على الفقراء، ورسم سياسة إقتصاديّة واجتماعيّة ترتكز على استصلاح الأراضي وتنشيط الزراعة والصناعة. وحسب ما ورد في شهادة شيدر فإنّ الحكومة الأميركيّة، عبر أجهزة الـCIA قد قامت بدعم هؤلاء المعارضين وقدّمت للمعارضين الذين عبّروا عن رغبتهم في التخلّص من تروخيللو مسدّسات ورشّاشات وقنابل يدويّة مع تدريبهم على استعمالاتها[١].

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص ٨٤ ـ ٨٥.

إغتيَال رئيس جمهُوريَّة فيتنَام الجَنوبيَّة

"تغودين دييم"، رئيس جمهوريّة فيتنام الجنوبيّة لغاية ٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦٣... حاول الحدّ من تدخّلات الإدارة الأميركيّة في بلاده والاستقلال عن المعسكر الغربيّ بانتهاج سياسة اقتصاديّة وعسكريّة معتدلة بعيدة عن التكتّلات والأحلاف. ومع أنّ الدور الأميركيّ كان بارزًا في وصوله إلى السلطة، لكنّه لم يبعث على الرضا والارتياح لدى الإدارة الأميركيّة بعد مدّة من تولّيه سدّة الرئاسة.

في الثاني من تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦٣، جرى انقلاب عسكريّ في فيتنام الجنوبيّة قاده جنرالات الجيش ضدّ الرئيس. وبعد نجاح الانقلاب، تمّت تصفية الرئيس وشقيقه "نهو"، وإقامة نظام سياسيّ موال بشكل كامل للسياسة الأميركيّة.

ومع التأييد الفوريّ للنظام الجديد من قبل الولايات المتّحدة الأميركيّة، كشف النقاب عن الاتّصالات التي قامت بها الـCIA مع كبار ضبّاط الجيش الانقلابيّين تمهيدًا للقيام بالانقلاب العسكريّ. فلقد أكّدت شهادة "شيدر" أمام لجنة "تشيرش" ومن خلال الجزء الذي يحمل عنوان "تلخيص واستنتاجات" أنّ الـ CIA قد قدّمت أموالاً طائلة لجنرالات الجيش تحضيرًا للانقلاب، وكذلك تمّ تشجيعهم وتقديم الكثير من المعلومات المخابراتيّة الهامّة لهم، وكذلك تحديد نقاط الضعف عند القوى العسكريّة الأخرى المؤيّدة للرئيس الفيتنامي والمفترض أن تكون معارضة للانقلاب العسكريّ[1].

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص٨٣ ـ ٨٤.

مَن اغتالَ جون كينيدي

أكّد شابّ أميركيّ يدعى "ريكي وايت" أنّ والده "روسكو" الذي كان أحد أفراد شرطة دالاس، كان واحدًا من ثلاثة عملاء لوكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA الذين هم القتلة العليّون للرئيس الأميركيّ جون كينيدي.

وفي مؤتمر صحافيّ عقده في دالاس (تكساس) يوم ١ آب ـ أغسطس ١٩٩٠، أكّد ريكي وايت أنّ والده المتوفّي كان قد عاد إلى صفوف شرطة دالاس قبل شهرين من اغتيال كينيدي في ٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦٣، وذلك بهدف تنفيذ الخطّة.

وقال إنّ والده، واسمه الرمزيّ "ماندرين"، كان واقفًا على مرجة خضراء في أثناء الجريمة، فيما كان عميلاً الـCIA الآخران، واسمهما الحركيّ "لبنان" و"شاول"، متمركزين في مبنيين عاليين يطلاّن على ساحة دالاس التي وقعت فيها الجريمة.

وأضاف أنّ الرجل الذي اعترف بارتكاب الجريمة "لي هارفي أوزوالد" كان مشاركًا في الخطّة لكنّه لم يطلق النار خلافًا لما فعل روسكو وايت ورفيقاه.

وتابع أنّ والده، وشرطيًّا آخر يدعى "ج. د. تيبيت" كان يجهل كلّ شيء على ما يبدو عن القضيّة، أقلاّ أوزوالد في وقت لاحق في سيّارة في اتّجاه المطار، لكنّ الرعب دبّ في هذا الأخير ففرّ منهما.

وذكر ريكي أيضًا أنّ تيبيت انتابه الشكّ بعد ذلك، فاقترح على روسكو إبلاغ الشرطة بما فعل أوزوالد فما كان من روسكو إلاّ أن قتله. وقد نسبت لجنة وارن للتحقيق هذه الجريمة إيضًا إلى أوزوالد.

وفي المؤتمر الصحافيّ الذي عُقد في "مركز المعلومات عن اغتيال جون كينيدي"، قال ريكي إنّ الأب "جاك شاو" أكّد له مرّات عدّة على عمليّة الاغتيال هذه حتّى عندما كان على فراش الموت.

وكان روسكو الذي ترك شرطة دالاس عام ١٩٦٥ قد قُتل عام ١٩٧١ برصاصة أطلقها عليه مجهول، وقال الأب شاو إنّ الـ CIA تقف وراء اغتياله رغبة منها في إزالة كلّ شهود عمليّة اغتيال كينيدي.

وأكّد رجل الدين أيضًا أنّ "جينيفا" زوجة روسكو وايت، أكّدت له مرّات عدّة أنّها سمعت زوجها و"جاك روبي"، الرجل الذي قتل لي هارفي أوزوالد بعد يومين من اغتيال الرئيس، يعدّان للعمليّة.

وقال ريكي وايت الذي كان في الثانية من عمره ادى حصول الحادث إنّه علم بدور والده في اغتيال الرئيس كندي قبل اثني عشر عامًا، بفضل مذكّرات كتبها والده ووضعت الشرطة الفدراليّة FBI يدها عليها.

وعرض ريكي وايت أيضًا وثائق عدّة بينها واحدة تفيد أن والده وأوزوالد كانا يعملان على متن سفينة واحدة عام ١٩٥٧ في أثناء تأدية خدمتهما في سلاح البحريّة. وعرض أيضًا ثلاث وثائق أوضح أنّها رسائل من الـ CIA تأمر فيها بتنفيذ العمليّة. وقد أكّد مسؤولون في وكالة الاستخبارات عدم صحّة هذه الوثيقة. ووصف ناطق باسم الوكالة أقوال ريكي بأنّها "مدعاة للضحك"، مؤكّدًا أنّ الوكالة لم تستخدم روسكو وايت أبدًا[١].

---

١ - وود جان، جواسيس للبيع، ص١٣٤ - ١٣٥.

عمليّة جبال هملايا

جنّدت وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA في خريف عام ١٩٦٦ عددًا من متسلّقي الجبال للصعود إلى جبال هملايا في الهند، وكان الهدف من ذلك تثبيت جهاز للتجسّس على الصين. وقد أخفى رجال الوكالة الجهاز في أحد منحدرات هذا الجبل لصعوبة تسلّقه بسبب رداءة الأحوال الجويّة.

بعد تحسّن الطقس، تمّ التفتيش عن الجهاز دون جدوى، إذ إنّ انهيارات جليديّة محت مكان إخفاء هذا الجهاز.

في العام التالي، تجدّد البحث عن الجهاز، ولكن من دون نتيجة، وكذلك تكرّرت المحاولات سرًّا.

أمّا المسألة الكبرى فهي أنّ هذا الجهاز يعمل بموجب مولّد نوويّ، والخوف يكمن في تسرّب النشاط الإشعاعيّ للبلوتونيوم الذي يحويه الجهاز إلى نهر الغانج والآثار العالميّة التي من الممكن أن تتركها على صعيد العلاقات والاتّفاقات الدوليّة[١]...

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص٩٥.

إنهاء نظام اللندي في تشيلي

الجنرال "رينيه شنايدر"، القائد العام لجيش تشيلي خلال حكم الدكتور "سلفادور الليندي". امتاز شنايدر بالحرص على الديمقراطيّة، والإصرار على اتّباع العمليّة الدستوريّة بحماية النظام دون سائر الكولونيلات وكبار الضبّاط الذين خطّطوا بالدعم الأميركيّ للقيام بانقلاب عسكريّ يطيح بالليندي وحكومة الوحدة الشعبيّة المنتخبة.

وقد توفّي الجنرال شنايدر في ٢٥ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٧٠، متأثّرًا بالجراح التي أصيب بها وهو يحاول مقاومة خاطفيه بعد أن عجزوا في اليوم السابق من اختطافه.

شنايدر، هو القائد العام والمعارض الدستوريّ للانقلاب العسكريّ الذي كان يهدف إلى منع وصول الليندي لرئاسة الجمهوريّة التشيليّة نتيجة الاستفتاء الشعبيّ الذي جرى في ٤ أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٠.

في منتصف شهر آب ـ أغسطس ١٩٧٠، أعطى الرئيس نيكسون أوامره لمدير الـ CIA آنذاك "ريتشارد هيلمز" بالقضاء على نظام الليندي باعتباره سيكون نظامًا غير مرضيّ عنه أميركيًّا. وبناء على هذا الأمر، تمّ إجراء اتّصالات مع كبار الضبّاط والشرطة التشيليّين، وتمّ الاتّفاق على الانقلاب العسكريّ مدعومًا بشكل قويّ وأساسيّ من المخابرات الأميركيّة.

كان الجنرال شنايدر القائد العام للجيش يشكّل العقبة الأساسيّة أمام كبار ضبّاط الجيش والشرطة للقيام بالانقلاب بحكم موقعه العسكريّ. ولمّا كان أمر إحالته للتقاعد أو إقالته متعذّرًا دستوريًّا، فقد تمّ التخطيط لاختطافه.

أوّل محاولة للخطف هذه جرت يوم ٢٢ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٧٠، إلاّ أنّها فشلت بفعل مقاومة شنايدر والحرس المرافق له لهذه العمليّة. فزوّدت الوكالة المركزيّة الأميركيّة الخاطفين مجدّدًا بالبنادق الرشّاشة والذخيرة وجدّدت محاولتها في اليوم الثاني فيما كان الجنرال متوجّهًا إلى مكتبه، فأصيب الجنرال إصابات بليغة نتيجة لمقاومته محاولة الاختطاف الثانية وتوفّي بعد ثلاثة أيّام.

كانت هذه مقدّمة لإنهاء نظام الليندي مساء يوم ١١ أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٣، حيث قامت قيادات الأسلحة الثلاثة البريّة والبحريّة والجويّة بالانقلاب العسكريّ المعروف بدعم قويّ ومباشر من الـ CIA حسب شهادة "شيدر" أمام لجنة "تشيرش" للتحقيق بعمليّات الوكالة الخارجيّة وتورّطها باغتيالات لزعماء سياسيّين ونقابيّين[١].

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص٨٢ ـ ٨٣.

عمليّة إيفي بلز

بعد ارتداد "يورتشنكو" رئيس ضبّاط أمن المخابرات السوفياتيّة في السفارة السوفياتيّة بواشنطن عن الـ KGB وتعاونه مع الـ CIA، كشف هذا الأخير عن عميل المخابرات السوفياتيّة داخل وكالة الأمن القوميّ المدعوّ "رونالد بيلتوم".

عند التحقيق مع بيلتون، اكتُشف أنّ هذا الأخير قد باع السوفيات إحدى العمليّات الهامّة في وكالة الأمن القوميّ، وكان اسمها المشفرّ "إيفي بيلز".

وإذا كانت هذه العمليّة "الجوهرة" الأهمّ في مشاريع الوكالة بما تستهدف من جمع معلومات سريّة للغاية عن الاتّحاد السوفياتيّ، فإنّها قد كشفت أيضًا حجم التكنولوجيا المتطوّرة جدًّا في عمليّات التجسّس بين القوّتين العظميين، وعرّضت للشبهة وللكشف كلّ عمليّات الشيفرة الأميركيّة والصديقة المستخدمة للتنصّت والتجسّس على السوفيات.

في قاع المحيط، وفي أعماق بحر "أوختسك" شرق الاتّحاد السوفياتيّ، استطاعت وكالة الأمن القوميّ الأميركيّ أن تصل إلى الكابل البحريّ السوفياتيّ للاتّصالات، وكان هذا الكابل يربط شبكات اتّصالات مهمّة للغاية، وكان يُعتبر في حينه بمأمن عن كلّ تنصّت وآلات استراق السمع، مهما كانت هذه الآلات متقدّمة، وإزاء هذا الاطمئنان، كانت الاتّصالات العسكريّة والمخابراتيّة السوفياتيّة التي تجري عبره بمعظمها غير مشفّرة.

استطاعت وكالة الأمن القوميّ الأميركيّ أن تغرس لولبًا متطوّرًا ومتّصلاً بالكابل الروسيّ إلكترونيًّا دون أن يلامسه. كان هدف اللولب الأميركيّ تخزين وحفظ كلّ الاتّصالات الروسيّة عبر هذا الكابل، وكان رجال الضفادع الأميركيّين يغوصون بواسطة غوّاصة صغيرة جدًّا باستعمال رجل آليّ للوصول إلى موقع اللولب، لالتقاطه وإبداله بلولب آخر. وكانت إحدى الغوّاصات الأميركيّة المجهّزة خصيصًا لهذه المهمّة تنقل رجال الضفادع وتعود إلى بحر أوختسك كلّ ستّة أشهر لإبدال اللولب المذكور.

استمرّت عمليّة التنصّت هذه حتّى أواخر عام ١٩٨١... وإذ كان الأميركيّون قد حصلوا على كنوز ثمينة لأهميّة المعلومات والبيانات التي جمعوها، رغم أنّ عمليّات التخزين للمعلومات هذه كانت تعود إلى أشهر خلت، فإنّها قد جعلت الأميركيّين مسرورين للكشف عن الكثير من الألغاز التي حيّرتهم سابقًا.

في آخر عام ١٩٨١، التقط أحد الأقمار الاصطناعيّة الأميركيّة صورًا لعشرات القوارب البحريّة السوفياتيّة وهي تتجمّع حول بقعة تواجد اللولب الأميركيّ في قاع المحيط، فأدرك الأميركيّون ساعتئذٍ أنّ مهمّة اللولب قد كُشفت.

وعندما عادت الغوّاصة الأميركيّة إلى منطقة وجود اللولب لالتقاطه وإبداله بغيره كالعادة، كان اللولب قد اختفى، فأيقن المعنيّون الأميركيّون أنّ اللولب قد وقع بأيدي السوفيات.

لقد استُبعد عامل الحظّ أو الصدفة في كشف السوفيات للولب الأميركي، وبدأت تقارير الـ CIA تشير إلى تسرّب في المعلومات وتجسّس لحساب الروس.

رغم كلّ التحقيقات التي جرت في حينه، لم تتوصّل الجهود إلى نتيجة تُذكر، حتّى كان العام ١٩٨٥، بعد مرور أربع سنوات على كشف عمليّة "إيفي بلز" إذ كان مفتاح اللغز ضابط السفارة السوفياتيّة المرتد: "يورتشنكو"، الذي كشف تجنيد الـ KGB لرونالد بيلتون.

تسرّبت عمليّة كشف إيفي بلز للصحافة وقد جاء عنوان "نيو يورك تايمز":

"بيلتون يكشف للسوفيات عن آلة تكنولوجيّة متطوّرة جدًّا لاستراق السمع[١]"...

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص٨٨ ـ ٨٩.

عمليّة غرينادَا

"غرينادا"، جزيرة صغيرة في البحر الكاريبي، مساحتها ١٣٣ ميلاً مربّعًا، عدد سكّانها نحو ١١٠ آلاف نسمة. زراعتها جوز الطيب. قبل إتمام عمليّة الغزو الأميركيّ للجزيرة كان نظامها السياسيّ ماركسيًّا مدعومًا من روسيا وكوبا.

صباح ٢٥ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٨٢، نفّذت القوّات الأميركيّة عمليّة إنزال واسعة على الجزيرة، وتمّ التمهيد لهذا الغزو بعمليّات تخريب واسعة قامت بها عناصر وكالة المخابرات الأميركيّة المركزيّة CIA داخل الجزيرة، وقد حدّدت الوكالة خطّ سير وأماكن إنزال القوّات الأميركيّة، وأمّنت لها شبكة واسعة من المعلومات الدقيقة عن مواقع القوّات المدافعة عن الجزيرة، وأُحصيت الخسائر الأميركيّة بخمس مروحيّات ومقتل وجرح أكثر من أربعين جنديًّا، هذا عدا الخسائر بين القوّات الحليفة المهاجمة من دول أميركا اللاتينيّة والمتحالفة، ضمن منظّمة شرق الكاريبيّ.

بعد نجاح عمليّة الغزو، أوكلت الوكالة المركزيّة الأميركيّة مهمّة تنظيف البيت من الداخل، فتمّ صرف ملايين الدولارات من أجل فوز المرشّح الأميركيّ بالانتخابات "هربرت بلاير" الذي نجح بفضل هذا الدعم بأن يكون أوّل رئيس وزراء يدين بالولاء للسياسة الأميركيّة، مطالبًا الرئيس الأميركيّ رونالد ريغن بأن يبقي على وحدات من الجيش الأميركيّ بالجزيرة حفاظًا على استقرار حكمه[1].

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ص٨٦.

الـ CIA والغزو العراقيّ للكويت

كانت وكالة المخابرات المركزيّة CIA، منذ تشرين الثاني ـ أكتوبر ١٩٨٩، قد حذّرت، في تقارير سريّة لها، من أنّ للرئيس العراقيّ نوايا عدوانيّة تستهدف بسط نفوذه على الشرق الأوسط، كما تنبّأت الوكالة أنّ الرئيس العراقيّ يحتاج إلى ثلاث سنوات ليستفيق من صدمة الحرب العراقيّة ـ الإيرانيّة ويواصل نشاطه.

وفي ٢٣ تمّوز ـ يوليو ١٩٩٠ نقلت الوكالة في تقرير لها أنّ صدّام حسين بدأ يحرّك قطاعاته العسكريّة صوب الكويت وأنّ بوادر الغزو باتت وشيكة جدًّا، وهي تقع في غضون الساعات الأربع والعشرين المقبلة بالاستناد إلى بعض الاتّصالات التي تمّ التقاطها.

بدأ الغزو في الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم جاليًا، في أعقابه، سلسلة من أحداث انتهت بالهزيمة العراقيّة على يد القوّات الأميركيّة ومعها قوّات التحالف في السابع والعشرين من شباط ـ فبراير ١٩٩١.

خلال هذه الفترة حصلت وكالة المخابرات المركزيّة على كلّ ما تحتاجه من معلومات استخباريّة لتقييم نوايا صدّام ومن ثمّ شنّ الحرب. فهي قد أرسلت، قبل أن تبدأ الحرب، في ١٦ كانون الثاني ـ يناير ١٩٩١، ما يربو على خمسمائة تقرير إلى البيت الأبيض تناولت أثر العقوبات الاقتصاديّة على العراق، واستعدادات العراق للحرب، وشخصيّة صدّام وصفاته. كما نصب عملاء الوكالة، شبكة من الأقمار

الصناعيّة فوق الشرق الأوسط لتحديد وتقييم قوّة الجيش العراقيّ ومعنويّاته، ولمساعدة القطع العسكريّة على تحديد أهدافها في الساعة التي تشاء، وللحصول على المخطّطات الهندسيّة والمعماريّة لأهمّ أهداف العراق. وفي إحدى تلك الرسائل الموجّهة إلى البيت الأبيض جاء أنّ صدّام حسين سيُغرق الخليج بالنفط وأنّه قد يستخدم أسلوبًا آخر ليحرق الأرض قبل أن ينسحب من الكويت. فاتّخذت الوكالة قرار تنسيق جهودها الدعائيّة كتوزيع المنشورات لحثّ عناصر الجيش العراقيّ على الاستسلام، ووعدت بإطلاق سراح بعض الرهائن الأميركيّين الذين احتجزهم صدّام حسين في مراحل الصراع الأولى.

لقد أحسنت الوكالة أداءً في حرب الخليج برغم الأخطاء التي ارتكبتها مثل المبالغة في تقييم أعداد الجنود العراقيّين في العراق[1].

---

١ ـ كيسلل، داخل السي أي أي، ص٩ ـ ١٠.

ويليام وبستر مدير الـ FBI والـ CIA

وُلد وليام وبستر في ٦ آذار ـ مارس ١٩٢٤ في سانت لويس، تخـرّج محاميًا من مدرسة القانون ـ جامعة واشنطن عام ١٩٤٩. خدم برتبة ملازم في البحريّة الأميركيّة خلال الحرب العالميّة الثانية وفي الحرب الكوريّة. مارس القانون في سانت لويس وعمل بمنصب المدّعي الأميركيّ للضاحية الشرقيّة في ولاية ميسوري عام ١٩٦٠. وفي العام التالي عاد إلى مزاولة القانون. عام ١٩٧٣ انتسب إلى محكمة التمييز الأميركيّة، ثمّ اختاره الرئيس جيمي كارتر مديرًا لمكتب التحقيقات الفدراليّ عام ١٩٨٧ برغم من أنّه كان جمهوريًّا.

لم يكن ويليام وبستر ممثّلاً لأيّ من مديريّات الوكالة شأنه شأن أغلب مدرائها السابقين. وعلاوة على ذلك، كان وبستر، على مدى عشر سنوات مديرًا لمكتب التحقيقات الفدراليّ الذي تجمعه خصومة غريزيّة مع وكالة المخابرات المركزيّة منذ مهديهما. فإذا جاء شخص ما من مكتب التحقيقات إلى الوكالة يكون كمن جاء برئيس صحيفة نيويورك تايمز ليترأس هيئة تحرير صحيفة واشنطن بوست، منافستها اللدودة.

إنّ مجرّد فكرة أن باستطاعة قاض سابق إدارة نشاطات وكالة تنطوي مهمّتها على خرق قوانين البلدان الأخرى هي كمن ينثر شظايا على ركائز كثير من مكاتب مديريّة العمليّات. فمدير الوكالة السابق ويليام كيسي قد ساند، وبقوّة، النشاطات السريّة برغم كلّ الجروح التي خدش بها سمعة الوكالة.

لقد أحسن وبستر صنيعًا في إدارته لمكتب التحقيقات الفدراليّ ووضع الأمور في نصابها مانعًا بذلك أيّ إساءة محتملة مثل "كونبيليرو" وهي البرنامج الذي أقرّه "إدغار هوفر" وتضمّن فتح الرسائل بصورة غير شرعيّة لأجل الحصول على معلومات عن الحركة المناهضة للحرب. وهو قد نقل برنامج مكتب الاستخبارات المضادة من موضع السبات والإهمال إلى آخر لقي فيه تقديرًا واحترامًا كبيرَين داخل أروقة مكتب التحقيقات الفدراليّ. وهو وافق على بعض من العمليّات اللاذعة التي كانت دومًا محطّ خلاف، مثل عمليّة "أبسكام" التي استهدفت أعضاء الكونغرس.

إنّ مكتب التحقيقات الفدراليّ، في عهد وبستر، لم يصل قطّ في إساءاته إلى نقطة اللاشرعيّة، حين تجاوز سلطته في التحقيق مع لجنة التضامن مع شعب السلفادور. فهو قد بدأ بالتحقيق بعد تلقّيه مزاعم أنّ اللجنة متورّطة في دعم الإرهاب، وتبيّن، في ما بعد، أنّ تلك المزاعم صحيحة.

عزّز وبستر مبدأ توظيف وترقية عملاء المكتب من الأقليّات الأخرى برغم ما أبداه السود والإسبان من تشكّ بسبب العنصريّة التي تعرّضوا لها أيّام ولاية وبستر. فقد ارتفع عدد العملاء السود ما بين ١٩٧٨ و١٩٨٧ من ١٨٥ إلى ٣٩٣، والعملاء الإسبان من ١٧٣ إلى ٤٠٠. كما ارتفع عدد عملاء المكتب من النسوة في نفس الفترة من ١٤٧ إلى ٧٨٧.

بعد وفاة زوجته عام ١٩٨٤، دعاه الرئيس بوش الأب وزوجته باربرا للعيش معهما في منزلهما الكائن في "كينيا نكبورت".

بالرغم من أنّ الرئيس ريغن لم يقدّم هذا الغرض، بدا واضحًا أنّ الاختيار قد وقع على وبستر لما يتمتّع به من سمعة طيّبة في فرض النظام على كثير من الوكالات المضطربة. إذ تورّطت وكالة المخابرات المركزيّة إبّان عهد كيسي في فضيحة إيران

ـ كونترا، وفشلت في أن تطلع الكونغرس على عمليّات زرع الألغام في موانئ نيكاراغوا، فبدأت وكالة المخابرات المركزيّة تعكس صورة وكالة نخرتها الفوضى وتلك نتيجة حتميّة لولع كيسي في تحدّي الكونغرس.

يشهد الماضي أنّ وبستر كان محاميًا من الدرجة الأولى وقاضيًا لا يختلف اثنان في نزاهته. فهو إذاً من تحتاج له الوكالة لكي يعيد إليها نظامها. فعلى سبيل المثال، طلب البيت الأبيض إبّان رئاسة كارتر من مكتب التحقيقات الفدراليّ أن يتولّى مهمّة حماية شاه إيران عندما قدم إلى الولايات المتّحدة لمعالجة السرطان. تساءل وبستر إن كان مكتب التحقيقات الفدراليّ يتمتّع بالسلطة القانونيّة ليستجيب لطلب كهذا، الأمر الذي دفع بمحامي البيت الأبيض لأن يقلبوا أوراق كتب القانون ليجدوا التخويل القانونيّ الذي يسمح للمكتب قانونًا بمساعدة بقيّة الوكالات في حماية الشخصيّات الأجنبيّة المهمّة. هنا فقط امتثل وبستر لطلب البيت الأبيض.

في ٢٦ أيّار ـ مايو أصبح وبستر المدير الرابع عشر لوكالة المخابرات المركزيّة. وقد أقسم أمام قاضي المحكمة العليا "لويس باول "الإخلاص لدستور وقوانين بلادي". هنا علّق وبستر: "اليوم أغادر مؤسّسة هي فخر للحياة الأميركيّة، مكتب التحقيقات الفدراليّ، لأنضمّ إلى أخرى نفخر بها، إنّها وكالة المخابرات المركزيّة".

رفض وبستر الخضوع لاختبار كشف الكذب بعد أن تبوّأ منصبه. وهو امتحان يجري لجميع الموظّفين بعد تعيينهم ويتضمّن نفس أسئلة الامتحان الأوّل باستثناء تلك المتعلّقة بأسلوب الحياة. إعتبر وبستر هذا الاختبار قضيّة مبدأ، إذ إنّ الرئيس هو مَن رشّحه وصادق على ترشيحه الكونغرس، وهو يدرك أنّ حياة الوكالة ومماتها في اختبار كشف الكذب.

كان وبستر موضوعًا متناقضًا في حدّ ذاته. فهو رجل قاس أحبّ دومًا أن ينادوه بالقاضي ليؤكّد على انفصاليّته عن الوكالة وعن إساءاتها في الماضي، وكان يحيط نفسه بجمع من المحامين الشباب اللامعين وكأنّه ما زال في قاعة المرافعات، وكان يرسل إلى أتباعه من المحامين والقضاة برسائل يوقّع عليها بالرمز "١٤ ــ ٠٠"، مضاعفًا رقم جيمس بوند السريّ كدلالة على أنّه الرئيس الرابع عشر لوكالة المخابرات المركزيّة.

بينما تراه، في الوقت نفسه، زير نساء عرف، منذ وفاة زوجته عام ١٩٨٤، كثيرًا من النسوة الجذّابات من لاعبات التنس والصحافيّات وغيرهنّ. وهو أيضًا كان لاعب تنيس قدير أدرك أن باستطاعة دبلوماسيّة هذه اللعبة أن تحصد دعمًا أكبر في واشنطن ممّا تقدر عليه الشهادة البلاغيّة أمام لجان الكونغرس. فلعب مع الجميع ابتداء من الرئيس جورج بوش الأب عندما كان نائبًا للرئيس. إلاّ أنّ وبستر لم يكن نموذج الرجل الذي تفضّل اصطحابه كي تحتسي معه الخمر. لقد مقت، بصفته مؤمنًا بالعالم المسيحيّ، الكحول برغم أنّه كان يحتسي أحيانًا كأسًا من النبيذ الأبيض في الحفلات. وهو لم يقصد طبيبًا قطّ وكذلك زوجته "دروسيلا" التي كانت من المؤمنات بالنصرانيّة أيضًا، وتوفيت بسرطان الثدي دون أن تتلقّى أيّ علاج طبيّ.

وفي عمله، لم يكن وبستر من الطراز الذي يخلع سترته كما يفعل الآخرون. لقد زرع خوفًا منه واحترامًا له. فذلك هو السبيل الذي أراد، أن يكون قاضيًا يقف بعيدًا عن المتقاضين وأن يقرأ كلّ المناشدات ويستمع إلى كلّ المجادلات، ولكنّه كان من يصدر القرار النهائيّ. إنّه نموذج الأسلوب الذي لا يتوقّع منه المرء أن يكسب الأصدقاء ويفوز لنفسه منهم بالوفاء، بل إنّه سينال على الأرجح إعجابًا تضمره الضغينة.

إتّكأ وبستر، شأنه شأن القضاة، على ما لديه من الكتبة المعروفين باسم المساعدين الخاصّين، ليغربلوا له المعلومات ويأتوه بآرائهم حولها. لقد كان لجميع مدراء وكالة المخابرات المركزيّة مساعدين خاصّين، لكنّ أيًّا منهم لم يرمِ حمله هكذا ثقيلاً عليهم. ولم ينتهج مثل هذه العمليّة المبرمجة بالنظر إلى القضايا ومن ثمّ اتّخاذ القرار بشأنها. إنّ وبستر قد اختار كتبته من محامين تقول خلاصة معلوماتهم إنّهم وُلدوا محامين. فجميعهم قد تخرّج بتقدير شرف أو امتياز من جامعات هارفرد أو يال أو كولومبيا. أراد وبستر من مساعديه أن يقرأوا المادّة ويتحقّقوا منها ويبحثوا فيها ومن ثمّ إبداء التوصية بشأنها. وأبعد من ذلك، أراد وبستر من مساعديه أن يتطلّعوا إلى المقترحات بعين ثاقبة كي يتحسّسوا، بصفتهم من خارج الوكالة، إن كانت تلك المقترحات ستعني شيئًا للشعب الأميركيّ. وعليه قرّر وبستر، كي يحقّق هذه الغاية، ألاّ يمكث معه مساعدوه سواء أكانوا من مكتب التحقيقات أم من الوكالة المركزيّة، أكثر من سنتَين، لظنّه أنّ هذا سيمنع عقولهم من أن تتشرّب البيروقراطيّة.

تولّى وبستر زمام القيادة في الوكالة بعد أسابيع من التعايش في مديريّاتها، وكان أوّل ما واجهه هو ذلك العداء الصارخ حيال الكونغرس. إنّها مفاجأة قاسية. لقد حثّه ضبّاط الوكالة على ألاّ يكون مكشوفًا مع الكونغرس. وقال أحد مساعديه القدامى "إنّ أكره ما لديه هو أن يرى الوكالة تزدري الكونغرس. فهو يرى ذلك سخافة وقذارة وليس في مصلحة الوكالة، وينمّ على وجود سلطة غير نظيفة. لقد ضاق ذرعًا من امتعاض الوكالة أن يشاركها الكونغرس ما لديها من معلومات".

غالبًا ما رفع وبستر صوته على أتباعه إن هم أغضبوه. بيد أنّ إمارة الغضب المشؤومة، تتجلّى عندما يصبح لون عينَيه أزرقًا فولاذيًّا وتثخن شفتاه حتّى ليبدو فمه

وكأنّه اختفى. لقد وقع ذلك بضع مرّات حين أفصح أنّه لا يطيق صبرًا لكلّ ما يتعدّى الصراحة النزيهة والتامّة.

من التغييرات التي أحدثها كيسي في الوكالة، بالإضافة إلى إرسائه دعائم مركزَي الاستخبارات المضادة ومكافحة المخدّرات، أنّه برمج بعض صيغ المصادقات على النشاطات السريّة. أوكلت، في الماضي، مهمّة دراسة مقترحات العمليّات السريّة والمراقبة عليها بلجنة تعرف باسم "مجموعة مراجعة النشاط السريّ". إلاّ أنّ موافقة اللجنة، على أيّ حال، كانت مجرّد موافقة روتينيّة. فهي توقّع على مقترحات تحمل باليد من مكتب لآخر. كما لم يرغب وبستر بأن يخفي النشاط السريّ لعلمه أنّه لن يستطيع ذلك وإن أراده. أمّا المقترحات ذات الطبيعة الهامّة فمنشؤها مجلس الأمن القوميّ والرئيس. وكلّ ما كانت تحتاجه الوكالة هو أن تعرف ماهيّة تلك السياسة قبل أن تفعل أدنى شيء. هذه المعرفة تتضمّن التساؤل حول إمكانيّة الشروع بهذا النشاط السريّ والشكل الذي سيتّخذه. ويقدّم البيت الأبيض ومجلس الأمن القوميّ المقترحات لوكالة المخابرات المركزيّة وعليها تنقية الموجة. إلاّ أنّ وبستر أراد أن يتأكّد دومًا من أنّ هذا المقترح أو ذاك قانونيّ وله جنيه من الثمار. وهو قد أراد أن يمرّ النشاط على مجموعة من الأسئلة منها: هل يقع هذا النشاط ضمن القانون الأميركيّ؟ ماذا يحدث لو تفشّى أمره للعامّة؟ هل سيتفهّم العامّة ذلك؟ وأخيرًا، هل سينجح؟

أعدّ مساعدو وبستر كتيّبًا يوجز برامج النشاط السريّ بتحليلات تخدم أغراضهم، كان الغرض منه أن يتاح أمام وبستر دليل مرجعيّ يحفظه في مكتبه ويعود إليه إذا طفق سؤال جديد يتحتّم الإجابة. أثارت الفكرة سخط مديريّة العمليّات التي أدركت بوجود هذا الكتيّب سببًا لتسرّب المعلومات. ولكن ما إن وصل الكتيّب إلى وبستر حتّى طمع كلّ فرد في أن ينال نسخة كدلالة زهو بما هو عليه من منصب. لكنّ

الكتيّب سُلّم إلى مدراء المديريّات والمستشار العام للوكالة المركزيّة والمفتّش العام لها فقط.

عندما كان وبستر يتهيّأ، في الساعة الواحدة من فجر الثاني من آب ـ أغسطس، للقاء ممثّلي أجهزة الاستخبارات في الشرق الأوسط، شعر بأنّ الوكالة قد أحسنت أداء في الدور المناط بها، بيد أنّه صُعق، في مستهلّ فترة تولّيه إدارة الوكالة في ٢٦ أيّار ـ مايو ١٩٨٧، لحقيقة أنّ بعضًا من موظّفي الوكالة قد فشلوا في أكثر من مناسبة في أن يخبروه الحقيقة، وهو قول لا يعني أنّ كذبهم كذب مباشر بل أنّهم كانوا جدّ حذقين في هذا الأمر. فكانوا يخبرونه نصف القصّة بإجابات دقيقة على أسئلته لكن ليس في الاتّجاه الذي ينشده وبستر، فأضلّوا عليه السبيل، بنفس الطريقة التي راوغ فيها بعض ضبّاط الوكالة مع المفتّش العام للوكالة ولجنة "تاور" التي عيّنتها الرئاسة للتحقيق في الدور الذي اضطلعت به وكالة المخابرات المركزيّة في فضيحة إيران ـ كونترا.

كما وجد وبستر أنّ طرق الوكالة في اتّخاذ القرارات كانت غير حصيفة، كما لم تتبع وسيلةُ التخطيط للعمليّات السريّة منهجيّةَ الحصول على الموافقة الرسميّة عليها. وفي المذكّرات الموجزة التي قدّمها بعض ضبّاط الوكالة إلى وبستر قبل أن يدلي بشهادته حول "كاتيل هيل" أدرج هؤلاء الضبّاط أسئلة مسبقة متوقّعة مع إجاباتها، أدرك وبستر أنّ معظمها لا يمثّل إجابة كاملة عن السؤال. كان هذا الموقف، في بعض حيثيّاته، متحفّظًا جاء به سلف وبستر ويليام كيسي، الذي طوّر إلى نظام فنّيّ مبدأ اللاإستجابة لإجراءات التحقيق.

أنشأت لجنة مجلس الشيوخ المختارة للاستخبارات نظام تجسيم صوتيّ خاصّ داخل غرفة الاستماع في مسعى لها لتمكين "كيسي" من أن يدمدم بلغة مفهومة. وما لم

يدركه أعضاء مجلس الشيوخ هو أنّه إذا أراد كيسي أن يفهموه تكلّم بصوت واضح. وهذا هو نوع من التبجحيّة الذي أوقع الوكالة في مطبّ فضيحة إيران ـ كونترا.

ليس ثمّة سبيل لتقييم أداء وكالة استخباريّة ما في تجنيد عملاء. وقد تعلّق الأمر بصدّام حسين. فقد تعثّرت وكالة المخابرات المركزيّة بحقيقة أنّ صدّام لا يسمح لغير أقاربه وأفراد عائلته وأصدقائه من الدخول إلى دائرته الداخليّة. فلم يشأ وبستر أن يمتطي ضبّاط وكالة المخابرات المركزيّة مخاطر غير ضروريّة في اختراق مثل هذا البلد في ذات الوقت الذي أيقن فيه بوجود أرض وسيطة لهذا الغرض ستجعل من جواسيس الوكالة عدوانيّين دون أن يتحوّلوا إلى رعاة بقر.

لقد أشار وبستر في حديثه مع موظّفي مديريّة العمليّات إلى أنّه لم يعترض قطّ على مقترحات النشاط السريّ أو العمليات الاستخباريّة الكبرى. دعم وبستر كثيرًا، خصوصًا بعد أحداث الكويت، تعلّم اللغات الأجنبيّة. وكي ينهض بعمليّة التدريب بشكل عامّ، سعى نحو ترقية الضبّاط الذين امتهنوا حرفة التعليم في الوكالة. كما أكّد على أهميّة كتابة التقارير عن القضايا الاقتصاديّة، وأراد اعتمادًا أكثر على الوكالة وأن تكون أكثر وضوحًا في تقاريرها. لقد مقت الألفاظ المركّبة وكره كلمة "يشعر"، إذ كان يقول: نحن لا ندفع أجورًا كي تشعروا، نحن ندفع كي تفكّروا".

إنّ المشكلة الكبرى التي واجهها وبستر في الوكالة هي حقيقة أنّ كلّ مديريّة كانت كأنّها إقطاعيّة لجماعة معيّنة، وأكثر ما ينطبق هذا القول على مديريّة العمليّات التي ساورتها دومًا الشكوك حول مديريّة الاستخبارات، التي امتعضت بدورها من فكرة أنّها لا تنال ثقة مطلقة. بينما استاءت مديريّتا الوكالة الأخريان من حقيقة أنّهما مغلقتان على نفسَيهما. إنطوت رغبة وبستر في هذا السياق على إلقاح تهجينيّ أكثر، وبدأ يطوف بالموظّفين حتّى يعمل واحدهم في مديريّتَين أو ثلاث خلال حياته العمليّة في الوكالة.

وكانت النتيجة أنّ أيًّا من المديريّات لم تكن توّاقة إلى أن تشاطرها الأخرى معلوماتها. هنا وجد وبستر ومساعدوه أن من النافع، برغم أهميّة السريّة، أن يعزّزوا الأهميّة الجماعيّة وأن يعيقوا الأعمال الفرديّة. لقد حجبوا عن المساعدين أحيانًا معلومات شعر المساعدون أنّهم بحاجة لمعرفتها.

قرّر وبستر أنّ المفتّش العام للوكالة غير مخوّل برسم سياساتها، وهي الحقيقة التي أكّدت عليها فضيحة إيران ـ كونترا.

كان هذا المنصب، تاريخيًّا، ملكًا لضبّاط الوكالة الودودين الذين هم في أواخر حياتهم العمليّة ولا يرغبون في أن يتركوا القارب. فإذا لم يتقبّل مدير المخابرات المركزيّة المفتّش العام أزاحه من منصبه.

عودة إلى عام ١٩٦٠، وبعد مراجعة مكتب الأمن، أوصى المفتّش العام أن على وكالة المخابرات المركزيّة أن تعد قصّة سريّة إذا ما افتضح أمر برنامجها السريّ بفتح البريد. إلاّ أنّ تقرير المفتّش العام لم يتطرّق البتّة إلى حقيقة أنّ البرنامج غير قانونيّ. شدّد وبستر على أهميّة عمل المفتّش العامّ حتّى قبل أن يبتدع الكونغرس هذا المنصب. وقد اختار وبستر "ويليام دونيلي" الضابط الشديد ذا الهيبة والذي عمل سابقًا مستشارًا له، ليشغل هذا المنصب.

في الوقت ذاته، لم يحبّذ وبستر الطريقة التي اقترحها الكونغرس. إذ ارتأت لجنة المراقبة، استجابة لفضيحة إيران ـ كونترا، أنّ يختار الرئيس نفسه الشخص الذي سيتولّى منصب المفتّش العامّ وأن يصادق عليه الكونغرس، وبذلك يكون قرار فصله من منصبه من صلاحيّة الرئيس فقط. كما أراد الكونغرس أن يطّلع المفتّش العام على التقارير التي يطّلع عليها المدير وأقسام الوكالة ذات النفوذ. وجد وبستر في المقترح عارًا على منصبه وأدائه. فهو مدير الوكالة وهو المسؤول عن خطّ سير الوكالة وفق

القوانين. إنّها قضيّة مسؤوليّة. فإن عجز عن أداء مهمّته، فعليكم أن تستبدلوه. لكنّه أصرّ على أن يكون ارتباط المفتّش العام المباشر به وليس بالكونغرس أو الرئيس. وأخيرًا خسر وبستر المعركة وسنّ الكونغرس تشريعًا بتأسيس مكتب مستقلّ للمفتّش العام في وكالة المخابرات المركزيّة. وكان أوّل مَن تولّى هذا المنصب، في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٩٠، هو "فريديريك هنتر" المحامي والضابط السابق في الوكالة، والذي كان من اختيار وبستر.

لم تمضِ سوى فترة قليلة على تبوّأ وبستر منصبه في وكالة المخابرات المركزيّة حتّى سارت الإشاعات الصحافيّة عن أنّه لن يمكث في هذا المنصب طويلاً، وأنّ بديلاً عنه على وشك أن يحلّ محلّه. وبالرغم من أنّ الرئيس جورج بوش الأب طلب من وبستر المضيّ في رئاسته للوكالة، استمرّ وابل الإشاعات يتزايد متّخذًا منحى آخر بادّعاء أنّ وبستر أخفق في أداء مهامه لاتهامه بممارسة هواية لعب كرة المضرب، وأنّ الرئيس بوش غير مقتنع بأدائه. كما لم تجد نفعًا حقيقة أنّ وبستر قد احتفظ بمنصبه لسنوات بعد تلك الإشاعات في أن تمنع تردّد أقاويل جديدة أشاعت أنّ الوكالة أخذت تحيد عن طريقها وأنّ البيروقراطيّة قد نخرت أساساتها، كما انهارت معنويات منتسبيها ولم يعد من صنيعها شيء يستحقّ الثناء عليه.

إنّ الهوّة بين إدراك العامّة وبين حقيقة الوكالة قد تشكّل استعارة مجازيّة للوكالة نفسها، لأنّها قد تكون الوكالة الحكوميّة الوحيدة التي لم تفهم العامّة إلاّ القليل من حيثيّاتها أو تكاد لا تفهمها أبدًا. وهذا هو الطريق الذي أراده لها مؤسّسوها أمثال ويليام دونوفان وألن دالاس وجون ماكون وريتشارد هيلمز، الذين أطبقوا على أسرار وكالتهم بكلّ فخر بصنيعهم هذا، دون أن يواجهوا أيّ خلاف مع إدارة منظّمة استخباريّة سريّة داخل مجتمع حرّ، ولم يجدوا مبرّرًا ليدعوا عامّة الشعب الأميركيّ يطّلع بأسرارهم.

فكلّ ما تحدّثوا به إلى الشعب الأميركيّ هو أنّهم قطعوا عهدًا بأنّهم رجال نبلاء وهبوا أنفسهم لخدمة الأمّة. كما تعهدّت الوكالة، في عصرها الأوّل، بألاّ تجيب لغير الرئيس على أيّ سؤال. إنّها تملك روحيّة ومعالجة كلّ قضيّة في عهد شعرت فيه الولايات المتّحدة بخطر التقدّم التسلحيّ للاتّحاد السوفياتيّ وخطر الحرب الباردة المحدقين بها[1].

---

١ ـ كيسلل، داخل السي أي أي، ص١١ ـ ١٣، ٢٥٦ ـ ٢٦٦.

من مآثر المخابرات السوفياتيّة

فليكس دزرجنسكي مؤسّس التشيكا السوفياتيَّة

أنشئت التشيكا في العشرين من كانون الأول ـ ديسمبر ١٩١٧، وتعتبر بمثابة السلف للـ K.G.B. فعندما أسس هذا الأخير عام ١٩٥٤ اعتمد رمز التشيكا أي السيف والترس. الترس للدفاع عن الثورة والسيف لضرب الأعداء. لكن في الوقت الذي فر فيه غورديفسكي كانت بطاقة انتسابه إلى الـ K.G.B تشير فقط إلى الترس بعد أن شطب السيف في محاولة لمحو سمعة التشيكا المشهورة بالقسوة وعدم الرحمة. وبقي ضباط الـ K.G.B إلى النهاية يعتبرون أنفسهم من رجال التشيكا ويستلمون مرتباتهم في العشرين من كل شهر إحياءً لذكرى اليوم الذي شهد ولادة هذا الجهاز.

لم يكن مقدرًا للتشيكا في البداية أن تكون أكثر من ذريعة على غرار تطبيق مبدأ الضريبة على الدخل في المملكة المتحدة عام ١٧٩٩. ولم يكن ليخطر على بال لينين أنها ستصبح بسرعة أضخم شرطة سياسية وأوسع جهاز للاستخبارات في العالم، فهو لم يشعر بأي حاجة لذلك قبل الثورة البولشفية في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩١٧ (السابع من تشرين الثاني ـ نوفمبر بحسب التقويم الغريغوري الذي اعتمد لاحقًا في الاتحاد السوفياتي). وبعد شهرين من إطاحة ثورة شباط ـ فبراير للاستبدادية

القيصرية، عاد لينين إلى بتروغراد (التي أعيد تغيير اسمها وأصبحت لينينغراد منذ ذلك الحين) وحيّا مجيء الثورة العالمية. وكانت نيّة البولشفيك خلق حركة ثورية عالمية لإغراق الرأسمالية. وكانوا يعتقدون أن النظام العالمي الجديد المزمع قيامه بعد النصر لن يحتاج إلى الدبلوماسيين التقليديين ولا إلى الجواسيس. وكان ليون تروتسكي قد أعلن بعد انتصار الثورة وبصفته مفوض الشعب للشؤون الخارجية: "سألقي ببعض البيانات الثورية لشعوب العالم ثم أغلق فمي". كما أمر بنشر الاتفاقات السرية المعقودة بين روسيا القيصرية وحلفائها. وأعلن: "أنّ إلغاء الدبلوماسية السرية هي الشرط الأول لبناء سياسة خارجية نزيهة شعبية وديمقراطية عن حق!"[١].

كانت لدى لينين منذ ما قبل ثورة ١٩١٧ نفس الرؤية الطوباوية لروسيا البولشفية. ففي كتابه "الدولة والثورة" الذي ألفه في صيف ١٩١٧ أكد أنه لن يكون فيها أي مكان لقوى الشرطة فكيف بالشرطة السرية. واعترف أن عملية الانتقال من الرأسمالية إلى الشيوعية ستستلزم على الأرجح "تصفية الأقلية المؤلفة من الاستغلاليين على يد الأكثرية المؤلفة من العبيد، أجَراء البارحة". وستكون هذه التصفية سهلة نسبيًا لأنه "بطبيعة الحال سيعجز الاستغلاليون عن سحق الشعب من دون اللجوء إلى آلية بالغة التعقيد للوصول إلى ذلك، بينما يستطيع الشعب أن يلغي الاستغلاليين أنفسهم بآلية واحدة بسيطة وحتى من دونها ومن دون أي جهاز خاص بل ببساطة عبر تنظيم عملية تسليح الشعب".

وسيمارس الشعب عدالته الطبيعية في الشارع بحسب ما تقتضيه الحاجة. لكنّ ثورة تشرين الأوّل ـ أكتوبر ولدت عالمًا مختلفًا، بوضوح، عن الرؤية المثالية المدونة

---

١ - Carr E. H., *The Bolshevik Revolution 1917-1923,* (Londres,1953), T. III, ch. 21.

في كتاب "الدولـة والثـورة". وكـانت الأسـطورة الشـيوعية تقـول بـأن البولشـفيك بحكم كونهم "طليعة البروليتاريا" قادوا انتفاضة شعبية عبّرت، ليـس فقـط عـن إرادة الأفـراد، ولكن عن الشعب الروسي بأكمله. هذه الأسطورة إذن كانت حيويـة لمشـروعية الدولـة السوفياتية القائمة لتوها. لكن حقيقة ثورة تشرين الأوّل أكتوبر والتي لم يقبل أو يعترف بها لا لينين ولا ورثته هي أنها انقلاب على رأس الدولة قامت به أقليـة ضـد الحكومـة المؤقتة المحتضرة التي خلفت النظام القيصري.

بفضل معارضتهم وقلبهم لحكومة غير شعبية استمال البولشفيك الجماهير لكنهم لـم يكسبوا الأكثرية. فخلال انتخابات الجمعيـة التأسيسـية لمرحلـة مـا بعـد الثـورة اسـتطاع منافسوهم الرئيسيون فـي اليسـار أي الاشـتراكيون الثوريـون (SR) الحصـول علـى الأغلبية المطلقة بينمـا لـم يحصلـوا هم إلا علـى ربـع الأصـوات. ورغـم تحـالفهم مـع الثوريين الاشتراكيين اليساريين (الجناح اليساري في الـ SR) بقوا أقلية، عندما التـأمت الجمعية في كانون الثاني ١٩١٨ أمر البولشفيك بحلها.

وكانت المعارضة للحكومة البولشـفية الجديـدة، أي مجلـس مفوضـي الشـعب، فـي روسيا أم في الخارج، أقوى مما توقعها لينيـن. فاستنتج أنـه لا بـد مـن "جهـاز خـاص" للتغلب عليها. وقد كان المسؤولون البولشفيك ينعتون منذ البدايـة كـل معارضـة ومهمـا كانت جذورها الاجتماعية بالثورة المضادة، إذ كـانوا مقتنعيـن أنهـم وحدهـم المؤتمنـون على الحكمة الماركسية. وفي الرابع من كانون الأول ـ ديسمبر قرر المجلس العسـكري الثوري تأليف "لجنة مكافحة الثورة المضادة والتخريـب" برئاسـة فليكـس دزرجنسـكي. وفي ١٩ كانون الأول ـ ديسمبر، بعد ورود معلومـات مقلقـة عـن إضـراب عـام وشيك لجميع موظفي الدولة، قرر "السوفناركوم" برئاسة لينيـن اسـتخدام وسـائل أكـثر قمعيـة. وكلف دزرجنسكي "بتأليف لجنة خاصة لدرس إمكانية مكافحة أحـزاب كهـذه بالوسـائل

الثورية الأكثر حزمًا". وفي اليوم التالي في العشرين من كانون الأول كتب لينين إلى دزرجنسكي "أن البورجوازية مصممة على ارتكاب جرمها الأكثر فظاعة". وأعلن دزرجنسكي أمام السوفناركوم مساء اليوم نفسه: "لا تعتقدوا أنني أبحث عن أشكال لعدالة ثورية، إننا لسنا بحاجة إلى العدالة اليوم... إننا في خضم معركة عنيفة وصراع حتى الموت، إلى النهاية! انني أقترح بل أطالب بتنظيم عملية قمع ثورية لعملاء الثورة المضادة".

وافق السوفناركوم على تأليف اللجنة الاستثنائية لعموم روسيا لمكافحة الثورة المضادة والتخريب برئاسة دزرجنسكي وقد اشتهرت أكثر تحت اسم تشيكا[١].

في وقت لاحق، اعتُبر دزرجنسكي محور الحملة الحقيقية لعبادة الشخصية من تنظيم الـ K.G.B التي تغدق عليه سيلاً من المديح لم يحظ به أي من خلفائه الذين عُرفوا بأغلبيتهم الساحقة كأسوأ المجرمين. ويكتب عنه المؤرخ السوفياتي البروفسور "ف. أندريانوف" قائلاً "إنه فارس الثورة. لقد استحق العديد من الناس هذا اللقب أيضًا... لكن إذا قيل هذا في أي عصر من العصور فإننا نفكر أولاً بـ"فليكس أدموندوفيتش دزرجنسكي". لقد مهدت حياته البطولية الطريق نحو الخلود".

ومثل أغلبية من ترأسوا التشيكا في بدايتها لم يكن فليكس دزرجنسكي من أصل روسي. فقد ولد من عائلة بولونديّة ميسورة من أهل الفكر وملاكي الأراضي. اعتقد في شبابه أن مستقبله في الأسقفيّة، لكنّه بعد اعتناقه الماركسية خلال دراسته انضم في العام ١٨٩٥ إلى الحزب الثوري الديمقراطي الليتواني. وبعد سنة ترك الدراسة

---

١ - Leggett George, *The Cheka: Lenin's Political Police*, Oxford University Press (Oxford,1981), ch. 1.

"للتقرب من الشعب والتعلم منه". وأصبح طبقًا لأقواله "محرّضًا يستميل إلى أفكاره أناسًا لم يكن يدري شيئًا عن أوضاعهم وذلك خلال السهرات في الحانات وأينما التقى العمال". كما كان أيضًا "العدو الأكثر شراسة للنزعة القومية"، وفي ١٩٠٠ أحد الأعضاء المؤسسين للحزب الديمقراطي الاشتراكي العمالي لمملكة بولندة وليتوانيا (PSDRPL) الذي ترأسته "روزا لوكسمبورغ"، التي كانت تقود حملة لصالح البروليتاريا العالمية ولتتعاون مع الماركسيين الروس وليس فقط من أجل بولوندة مستقلة. وقد كان مفهوم التسوية غريبًا عن دزرجنسكي. فكتب سنة ١٩٠١ "في الحب والكراهية لا تعرف نفسي أنصاف الحلول، فإمّا هذا أو ذاك". ومنذ انخراطه في الثورة في روسيا القيصرية وفي بولندة لم يذق طعم الحرية لأكثر من ثلاث سنوات متواصلة. فقد أوقف للمرة الأولى عام ١٨٩٧ بعد وشاية عامل شاب أغرته روبلات الشرطة العشر، لتنتهي حياة الاعتقال هذه بعد اثني عشر عامًا عندما تم تحريره من سجن موسكو بعد ثورة شباط ـ فبراير، وكان مجموع ما أمضاه بين الاعتقال والنفي والأشغال الشاقة أحد عشر عامًا فرّ خلالها ثلاث مرات، ومنذ إخلاء سبيله انضم دزرجنسكي في البداية إلى صفوف البولشفيك كمندوب عن الـ PSDRPL ثم انتخب خلال مؤتمر الحزب، في الصيف، عضوًا في اللجنة المركزية ولعب دورًا حاسمًا في ثورة أكتوبر.

وخلال السنة الأولى لاستلامه مهامه على رأس التشيكا كان دزرجنسكي يعمل ويأكل وينام في مكتبه في اللوبيانكا. وقد اشتهر بلقب "فليكس الحديدي" لقدرته على الاحتمال وصرامة نمط حياته. وقد أثنى في ما بعد "فيودور فومين" أحد رجال التشيكا القدامى على رئيسه الذي كان يظهر الاحتقار لأي امتياز كان يمكن أن يفرقه عن مرؤوسيه. ويتابع فومين "وكان مفوض عجوز يحضر له وجبة الأكل من قاعة الطعام

التي كان يأكل فيها جميع عاملي التشيكا، وكان المفوض يحاول أحيانًا أن يحسن الطعام بإضافة أشياء أطيب مذاقًا... فكان فليكس ينظر بسرعة إلى صحنه ويسأله: هل حظي الجميع بالطعام نفسه هذا المساء؟ فكان يجيبه بعجل "أجل الجميع، الجميع أيها الرفيق دزرجنسكي!"[١].

وكان دزرجنسكي مثل لينين رجلاً مكدًا في العمل، نزيهًا، وعلى استعداد للتضحية بحياته وحياة الآخرين في سبيل الثورة. وقال في آخر خطاب له "إن قوتي تكمن في عدم مهادنتي لنفسي على الإطلاق". وبعد وفاته ارتدت مآثره طابعًا ملحميًا وجرى تعظيمه إلى درجة حولته إلى كاريكاتور فظ لقديسي القرون الوسطى. فوفقًا لشهادة "فيكتور تشيبريكوف" رئيس الـ K.G.B بين عامي ١٩٨٢ و١٩٨٨ "حاول فليكس ادموندوفيتش بكل قواه أن يمحو الجريمة والظلم من على سطح الأرض وحلم بعصر تزول فيه الحروب والعداوات القومية إلى الأبد. وعاش حياته كلها منسجمًا مع شعاره "بودّي أن أغمر الجنس البشري كله بحبي لإحاطته بالدفء من قذارة الحياة العصرية".

ولم يكن "القديس فليكس" ليستحسن كثيرًا تأبين "تشيبركوف" المضحك برداءته إذ إنه لم يحالفه الحظ بالتمتع بروح المرح كمزية من بين مزاياه العديدة. إلا أنه في سنوات ثمانينات القرن العشرين كانوا يعتبرون أن الرجال "ذوي النزعة الإنسانية الأبوية"، مثل، دزرجنسكي لم تكن تنقصهم الأحاسيس الرقيقة. لذا ألح تشيبريكوف وبكل جدية، على أن سلفه الوقور لم يكن "ذلك الشخص المتقشف كما ظن البعض بل كان محبًا للحياة في كافة أشكالها وبكل غناها وتنوعها وكان غالبًا ما يمزح ويضحك ويستذوق الموسيقى والطبيعة".

---

١ - Fomine Fédor Timofiëevitch , *Zapiski Storogo Chekita,* Politizdat (Moscou, 1964).

وكانت هالة الإجلال قد بدأت تحيط "بالقديس" فليكس في الـ K.G.B غداة وفاته عام ١٩٢٦. ففي صالة اجتماعات المطعم العسكري وضع مثاله بالبزة العسكرية في صندوق زجاجي وكان يتألف من قناع الموت وقالب ليديه. وكان مبدأ التكريم هذا متشابهًا لذلك الذي قضى بوضع جثمان لينين المحنَّط في ضريحه وسط الساحة الحمراء. ولم تتعرض سمعة دزرجنسكي للتجريح أثناء الحقبة الستالينية. إلا أن الأبواق المروجة لعبقرية "الأب الصغير للشعوب" حجبته تدريجيًا. وبمناسبة الذكرى العشرين لتأسيس التشيكا الموافق في العشرين من كانون الأول ديسمبر ١٩٣٧ أطري على "البولشفي الذي لم يكل وفارس الثورة الذي لم ينثن" وقيل أيضًا "تحت قيادته استطاعت التشيكا أن تتخطى مرارًا الأخطار المميتة المحدقة بالجمهورية السوفياتية الفتية". لكن مع تعاظم سلطة ستالين أضحت صور دزرجنسكي أصغر حجمًا وأكثر ندرة. وبعد الحرب العالمية الثانية بقليل سحب مثاله من القاعة في المطعم العسكري لضباط الـ K.G.B ويبدو أنه أُتلِفَ.

وكان انبعاث الإجلال نحو دزرجنسكي وانتشاره في ستينات القرن العشرين نتيجة لحملة إزالة آثار الستالينية، وبالنسبة للـ K.G.B المرتبط اسمه بفظائع رهيبة وسيلة لتحسين صورته عبر إعادة خلق ماضي أسطوري من بين أبطاله القديس فليكس "فارس الثورة" الذي صرع تنين الثورة المضادة. وكان قول دزرجنسكي الأكثر شيوعًا في كتابات الـ K.G.B ذلك الذي يؤكد فيه على مزايا رجل التشيكا فيقول "قلب دافئ، رأس بارد ويدان نظيفتان". وأقيم له أواخر خمسينيات الفقرن العشرين تمثال ضخم أمام مقر الـ K.G.B ووسط الحديقة التي تحمل اسمه أيضًا. وأصبح موضع التكريم الأساسي في المديرية العامة الأولى هو تمثال نصفي لدزرجنسكي موضوع على قاعدة من رخام مزدان دائمًا بأزهار جديدة. ويتعين على كل ضابط من الضباط الشبان في

المديرية خلال السنوات الأولى لتدريبه أن يضع في وقت من الأوقات باقة ورد أو إكليلاً ثم يقف في وضعية التأهب منكّس الرأس بصمت مثل المحاربين القدامى أمام ضريح الجندي المجهول. وكانوا ينجحون عبر هكذا طقوس في تدعيم ثقتهم بأنفسهم والتخلص ولو جزئيًا من الذكرى غير البراقة للروابط المتينة التي كانت تجمعهم بالـ NKVD أيام ستالين.

قبل أن تقرر روسيا السوفياتية ترتيب وتنظيم جمع المعلومات في الخارج كانت منخرطة ومنذ وقت طويل في برنامج طموح للعمل السري خارج أراضيها. وبينما كانت التشيكا تقوم بحماية النظام البولشفي من مجموعة من المؤامرات الحقيقية والوهمية، المزدهرة على الأراضي الروسية خلال الحرب الأهلية، كان نشاط العملاء المندسين في الخارج يهدف أولاً وأخيرًا إلى توسيع رقعة انتشار الثورة. لكن التشيكا لم تكن المسؤولة عن تنظيم الجزء الأكبر من العمل السري بل كان الكومنترن يقوم بذلك، أي الأممية الشيوعية، التي كان طابعها السوفياتي غالبًا، وكانت اللجنة المركزية (CEIC) للكومنترن تطمح أن تكون "مجلس القيادة العام للثورة العالمية".

وبعد تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩١٧، كانت الإدارة البولشفية بمجملها تأمل باستمرار أن تنتشر الثورة في أوروبا لتعم من بعدها أرجاء الكرة الأرضية. وقد بلغ انتظار لينين المحموم ذروته بعد انهيار الامبراطوريات في وسط أوروبا خلال المراحل النهائية للحرب على الجبهة الغربية. فكتب في الأول من تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩١٨ قائلاً: "

في غضون أسبوع أمكننا القول بأن الثورة العالمية باتت قريبة جدًا ولذا فبإمكاننا توقع اندلاعها خلال أيام... سنضع حياتنا جميعًا في الميزان من أجل مساعدة العمال الألمان على تفعيل الثورة الوشيكة في ألمانيا"

وفـي التاسـع مـن تشـرين الثـاني ـ نوفمـبر، أي قبـل يوميـن مـن الهدنـــة، أُعلنــت الجمهورية في ألمانيا وتم تشكيل مجالس للعمال والجنـود علـى النمـط السـوفياتي. لكـن آمال لينين خابت بسرعة. ففي شهر كانون الثـاني ـ ينـاير ١٩١٩، تـم سـحق انتفاضـة سكان برلين المدعوة سرًا من قبـل الحـزب الشـيوعي الألمـاني (KPD) المنشـأ حديثًـا، وقُتـل زعيمـاه البـارزان روزا لوكسمبرغ وكـارل ليبكنخـت بوحشـية علـى يـد ضبـاط محافظين. وإن أدت هذه الجرائم من جهة إلى إطاحة المشروع غير الواقعي للـ KPD الذي يطمح إلى الحلول مكان الحزب الديمقراطي ـ الاشـتراكي (SPD) كـأبرز حـزب يساري، فإنها سمحت لموسكو، من جهة أخـرى، أن تفـرض منطقهـا كمـا تريـد. إذ إنّ "روزا لوكسمبرغ"، كانت قبل موتها وجهًا ماركسـيًّا متشـددًا، وهـي لـم توفـر انتقاداتهـا للنظام البولشيفي متهمة لينين بالسعي إلى فرض الديكتاتورية على البروليتاريـا، وليـس إلى تحقيق ديكتاتورية البروليتاريا. وكانت ربما الشيوعية الأجنبية الوحيدة القادرة على مواجهته الند للند، غير مكتفية بإبداء معارضة لفظية لعمليــة تحويـل الأمميـة الشـيوعية إلى مجرد أداة في خدمة السياسة الخارجية السوفياتية[١].

وكان المؤتمر التأسيسي للكومنترن الذي عقد في موسكو بداية شهر آذار ـ مـارس ١٩١٩ أعطى بشكل خاص مثالاً جيدًا للإخراج المسرحي الثوري. فقد حضر المؤتمـر خمسة مندوبين أتوا من الخارج. أما الباقون فقد اختارتهم اللجنة المركزية البولشفية من بين جموع الانصار الأجانب المقيمين في موسـكو. وكـان البعـض مـن هـؤلاء لـم تطـأ أقدامه البلد الذي كان مفترضًا فيه تمثيله، كما كان هنالك مندوبون لأحزاب لم تكـن قـد تأسست بعد. إنما في نظر أغلبية اليسار الأوروبي لم تكن هذه الاعتبارات التقنيـة ذات

---

١ - Nett J.P., *Rosa Luxemburg*, vol. 2 (Londres,1966).

أهمية تذكر. فبالنسبة للعديد من المناضلين التقدميين تحولت موسكو إلى "قدس" جديدة اشتراكية وزادت ولادة الكومنترن من حماسهم. وقد عبر الشيوعي الفرنسي لودوفيك أوسكار فروسار عن رأي العديد منهم عندما كتب:

"روسيا الواقفة في وجه عالم مليء بالأعداء، مكابدة الجوع وسط الفوضى والاضطرابات، روسيا هذه، كافحت من أجل بناء أرض يسودها العدل والانسجام... تلك الأرض التي حلمنا بها جميعًا. انتصرت الاشتراكية في روسيا فيما بقيت في كل مكان آخر مكروهة وخارجة على القانون. إن اشتراكيي روسيا تحركهم الإرادة الصلبة يحققون ما حلم وخطط وأمل بتحقيقه اشتراكيو العالم أجمع. ومن فوق الأمبراطورية السابقة للقياصرة يرفرف علم الأممية الأحمر... إلى غير رجعة استغلال الإنسان للإنسان! لقد خُنقت الرأسمالية أخيرًا وصُرعت وتعرّت!... فإلى الأمام! إن الجنس البشري ليس محكومًا عليه فلقد بزغ نهار جديد فوق روسيا!"[1].

وقد استشعر بعض رجال الدولة الغربيين من أن إيمان الكومنترن بقدوم الثورة العالمية سيجلب لهم المتاعب. فبعد انتهاء المؤتمر بخمسة عشر يومًا كتب لويد جورج إلى رئيس الوزراء الفرنسي كليمنصو منبهًا: "إن أوروبا كلها ملأى بالروح الثورية... إن النظام القائم بأكمله وبمختلف أوجهه السياسية والاجتماعية والاقتصادية يخضع لإعادة النظر من قبل السكان في كافة أرجاء أوروبا".

وخلال بضعة أسابيع صاخبة بدا أن الثورة بدأت بالانتشار من دون أن يكون الكومنترن قد باشر بتصديرها. فقد قامت جمهوريات سوفياتية في كل من هنغاريا في

---

1 - Lazitch Branko et Drachkovitch Milorad M., *Lemin and the Comintern*, vol. I, Hoover Institution Press (Stanford,1972), pp. 214-215; Kuusinen Aîno, *Before and After Stalin* (Londres,1974), pp. 35-36.

الواحد والعشرين من آذار ـ مارس، وبافاريا في السابع من نيسان ـ إبريل، وذلك من دون أي تحريض من موسكو. فاستنتج زينوفييف رئيس الكومنترن بأن أوروبا كلها ستصبح شيوعية في أقل من سنة. لكن البولشفيك كبتوا غيظهم عندما شهدوا عاجزين انهيار مجلس السوفيات في بافاريا بعد أن أطاحت به في أقل من شهر قوات الجيش النظامية والفرق غير النظامية وكذلك إسقاط الجمهورية السوفياتية في هنغاريا على يد الجيش الروماني في شهر آب ـ أغسطس.

وفي تشرين الأول ـ نوفمبر ١٩١٩، أقام الكومنترن مركزين أماميَّين سرِّيَّين في أوروبا الغربية من أجل دعم توسيع الثورة. الأول كان سكرتارية أوروبا الغربية (SEO) ومقره برلين، والثاني المكتب الغربي ومقره أمستردام. وتولى إدارة الأول "ياكوف رايخ" المعروف باسم "الرفيق توماس"، والثاني "سيبالد روتجرز"، وقد اختارهما لينين شخصيًا. ولم يشأ هذا الأخير انتقاء شخصيات ألمانية أو هولندية معروفة لأنها قد تبدي بحكم شهرتها بعض الاستقلالية عن موسكو. وشرح لينين لكل واحد منهما أهداف مهمته السرية وأوجهها المالية والاتصالات الأولية الواجبة. لكن سرعان ما أصبح المكتب الغربي في أمستردام موضع مراقبة الشرطة. وبعد يومين من انعقاد المؤتمر السري الأول في شباط ـ فبراير ١٩٢٠ اكتشف المندوب الروسي "ميخائيل بورودين" في شقة مجاورة للمقر، رجال شرطة هولنديّين كانوا يقومون بتسجيل المداولات على جهاز إملاء. فأسرع ليندر زملاءه، لكن الشرطة تمكنت من توقيف كلّ المندوبين الذين أُطلق سراحهم بعد فترة، وعاد الفريق البريطاني إلى بلده من دون أموال الكومنترن الموعودة. وفي نيسان ـ إبريل ١٩٢٠ أُلغي المكتب الغربي.

سكرتارية أوروبا الغربية (SEO) في برلين عرفت مصيرًا أفضل. فقد أقام "الرفيق توماس" شبكة متطورة كان يرسل عبرها الرسائل إلى موسكو وغيرها من

البلاد بفضل جوازات دبلوماسية. كما كان يزود المناضلين الشيوعيين بهويات مزورة ويغدق الأموال على الأحزاب في ألمانيا وباقي دول أوروبا. وبما أن الشرطة لم تكن تركز اهتمامها كثيرًا على النساء فقد قمن بدور الرسل. وكانت من بينهن شقيقة "جوزيف أنسشليخت" الذي أصبح في نيسان - إبريل ١٩٢١ مساعد دزرجنسكي. وقد برهن توماس عن مهاراته التقنية عندما استأجر طائرتين وباخرة من أجل نقل مندوبين مزودين جميعهم بهويات مزورة وجوازات دبلوماسية إلى بتروغراد لحضور المؤتمر الثاني للكومنترن[١].

أقرّ هذا المؤتمر واحدًا وعشرين شرطًا وضع معظمها لينين وفرضت على أعضائه نظامًا عسكريًا حقيقيًا. فطلب من جميع الأحزاب الشيوعية العمل بشكل شرعي أوغير شرعي "وخلق تنظيمًا موازيًا غير شرعي لكي يساعد في اللحظة الحاسمة الحزب على القيام بواجبه تجاه الثورة"[٢]. وأعلن "كارل رادك" أحد الأعضاء الروس في اللجنة المركزية للكومنترن (CEIC) أنه "بما أن روسيا هي الدولة الوحيدة التي استولت فيها الطبقة العاملة على السلطة فإن على عمال العالم أجمع أن يعتبروا أنفسهم وطنيين روسيين"[٣]. فأيده في ذلك العديد من الشيوعيين الأجانب. واتهم الحزب العمالي في انكلترا أعضاء الحزب الشيوعي البريطاني بأنهم "عبيد موسكو على الصعيد الفكري". لكنها كانت عبودية إرادية ارتضوها بكل بهجة. وكتب المندوب البريطاني الأكثر انتقادًا لمؤتمر الكومنترن بعد رجوعه من بتروغراد: "من الواضح أن

---

١ - Lazitch et Drachkovitch, *Lenin...*, Vol. I, pp. 182-198.

٢ - Degras, The Communist International, 1919-1942 Documents, Oxford Jane University press, vol. I (Londres,1956) pp. 166-172.

٣ - Hosking Geoffrey, *A History of the Soviet Union,*, Fontana (Londres,1958), p. 101.

روسيا لم تعد بالنسبة للعديد من الشيوعيين مجرد موضع استلهام بل أصبحت قدس الأقداس مطلوب الخشوع أمامها مثلما يفعل المسلم المؤمن عندما يصلي باتجاه القبلة في مكة"[1].

وأعلن "زينوفييف" أن المؤتمر لا يملك فقط الحق بل يتوجب عليه التدخل في شؤون الأحزاب المنضوية في الكومنترن وتلك التي ترغب بالانضمام". وكانت الأدوات الرئيسية لهذا "التدخل" ممثلي الكومنترن لدى الأحزاب والمجموعات الشيوعية الأعضاء. وكتب بول ليفي رئيس الـ KPD والمسؤول عن البعثة الألمانية، عام ١٩٢١ بعد انفصاله عن الكومنترن "لم يعمل هؤلاء الممثلون مطلقًا مع إدارة الأحزاب بل دائمًا خفية ومن وراء ظهرها. وكانوا يتمتعون بثقة موسكو على عكس الحزبيين المحليين... وكانت اللجنة المركزية للكومنترن تتصرف في الخارج كما تتصرف التشيكا داخل روسيا".

وكانت "عيون موسكو" المعتمدة لدى الأحزاب حاضرة في اللجان المركزية، وكانت، بالإستناد إلى "الرفيق توماس"، ترسل تقارير يقرأها فقط لينين و"المكتب المصغر" للكومنترن، أي المكتب السياسي. وكان هؤلاء المندوبون يعملون في الخفاء كرجال ظل عبر التسبب بانشقاقات داخل الأحزاب الاشتراكية أدت لاحقًا في فترة ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ إلى نشوء أحزاب شيوعية جديدة في فرنسا وإيطاليا وتشكوسلوفاكيا وغيرها من الدول. وقد احتج الفرنسي أندريه لوتروكيه خلال مؤتمر تور عام ١٩٢٠ والذي شهد ولادة الحزب الشيوعي الفرنسي قائلاً: "بالرغم من أنني أرغب بالانضمام

---

١ - Pelling Henry M., *The British Communist Party,* A et C. Black, (Londres,1975) pp. , 17-18, 29.11

إلى الأممية الثالثة (الكومنترن) إلاّ أنني لا يمكنني القبول بالمراقبة الخفية التي تمارسها عادة والتي ألحظ وجودها داخل هذا المؤتمر نفسه".

وقد حاول مبعوثو الكومنترن أيضًا أن يفرضوا على الأحزاب الشيوعية المحلية أساليب التآمر التي كان البولشفيك قد اختبروها أيام العهد القيصري. وكانت إحدى أبرز مهمات هؤلاء المبعوثين تحرير الأموال إلى الأحزاب الشيوعية والصحافة المؤيدة للسوفيات تحت شكل مجوهرات وأحجار كريمة مصادرة من أرستقراطية وبورجوازية العهد السابق. وكان النبلاء الروس المنفيون في باريس وغيرها من العواصم الأوروبية يعتقدون، والأرجح عن خطأ، أن ما يرونه أحيانًا في واجهات محلات المجوهرات هو من بقايا التاج الامبراطوري[1]. وذكرت فيما بعد الشيوعية الفنلندية "أنيكوسنين" زوجة "أوتوكوسنين" سكرتر عام الكومنترن ابتداء من سنة ١٩٢١ كيف مول زوجها مهمة سرية إلى لندن قام بها شيوعي فنلندي آخر يدعى "سالمي بيكالا" فقالت: "فجأة أخرج كوسنين أربع قطع ماس كبيرة من جيبة صدرية ووضعها أمامنا قائلاً: "كل واحدة منها تساوي أربعين ألفًا". ولا أستطيع أن أتذكر إلى أي تسعير كان يقصد عندما ذكر هذا الرقم ثم ناول زوجة بيكالا الماسات قائلاً بابتسامة: "إليك قليلاً من المال لتكاليف السفر".

وكان هنالك ناقل آخر من عادته تهريب المجوهرات إلى انكلترا وهو "فرنسيس مينال" المدير الشاب لليومية الاشتراكية "دايلي هيرالد". واستطاع الإفلات من عدة محاولات للقبض عليه لدى عودته إلى إنكلترا. وخلال إحدى "رحلاته" أخفى صفين من اللؤلؤ داخل علبة زبدة دانماركية. وفي إحدى المرات بعث بالبريد علبة كبيرة

[1] - Poretsky Elizabeth, *Our Own people,* Oxford University Press (Londres,1969) p.53.

ومكلفة من الشوكولا المحشوة تحتوي كل قطعة منهــا علـى لؤلـؤة أو حجـر كريـم إلـى صديقه الفيلسوف "سيريل غواد"، الذي اشتهر فيما بعد كمقدم للبرنــامج الإذاعـي "بريـن ترنست" على موجات الـ BBC، ولدى عودة مينال إلى لنـدن استجوبه السكوتلانديارد وفتشه ولكن من دون جدوى. وبعدها بيومين استرجع مينـال وزوجتـه علبـة الشـوكولا المحشوة وأمضيا ساعة في أكل محتوياتها لكي يجدوا المجوهرات المخبأة داخلها[١]".

وأدت الخفة التي ميزت أحياناً طريقة استخدام جواهر التاج الروسي لتمويل الثورة العالمية إلى وقوع عمليات اختلاس خطيرة. ففي العام ١٩١٩ كُلف المدعو "بوردويـن" نقل مجوهرات مخبأة في بطانة حقيبتي جلد إلـى الشـيوعيين الأمـيركيين. ولخوفـه مـن المراقبة أثناء السفر عهد أمر الحقيبتين إلـى شـخص نمسـاوي تعـرف عليـه علـى متـن الباخرة بعد أن وعده هذا الأخير بتسليمها إليه في شـيكاغو ولكنـه لـم يفعـل أبـدًا. فظـل بورودين موضع شك رؤسائه لمدّة. ..

وخلال السنوات الأولى والثانيـة مـن عمـر الكومنـترن لـم يتجـاوز برنـامج عملهـا السري نطاق إصدار التعليمات وتمويـل الثوريـين الأجـانب. وفـي العـام ١٩٢١ قـامت الكومنترن بالمحاولة الأولى لإشـعال ثـورة فـي ألمانيـا. وجـاءت المبـادرة الأساسـية لـ "عملية آذار - مارس" من "بيلاكون"، وكان الشيوعي الأجنبي الأكثر شهرة، ومن قدمـاء ثورة تشرين الأول - أكتوبر ورئيس الجمهوريـة السـوفياتية التـي لـم تعمـر طويـلاً فـي هنغاريا، كما كان أيضًا عضوًا في "المكتب المصغر" للكومنترن. فأُعلم أن "الحكومـات البورجوازية ما زالت ضعيفة وقد حان الوقـت لضربهـا مـرة بعـد أخـرى بسلسـلة مـن الانتفاضات والإضطرابات وحالات العصيان". كما ادعـى بـأن ألمانيـا مهـد الماركسـية

---

١ - Meynell Francis, *My Lives* (Londres,1971), pp. 128-131.

تشكل الموضع الأقل مناعة في النظام الرأسمالي. لكن لينين كان أقل حماسة منه إذ إنّ يقينه الشخصي بقرب الثورة العالمية كان آخذاً بالتلاشي. وكان يعتقد بأن روسيا بحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى تضميد جروحها بعد الدمار الذي لحق بها خلال الحرب الأهلية، وخارجيًا إلى بدء مرحلة من الانفراج مع أعدائها الامبرياليين. لكن يبدو أن كونه تمكن من اقناعه بعد أن شرح له بأن انتفاضة ناجحة في ألمانيا قد تؤدي إلى التخفيف من الضغط الدولي الممارس على النظام السوفياتي.

في بداية شهر آذار ـ مارس ١٩٢١ وصل كون مع بعثة سرية من الكومنترن إلى برلين لوضع اللمسات الأخيرة للخطة. أما "الرفيق توماس" فقد ذهل للأمر. وقال فيما بعد: "اعترضت بقوة وطلبت استدعاء بيلاكون وبعثت لهم البرهان على أن شروط الحد الأدنى المطلوبة لقيام انتفاضة ما في ألمانيا ليست متوافرة في الوقت الحالي. لكن موسكو لم تجب". وفي السابع عشر من آذار ـ مارس تمكن كون من فرض وجهة نظره على إدارة حزب الـ KPD وملخصها: "العمال مدعوون إلى المعركة". واستدعي مندوبو الأحزاب الشيوعية الفرنسية والانكليزية والتشيكية وغيرها إلى برلين ليشهدوا الاندلاع الوشيك للثورة الألمانية. وفي الواحد والعشرين والثاني والعشرين من آذار ـ مارس جرت اضرابات واضطرابات، وفي الرابع والعشرين دعى الـ KPD إلى إضراب عام وحث العمال على حمل السلاح. لكن غالبية هؤلاء لم تشارك في المعارك. وحوالى الأول من نيسان ـ إبريل كانت المناطق القليلة المتمردة قد اخضعت وأعلن الـ KPD إلغاء دعوته للإضراب العام. وكانت حصيلة الأحداث مقتل ١٤٥ عاملاً وعدد غير محدود من الجرحى و ٣٤٧٠ موقوفًا. ولام "ليفي"، الذي استقال من الحزب في شباط ـ فبراير، الكومنترن لأنه أجبر الـ KPD على محاولة إشعال ثورة كان العمال الألمان أنفسهم يعارضونها، وقال: "شكرًا للجنة المركزية! فبفضلها بات

وجود الحزب الشيوعي الألماني الذي هو حتى اليوم الحزب الجماهيري الوحيد في أوروبا بقيادة شيوعية على المحك". لكن خليفته "هنريك براندلر" أدان هذا الموقف ووصفه بـ "الافتراء الأوسخ والأمكر" لكل محاولة لوضع اللجنة المركزية أو المقربين منها في موضع الاتهام فيما يخص مسببات "عملية آذار ـ مارس". وردد "زينوفييف" رئيس الكومنترن بأن هذه الادعاءات هي مجرد "أكاذيب فاضحة". لكن هذه "الأكاذيب" جرى تأكيدها عام ١٩٢٦ في سيرة بيلاكون الرسمية خلال تشييعه إذ ورد فيها: "وفي عام ١٩٢١ أرسله الشيوعيون في مهمة إلى ألمانيا حيث قاد عملية آذار ـ مارس التي نفذتها البروليتاريا".

وبالطبع، لم يكن بمقدور لينين والكومنترن تحمل مسؤولية "عملية آذار ـ مارس" ولكن فشل هذه الأخيرة استدعى وقفة لمراجعة الحساب في السياسة السوفياتية. فأعطيت الأولوية لتدعيم النظام في الداخل. وخلال المؤتمر العاشر للحزب الذي عقد في آذار ـ مارس ١٩٢١ أعلن لينين عن نيته "وضع حد للمعارضة والإطباق عليها" وإقامة الدولة الشيوعية التي تسودها ديكتاتورية الحزب الواحد المطهر من المانشفيك والاشتراكيين الثوريين، لكنه اعترف في الوقت نفسه قائلاً "لقد فشلنا في إقناع الجماهير في الخارج". وكانت مناطق واسعة من البلاد تعاني المجاعة والصناعة في حال انهيار وثورات الفلاحين منتشرة في أوكرانيا وآسيا الوسطى. وتزامن انعقاد المؤتمر مع تمرد بحارة حامية "كرونستاد"، الذين وصفهم "تروتسكي" في السابق بأنهم "فخر الثورة وعزتها"، ضد القمع السياسي والحرمان الاقتصادي المفروض من قبل السلطة. وأدان المنشور الذي أصدروه بعنوان "أسباب كفاحنا" بشكل خاص التشيكا وقارنوها بالأوبرتشنينا أيام إيفان الرهيب، وجاء فيه: "إنّ سلطات الشرطة الملكية انتقلت إلى أيدي المغتصبين الشيوعيين الذين بدل أن يؤمنوا الحرية للعمال زرعوا فيهم

الخوف المستمر من الانتهاء في غرف تعذيب التشيكا التي تفوق أساليبها فظاعة ووحشية. تلك التي سادت أيام الشرطة القيصرية"[١]. وكان طبيعيًا أن ترى التشيكا المحبذة لنظرية المؤامرة ذراع الإمبريالية الغربية وراء تمرد كرونستاد. وأعلم دزرجنسكي لينين بأن العصيان لم يكن إلا جزءًا من مؤامرة خطط لها عملاء فرنسيون في ريغا بالتواطوء مع الاشتراكيين الثوريين لتوجيه ضربة في بتروغراد بدعم من البحارة والجماهير الكادحة المستاءة، تدخل على أثرها فرنسا بأسطولها إلى البلطيق". وكتب لينين بأنه يؤيد وجهة النظر هذه. وفي السابع عشر من آذار ـ مارس ١٩٢١ وبينما كان الـ KPD يجمع قواه للقيام "بعملية آذار" في ألمانيا جرى سحق انتفاضة كرونستاد بقسوة بواسطة خمسين ألف جندي من الجيش الأحمر كان بينهم فرق من التشيكا.

وقد أدت مأساة كرونستاد، من دون أن تكون السبب المباشر، إلى الإسراع في إجراء تغييرات أساسية في سياسة البولشفيك. فأعلن لينين خلال المؤتمر العاشر للحزب عن اعتماد سياسة اقتصادية جديدة (NEP). نصت على عدم مصادرة الحبوب والعودة إلى التجارة الفردية والشركات الصغيرة، وبذل الجهود لإقناع رجال الأعمال الأجانب باستثمار المهارات والأموال في روسيا. وتمحورت الأوليات على الصعيد الاقتصادي حول المفاوضات لعقد اتفاقات تجارية وعلى الصعيد الدبلوماسي حول كسب اعتراف العالم الرأسمالي بالنظام الشيوعي. وافتتح هذا التوجه الجديد في أيار ـ مايو ١٩٢٠ بزيارة بعثة تجارية إلى لندن على رأسها مفوض التجارة الخارجية ليونيد كراسين. وهدفت إلى التوقيع على معاهدة تجارية انكلو ـ سوفياتية، لكن المناقشات

---

١ - Avrich Paul , *Kronstadt 1921* (Princeton University Press, 1971).

حولها كانت شاقة. وكان معاون كراسين ومترجمه ضابطًا في التشيكا يدعى "ن. ك. كليشكو". وقالت الشعبة الخاصة الانكليزية أن هذا الأخير اتصل "بعناصر شيوعية" حال وصوله. وكان قرار دزرجنسكي بإنشاء دائرة خارجية (INO) بمناسبة ذكرى ميلاد التشيكا في العشرين من كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٢٠ دليلاً إضافيًا لحاجة السوفيات المتنامية للمعلومات عن الخارج.

وكانت بريطانيا الهدف الدبلوماسي الأول للـ INO التي كانت تعتبرها القوة العالمية الأولى والمعبر الأساسي للحصول على الاعتراف الدبلوماسي من العالم الرأسمالي. وخلال السنة التي تلت توقيع الاتفاقية مع لندن فاوضت روسيا من أجل اتفاقيات مماثلة مع كل من ألمانيا وإيطاليا والسويد والنروج والنمسا وتشيكوسلوفاكيا. ولم تكن الـ INO تملك في ذلك الوقت معلومات كافية عن الدبلوماسية البريطانية. ففي تقرير قدمته إلى لينين قالت التشيكا إنها تحققت من أن المؤيد الأكثر نفوذًا للاتفاقية كان رئيس الوزراء "ديفيد لويد جورج" فيما كان المعارضون "الحزب المحافظ بقيادة كورزون وتشرشل بدعم من وزارة الخارجية" والأوساط الدبلوماسية. لكنه لم تكن هناك حاجة إلى تحقيق سري لكشف الشخصيتين الأكثر معاداة للبولشفيك داخل الحكومة أي اللورد كورزون المسؤول عن وزارة الخارجية ونستون تشرشل المسؤول عن المكتب الاستعماري. وعندما التقى كراسين في بداية المفاوضات الحكومية في ١٠ داونينغ ستريت فضل تشرشل أن يتنحى جانبًا لكي لا يضطر إلى مكافحة "السعدان الغزير الشعر". وحضر كورزون اللقاء غصبًا عنه وعندما مد كراسين يده لمصافحته رفض بادئ الأمر أن يستجيب. لكن رئيس الوزراء صاح به "كورزون كن مهذبًا!" فانصاع وزير الخارجية وصافح كراسين. وبالإجمال برهنت التشيكا عن معرفة ضعيفة بالسياسة البريطانية وبتيارات النفوذ المسيطرة على

دبلوماسيتها في آذار - مارس ١٩٢١. فتشرشل كان وقتها ليبراليًا ولم يكن محافظًا ولم ينضم إليهم إلا بعد العام ١٩٢٤.

لكن مصدر المعلومات السري الأساسي وربما الوحيد للتشيكا، والذي ورد ذكره مرات عدة في تقاريرها، كان الصحفي أرثور رانسوم، الذي اشتهر فيما بعد ككاتب قصص للأطفال أشهرها "عصافير السنونو والأمازونيات" التي تدور أحداثها في منطقة البحيرات. وكان رانسوم في الوقت نفسه أديبًا مكرسًا وطالبًا دائمًا. وعندما كان مراسلاً حربيًا لجريدة دايلي نيوز في روسيا الثورية كان يبعث بمقالات تنم عن مزيج غريب من السذاجة ونفوذ البصر. وكان منجذبًا للبولشفيك ويصفهم بـ "المتوحشين الطيبين، المجانين، العمليين، المرتابين، العنيدين، الساذجين، الشديدي المراس، المتبصرين والمتدفقين حيوية" ومعجبًا برؤيتهم الثورية لمجتمع جديد... وكتب في ذلك: "إنّ كل إنسان تقريبًا وإلى أن يذوي شبابه وتتفتح بصيرته تكمن فيه القدرة على بناء قدس جديدة... وحتى لو كان الذي يجري بناؤه هنا بالدم والدموع ليس المدينة الذهبية التي حلمنا بها جميعًا، إلا أن كل واحد منا وبما يدين به لشبابه ينظر إليها بتفهُّمٍ مليء بالتضامن". وقد سنحت الفرصة لرانسوم ليتعرف على العديد من زعماء البولشفيك كما تزوج سكرتيرة تروتسكي بعد إجراءات طلاق طويلة مريرة من زوجته الأولى. وكان معجبًا بدزرجنسكي ومعاونه بيترز ويقول في الأول "كان متعصبًا للثورة وهادئًا لا يثيره شيء، لديه ثقة مطلقة بضميره ويضعه فوق كل شيء. وقد عاش طويلاً في السجون حيث عرف عنه اندفاعه للقيام بالمهام التي كان يأنف المجرمون الآخرون عن تنفيذها مثل تنظيف الزنزانات وإفراغ السطول. وكان مؤمنًا بنظرية التضحية بالذات التي تدعو الإنسان إلى أخذ المشاكل على عاتقه لئلا يتقاسمها العديدون. ومن هنا نفوره من منصبه الحالي".

وحتى عندما رأى رانسوم الدلائل على فظاعات التشيكا فقد حاول تبرير وجود الأخيرة بأنها الدواء الوحيد لمعالجة الفوضى. حتى أنه وجد عام ١٩٢١ الذريعة لتبرير سحق تمرد كرونستاد. وقد اهتمت التشيكا والـ SIS به على السواء. فقد اعتبره بعض ضباط الـ SIS عميلاً للتشيكا فيما اهتم ضباط آخرون باستغلال اتصالاته الرفيعة بالقيادة السوفياتية لكنهم فشلوا بالتقرب إليه. ويقول كاتب سيرته أن رانسوم والـ SIS فشلا في "اسغلال بعضهما البعض". ولم يتكتم رانسوم عن اتصالاته مع الـ SIS لأنه أراد أن يثير إعجاب القيادة السوفياتية به ولكنه بذلك عزز من اهتمام التشيكا به. ومن المؤكد أن هذه الأخيرة كانت على علم بلقاءاته مع بازيل تومسون رئيس الشعبة الخاصة الذي أصبح غداة الحرب رئيس إدارة الاستخبارات المسؤولة عن مراقبة التخريب المدني.

وفي العام ١٩١٩ انتقل رانسوم من موسكو إلى ريغا في ليتوانيا ولكنه واظب لسنوات عديدة على الذهاب إلى موسكو كمراسل لجريدة "مانشستر غارديان". ونجد ضمن يومياته القصيرة والمجزأة ما جرى في لقاءاته وشخصيات مرموقة مثل بيترز وانسشليخت. وكانت قناة اتصاله الأخرى "ن. ك. كليشكو" ممثل التشيكا في البعثة التي فاوضت بشأن الاتفاقية الأنكلو ـ سوفياتية.

اعتقدت التشيكا خطأً بأن الصحافي في "التايمز" "هارولد ويليامس"، الذي أصبح عام ١٩٢٢ رئيس التحرير للقسم الخارجي، وضابط الـ SIS "بول ديوكس"، يلعبان دورًا مهمًا في تقوية معارضة كورزون وتشرشل للاتفاقية الأنكلو ـ سوفياتية، وكان هذا الخطأ يعبر عن توجه لدى التشيكا ومراقبين أجانب آخرين يبالغ بالتأثير الذي تتمتع به التايمز والـ SIS في أروقة السلطة في وايتهول. ولكن التأثير الخفي المنسوب إلى ويليامس يعود على الأرجح جزئيًا إلى التعليقات الصادرة عن رانسوم. فهذا الأخير

وولیامس كانا صديقين مقربين لمدّة من الزمن ثم تصادما بعنف بسبب معاداة وليامس للبولشفيك. وكان رانسوم يستسخف المهمات السرية التي كان يقوم بها ديوكس في روسيا للوصول إلى مفهوم عن هذا البلد "يوازي وجهة نظر الثعلب المطارد فيما يتعلق بصيد الثعالب[١]". كما اعتقدت التشيكا أن ويليامس بارونتي "متزوج من امرأة تدعى "تيركوفا" يُظن أنها كانت ابنة رجل الدولة الشهير العضو في الحزب الدستوري الديمقراطي". وقد صحح لينين نفسه معلومات التشيكا حول هذه النقطة وكتب إلى دزرجنسكي: "إنّ زوجة ويليامس تدعى تيركوفا، وقد عرفتها زوجتي جيدًا في شبابها، وكانت عضوًا بارزًا في الحزب الدستوري الديمقراطي".

وكان رانسوم يميل إلى مبالغة أهمية دوره ومستوى علاقاته في وايتهول وهو السبب على الأرجح في توصيل التشيكا إلى معلومات خاطئة حول طبيعة مهمته عندما زار روسيا بداية العام ١٩٢١. فاعتقدت أن لويد جورج أوكل إليه وإلى رجل أعمال يحمل اسم "ليث" مهمة الدفاع عن الاتفاقية التجارية. وقال رانسوم للتشيكا إنّ روسيا "تتمتع بنفوذ أكبر من بريطانيا في الشرق وإنّ العالم الإسلامي يتعاطف أكثر مع روسيا من تعاطفه مع بريطانيا". فاستنتجت التشيكا عن خطأ مرة أخرى بأن "توسع النفوذ السوفياتي شرقًا والذي تعجز انكلترا عن مقاومته جديًا" هو من الأسباب التي تدفعها لتوقيع الاتفاقية. وأوضح رانسوم أيضًا بأن التقارير المنشورة في الصحافة البريطانية حول تمرد كرونستاد والمعارضة التي يواجهها البولشفيك تدل على وجود "ضغط منظم على الرأي العام" بهدف إفشال التوصل إلى الاتفاقية. ويقول تقرير للتشيكا إنّ "رانسوم يعتقد بأن الوقت ملائم للحكومة السوفياتية لكي تعلن عن حقيقة مجريات الأمور".

---

١ - Hart-Davis Rupert, *The Autobiography of Arthur Ransome*, Cape, (Londres,1976) pp. 262-263.

وكتب لينين إلى دزرجنسكي بعد قراءته التقرير: "برأيي أنه مهم جدًا وعلى الأرجح بالغ الدقة والصواب"... ويعود الاهتمام الكبير الذي أولاه لينين والتشيكا لتحليلات رانسوم الخاطئة في جزء منه إلى أنه كان يُسمعهم ما يرغبون بسماعه معزّزًا نظرياتهم حول المؤامرة. وإذا سلمنا جدلاً بأنه كان مطلعًا على أسرار بريطانية فبالتأكيد كان ذلك محدودًا جدًا، إلا أن التزامه بقضية اعتراف الغرب بالبولشفيك كان شديدًا. وبعد اجتياز العتبة الأولى باتجاه هذا الاعتراف عبر توقيع الاتفاقية الأنكلو ـ سوفياتية ازدادت قيمة رانسوم لدى التشيكا. وأصبح رانسوم صديقًا موثوقًا لمدير البعثة التجارية البريطانية روبرت هودجسون الذي كان يجهل حتمًا ارتباطات صديقه. وفي أيار ـ مايو ١٩٢٣ تعرضت هذه الاتفاقية للخطر بسبب "إنذار كورزون" المزعوم الذي اتهم حكومة السوفيات بالقيام بالتخريب والدعاية السياسية المعادية في بلاد الهند والدول المجاورة لها. وقد أمضى رانسوم بمبادرة منه ساعات طويلة في مقابلات مع تشيتشيرين ومساعده ليتفينوف وعلى الأرجح أيضًا ـ بالرغم من أن يومياته تغفل ذلك ـ مع الـ GPU. وشرح لمحاوريه بأنه إذا كان كورزون معاديًا بقوة لروسيا البولشفية فإن الحكومة البريطانية لا ترغب بالقطيعة. وكتب "خلال تلك المدّة القصيرة ضربت رقمي القياسي في شرب الشاي في الكرملين"... وتشير يومياته إلى أربع لقاءات مع ليتفينوف وثلاثة مع تشيتشيرين، واثنين مع هودجسون وواحد على التوالي مع بوخارين وزينوفييف وكل ذلك خلال أربعة أيام. وكانت لدى هودجسون تعليمات تحظر عليه البحث "بانذار كورزون" مع مفوضية الشؤون الخارجية، إلا أن رانسوم أقنعه باللقاء "صدفة" مع ليتفينوف في غابة قريبة مع موسكو. وبعد ثمانية أشهر رأى رانسوم أخيرًا جهوده تتوج بالنجاح وخرجت روسيا من عزلتها الدبلوماسية، وكان حاضرًا في الحفلة التي أقيمت في موسكو في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٢٤، بعد

انتخاب أول حكومة عمالية بقيادة "رامزي ماكدونالد"، وقدم خلالها هودجسون إلى تشيتشيرين مذكرة رسمية تتضمن اعترافًا بالنظام السوفياتي على أنه شرعي ويمثل الحكومة الروسية. وكتب رانسوم "كان ذلك يومًا سعيدًا جدًا بالنسبة لي، فقد انتهت "حربي" التي دامت لخمس سنوات من بعد هدنة ١٩١٨".

في العام ١٩٢٤ تحدث رنسوم إلى صحيفة Manchester guardian وقال إنّه لم يعد يستطيع العيش في أوروبا الشرقية ولهذا فقد فضل العودة إلى انكلترا. وخلال السنوات اللاحقة تابع رحلاته كوسيط سياسي في الشرق الأوسط والصين وقام بزيارة أخيرة لموسكو عام ١٩٢٨، ثم في العام ١٩٢٩ قدم استقالته من صحيفة الـ"غارديان" وترك الصحافة لكي ينسحب إلى منطقة "البحيرات" ويغوص في مهنته ككاتب قصص للأطفال.

كانت معلومات الاستخبارات البريطانية حول السياسة الخارجية السوفياتية في بداية عشرينات القرن العشرين أفضل بكثير من معلومات التشيكا عن بريطانيا. ففي تلك الحقبة لم تكن روسيا السوفياتية الفتية تملك الوسائل التقنية للسيغنت[1]... وعانى البولشفيك خلال العقد الذي أعقب استلامهم السلطة من نقطتَي ضعف خطيرتين. الأولى خشيتهم من استعمال أنظمة الرموز والشيفرة المتطورَين والموروثين عن العهد السابق ممّا اضطرهم إلى اللجوء إلى أنظمة أقل كفاءة اعتمدت في البداية على صيغ بسيطة من تنقيل موضع الأحرف. والثانية الأدوات التي أتاحت لروسيا ما قبل الثورة تحليل الرموز المعادية واحتلال المرتبة الأولى عالميًا في تحليل الرموز،

١ - SIGINT: تعبير بريطاني مأخوذ من كلمتي Signals Intelligence. والسيغنت عبارة عن عملية اعتراض، وإن أمكن: تحليل الاتصالات الحكومات الأجنبية. وكانت قد وفرت في الماضي لوزارة الخارجية القيصرية أهم معلوماتها الدبلوماسية.

هذه الأدوات تبعثرت في جميع الجهات. والأسوأ أن بعض الأفضل منها وجد طريقة إلى الخارج.

وفي حقبة ما بين الحربين كان رئيس الشعبة الروسية للوكالة البريطانية المسؤولة عن التجسس على الإشارات أي المعهد الحكومي للرمز والشيفرة (GC et CS سلف الـ GCHQ، المقر العام للرمز الحكومي) ارنست "فيتي" فيترلاين عضوًا سابقًا في المكتب الأسود القيصري، تمكن من الفرار من روسيا مع زوجته على متن باخرة سويدية. وكان يدّعي أنه كان في بلاده أعظم محلل للشيفرة وبرتبة أميرال. وكان زملاؤه في الـ GC و GS يقولون إنه "لا مثيل له في كل ما يتعلق بالشيفرة وبأي موضوع يتطلب فكرًا ثاقبًا". وقد أُعجِبَ محلل الشيفرة الأميركي الكبير والتر فريدمان عندما التقى فيتي بُعيد انتهاء الحرب، بخاتم مزين بياقوتة كان يحمله بسبابة يده اليمنى وقال: "بعد أن أظهرت اهتمامي بالخاتم قال لي بأنه تلقاه هدية كعربون شكر لنجاحه في تحليل الشيفرة لمّا كان بخدمة القيصر نيكولاس، الأخير في "سلالة رومانوف"...

ومن سخرية القدر كان تحليله للبرقيات الدبلوماسية البريطانية جزءًا من نجاحاته الماضية. لكنّ نجاحه الأكبر في العقد الذي أعقب الثورة كان في فك رموز الاتصالات الدبلوماسية السوفياتية لصالح... البريطانيين. وبالرُّغم من نطقه للإنكليزية بلكنة فظيعة... فقد كان لغويًا بارعًا... مع أنه تعلم لغة شكسبير من خلال المسلسلات الروائية الشعبية والروايات البوليسية. ولم يفصح فيترلين الكثير عن روسيا ما قبل الثورة ولكنه من وقت لآخر عندما كان يستفزه أحد الزملاء قائلاً "وماذا عن القيصر سيد فيترلين؟ أعتقد أنه كان رجلاً قوي البنية وبصحة جيدة؟" كان فيتي يعض على الطعم ويرد ساخطًا: "كان القيصر رجلاً لا عقل له مريضًا معظم الوقت وموضع احتقار بشكل عام"...

وقد تمكن الـ CS و GS بفضل فيترلين وزملائه من تحليل معظم الاتصالات الدبلوماسية الروسية المهمة خصوصًا خلال مدّة المفاوضات حول الاتفاقية الأنكلو ـ سوفياتية. وقد أدت عمليات الاعتراض هذه إلى كشف معلومات مثيرة. فقد وجه لينين تحذيرًا إلى كراسين في حزيران ـ يونيو ١٩٢٠ عند بداية المفاوضات قائلاً: "هذا الحقير لويد جورج عديم الذمة والحياء في طريقة خداعه لنا. لا تصدق أي كلمة يقولها فاخْدَعْهُ ثلاث مرات أكثر!"... وكان لويد جورج يقابل هذه الإهانات بالصبر، على عكس البعض من وزرائه. وعندما حصلت الحكومة على الدلائل التي تثبت أن أموالاً دفعت إلى جريدة "دايلي هيرالد" وإلى البولشفيك الإنكليز، وأن أنواعًا أخرى من التخريب قام بها الروس في إنكلترا والهند، طالب كورزون وتشرشل بطرد البعثة التجارية ووقف المفاوضات. وبرغم تصميمه على عدم التضحية بامكانية عقد الاتفاقية التجارية اعتبر لويد جورج أنّه من الحكمة الرد على هذه الانتهاكات. فاتهم في العاشر من أيلول "ليف كامينييف" رئيس الحزب في موسكو الذي كان يرأس البعثة مع مساعده كراسين منذ شهر آب ـ أغسطس "بالخرق الفاضح للعهد المعطى" وبأشكال متعددة من التخريب. وبالرغم من السماح لكراسين بالبقاء فقد علم كامينييف، الذي كان عليه العودة إلى موسكو في اليوم التالي للتشاور، بأنه سيكون ممنوعًا عليه أن يعود إلى انكلترا. وأكد لويد جورج أن هذه الاتهامات تستند إلى "اثباتات أكيدة"، رافضًا الإفصاح عنها.

وكان على البعثة السوفياتية أن تفهم أنّ برقياتها يجري تحليلها... وفي شهر آب ـ أغسطس وافقت الحكومة البريطانية على نشر بعض هذه الرسائل. فتم توزيع ثماني رسائل تتعلق بالأموال المدفوعة سرًا إلى الـ"دايلي هيرالد" وُزِّعَتْ على جميع الجرائد في البلد باستثناء الهيرالد نفسها. بالإضافة إلى ذلك جرى إيهام الروس بأن هذه

المعلومات تسربت من محيط ليتفينوف في كوبنهاغن إذ طلب من الصحافة أن تحدد أن مصدر معلوماتها "بلد محايد". لكن جريدة التايمز لم تلعب اللعبة... وغضب رئيس الوزراء غضبًا شديدًا عند قراءته في مقدمة مقال الجريدة "أنّ رسائل الراديو التالية جرى اعتراضها من قبل الحكومة البريطانية". لكن "كليشكو"، الممثل المقيم للتشيكا (رئيس محطة) ومرافق البعثة التجارية السوفياتية كان حديث العهد بمجال الإشارات... وهو أمّا لم يقرأ التايمز بانتباه أو أنه ظن أن رمز الشيفرة "مارشا" والمستعمل في الرسالات الثمانية المنشورة كان الوحيد الذي كشف. كما أنه لم يفهم مغزى تسريب المعلومات المبرمج إلى الـ"دايلي ميل" والـ"مورنينغ بوست" والذي كان يستند إلى اعتراض جديد للرسائل. لكن الذي أدرك أخيرًا مدى الاختراق والتغلغل البريطاني لأنظمة الرمز والشيفرة السوفياتية فلم يكن البعثة التجارية بل "ميخائيل فرونزي" قائد المجموعة الجنوبية للجيش الأحمر الذي تغلب على قوات الجنرال "رانغل" في القرم. فأبلغ موسكو في التاسع عشر من كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٢٠ بالتالي: "اتضح من تقرير أرسله إليّ اليوم يامتشنكو المسؤول السابق عن محطة راديو رانغل في سيباستوبول أن كافة رموزنا مكشوفة ومحللة من قبل العدو... ويعود السبب في ذلك إلى بساطتها... وخلاصة الموضوع أن أعداءنا وبخاصة إنكلترا كانوا طوال هذا الوقت على اطلاع على سرية قراراتنا العسكرية العملانية وعلى اتصالاتنا الدبلوماسية". .

وتلقت البعثة السوفياتية في لندن بعد ذلك بأسبوع أمرًا بإرسال معظم المراسلات مع ناقلي البريد "إلى أن يتم وضع أنظمة شيفرة جديدة". وعندما تم ذلك في العام ١٩٢١ حاول فيترلين وزملاؤه عبثًا إيجاد تفسير أو تحليل لها. لكن مع نهاية شهر نيسان ـ إبريل استطاع الـ CS وGC أن يبدأ من جديد تحليل كمية مهمة من الاتصالات

الدبلوماسية السوفياتية. ولم يكتف إنذار كورزون الشهير عام ١٩٢٣ بالإشارة إلى مجموعة من الرسائل المعترضة بل أفحم الروس عدة مرات... وبأسلوب تنقصه اللياقة الدبلوماسية... وبسخرية واضحة... إذ جاء فيه:

"ستتذكر مفوضية الشؤون الخارجية بلا شك الرسالة التالية المؤرخة في الواحد والعشرين من شباط ـ فبراير ١٩٢٣ والتي استلمتها من السيد راسكولنيكوف... كما ستتذكر المفوضية أيضًا الرسالة التي استلمتها من كابول بتاريخ الثامن من تشرين الثاني ـ أكتوبر ١٩٢٢... كما أنها لم تنس بالتأكيد البرقية التي أرسلها السيد كارخان مساعد المفوض للشؤون الخارجية إلى السيد راسكولنيكوف بتاريخ السادس عشر من آذار ـ مارس ١٩٢٣".

واعتمدت موسكو خلال صيف ١٩٢٣ أنظمة جديدة للرمز والشيفرة استعصت على فيترلين وفرقته لفترة من الوقت. لكن الـ CS وGC تمكن مجددًا في نهاية العام ١٩٢٤ من فك رموز كمية مهمة من البرقيات الدبلوماسية السوفياتية.

ممّا لا شك فيه أنّه خلال المدّة التي صدر فيها إنذار كورزون كانت دائرة الاستماع السوفياتية متخلفة كثيرًا عن الدائرة البريطانية، ولكن شبكة عملاء الـ INO (دائرة التجسس الخارجي) كانت أكثر اتساعًا وطموحًا وإقدامًا من الـ SIS البريطانية التي قلصت ميزانيتها كثيرًا بعد الحرب العالمية الأولى. واستغلت الـ INO فرصة تكاثر البعثات التجارية والسفارات غداة التوقيع على المعاهدة التجارية الأنكلو ــ سوفياتية في آذار ـ مارس ١٩٢١ لإقامة حلقة من "المراكز الشرعية" بإدارة "ممثلين مقيمين" (رؤوساء محطات) عاملين بغطاء دبلوماسي داخل البعثات السوفياتية. وعلى غرار ما كان يحدث في إنكلترا، فقد كان موضوع الغطاء الدبلوماسي مصدر خلاف متكرر بين الدبلوماسيين وضباط الاستخبارات. فقد كان مسؤولو محطات الـ SIS في

الخارج يمارسون في وقت السلم دورًا بسيطًا يتمثل بكونهم "ضباط مراقبة جوازات السفر" بمعزل عن السفارات. وكانت هذه الأخيرة تتضايق منهم ولا تعتبرهم أُناسًا جديرين بالاهتمام... كما كان الدبلوماسيون يفضلون عدم التقرب منهم... أما عملاء الـ INO فقد كانوا من جهتهم أقوى بكثير من زملائهم البريطانيين، وكانت بالتالي خلافاتهم المتقطعة مع سفرائهم أكثر حدة. وبشهادة جيورجي اغابيكوف ممثل الـ OGPU المقيم والذي ارتد إلى الغرب عام ١٩٣٠ "كان ممثل الـ OGPU المقيم من الناحية النظرية تابعًا للسفير وكان رسميًا سكرتيره الثاني أو شيئًا من هذا القبيل. لكن سلطته، في الواقع، تعدت سلطة السفير. وكان سيف الوشاية المسلط يجعله مصدر خوف لزملائه وحتى للسفير نفسه... وكان يحدث أحيانًا أن يتقدم السفير بشكوى ضد الممثل المقيم منتقدًا قدرته على ممارسة مهامه كسكرتير للسفارة. وعندها كانت تنقسم السفارة إلى معسكرين لكل منهما مناصروه إلى أن تقرر موسكو استدعاء أحد الإثنين وكان يتبعه مؤيدوه"[١]. كان مدير الـ INO، الشعبة الخارجية للتشيكا وللمنظمات التي تلتها والمسؤول عن حسن سير الممثليات منذ شهر آب ـ أغسطس ١٩٢١ إلى نهاية عام ١٩٢٩ يدعى "ميخائيل ابراموفيتش تريليسيه"، وكان يهوديًا روسيًا احترف الثورة منذ عامه الثامن عشر. وتخصص قبل الحرب في اصطياد مخبري الشرطة المندسين في صفوف المهاجرين البولشفيك. وكان بوريس باجانوف نفسه، الذي كان سكرتير ستالين لمدّة قبل أن يرتد إلى الغرب عام ١٩٢٨، وكان يتعرّض لملاحقة بلا هوادة من قبل الـ OGPU، قد وصفه بـ "رجل التشيكا الذكي والماهر"[٢].. وعلى غرار معظم

---

١ - Agabekov Georgi, *OGPU*, Brentano's (New York, 1931), p. 271.

٢ - Waxmonsky Gary R., Police and Politics in Soviet 1921-1928 (Princeton University, 1982), pp. 373-374

المسؤولين المرموقين من جيله داخل الـ INO ذهب تريليسيه ضحية الإرهاب المتفشي في ثلاثينات القرن العشرين، ولكن الاعتبار أعيد إليه بعد وفاة ستالين. وأصبحت صورته معلقة في مكان بارز في "صالة الذكرى" داخل المديرية العامة الأولى للـ K.G.B. وفي السنتين الأولى والثانية لرئاسته الـ INO، أوكل تريليسيه الإدارة اليومية للشعبة إلى مساعده الاستوني "فلاديمير ستيرن"، الذي بالإضافة إلى صغر سنه البارز إذ كان يبلغ الثانية والعشرين فقط عندما انضم إلى الشعبة الخارجية عام ١٩٢١، كان مشهورًا بالقساوة وعدم الرحمة. وكان يشاع في التشيكا أنه أقدم حتى على قتل أهله... ولكن من المستحيل التحقق من هذه المزاعم.

وفي الحقبة نفسها تقريبًا التي استلم فيها تريليسيه إدارة الـ INO عام ١٩٢١، أقام الكومنترن دائرة سرية للاتصالات الدولية (OMS) من أجل الإشراف على شبكة عملائها السريين في الخارج. وقد أسدت الـ OMS خدمة للـ INO عبر استمالتها لركاب الأجهزة السرية الشيوعيين الأجانب ورفقاء الطريق المتحمسين أكثر في البدء للتجاوب مع نداء من الأممية الشيوعية وليس في طلب مباشر للتعامل مع الاستخبارات السوفياتية. وقد اعتقد في البدء عدد كبير من أفضل عملاء الـ OGPU والـ NKVD في الخارج في ثلاثينات القرن العشرين أنهم كانوا يعملون لحساب الكومنترن... كما مهدت الـ OMS الطريق أيضًا لازدهار "المنظمات الجبهوية" التي قدر لها فيما بعد أن تصبح أداة مهمة "للإجراءات النشطة". وكان النائب الشيوعي الألماني "ويلي منزنبرغ" عبقري المنظمات الجبهوية التي أقيمت بفضل الـ OMS وكان يُطلق عليه بعطف لقب "شريكها في الحياة". وقد لقَّبَتْهُ "بابيت غروس" بـ"القديس الشفيع لرفقاء الطريق"[١].

---

١ - Gross B. *Willi Münzenberg: A Political Biography* (Michigan University Press 1974), p. 217.

وأسس مونزنبرغ عام ١٩٢١ عندما سادت المجاعة في روسيا "منظمة الإسعاف الأحمر الدولي"، وكان مقرها في برلين. وقد جعلت منه مهاراته التنظيمية في وقت قليل الداعية الأكثر فعالية للكومنترن. وبشهادة بابيت غروس "كانت كلمته السحرية: التضامن، في البداية التضامن مع الشعب الروسي الجائع ثم بروليتاريا العالم أجمع. وبإحلاله كلمة التضامن مكان كلمة الإحسان وجد مونزنبرغ الطريقة للوصول إلى قلوب العديد من المثقفين فتجاوبوا معه بعفوية. وعندما كان يتحدث عن "الاندفاع المقدس للقيام بالواجب البروليتاري القائم على المساعدة والإعانة" كان يثير فيهم هذا الحماس شبه المقدس إلى التضحية الذي نجده حيثما يوجد الإيمان[١]". وكان كل فعل "تضامن مع الشعب الروسي" يخلق صلة عاطفية بين القائم به والصورة المثالية للدولة السوفياتية... دولة العمال والفلاحين التي كانت تروّج لها دعاية الكومنترن.

وقد عرفت منظمة الإسعاف الأحمر في لغة الحزب تحت اسم "مجمع مونزبرغ". وبالاستناد إلى آرثر كوستلر الذي عمل بخدمته عام ١٩٣٣ تمتع مونزنبرغ "باستقلالية وحرية تحرك على الصعيد الدولي أكثر من أي قائد آخر في الكومنترن". وبما أنه كان "قلما يتعرض لمراقبة بيروقراطية الحزب الخانقة" فقد كانت حملاته الدعائية الخلاقة تتعارض بشكل صارخ مع الأسلوب المتكلف والمتعصب الذي كان يميز صحافة الحزب الرسمية[٢]". وتمكن "مجمع مونزنبرغ" من الاستحواذ على دعم مجموعة متنوعة من الكتاب والجامعيين والعلماء "وغير الملتزمين". وكان الملصق الذي صممته "كاثي كولوتيز" عام ١٩٢٣ بناء على طلب مونزنبرغ والذي كان يمثل

١ - Gross, Münzenberg, p. 217.

٢ - Koestler Arthur, *The Invisible Writing*, Danube ed. (Londres, 1969), p. 253.

طفلاً متضورًا من الجوع، جاحظ العينين، مادًا يده مستجديًا القليل من الغذاء، من صور القرن العشرين التي لا تنسى وأبلغها تعبيرًا. وعلى امتداد عشرينات القرن العشرين انشأ مجمع مونزنبرغ لحسابه الجرائد ودور النشر وأندية الكتب وشركات إنتاج الأفلام والمسرحيات... وبلغ تمدده إلى اليابان حيث كان المجمع طبقًا لكوستلر يسيطر مباشرة أو غير مباشرة على تسع عشرة جريدة ومجلة. ومما يجدر ذكره أم مونزنبرغ تمكن من جعل معظم هذه المؤسسات مربحة. وقد تفرغ عن الإسعاف الأحمر ما كان يسميه مونزبرغ بشكل غير علني "أندية الأبرياء"... التي أُسست، بتوجيه الكومنترن الخفي، من أجل "تنظيم المثقفين" ودعوتهم لدعم مجموعة متنوعة من قضايا الساعة. وكان مونزنبرغ يشعر بـ"ازدراء ودّي" تجاه هؤلاء المثقفين البورجوازيين "الأبرياء" الذين كان يخدعهم عبر إثارته لديهم شعور التضامن المعنوي مع البروليتاريا. وبرغم أنَّ اهتمامه الأساسي كان يتركز على الدعاية إلا أنه استعمل أنديته كذلك كغطاء لشبكات تجسس الـ OMS التي كانت تضم في صفوفها عددًا من هؤلاء المثقفين المضللين. فخلال مداهمة الشرطة لمركز القيادة العامة "للجنة مكافحة الامبريالية" عام ١٩٣١ والتي أسسها موزنبرغ عام ١٩٢٧، اكتشف رجال الأمن وثائق مرتبطة بشبكة تجسس في عدة بلدان...

على الصعيد العملاني كان طبيعيًا أن تنشأ بين الـ OMS والـ INO الأكثر قوة، خلافات متكررة، عائدة إلى تداخل شبكاتهما. ولكن الذي كان يخفف من وطأة الخلافات بين الوكالتين الصداقة الشخصية التي كانت تربط تريليسيه مدير الـ INO بـ أوسيب بياتنيتسكي رئيس الـ OMS منذ إنشائها عام ١٩٢١ إلى أن جرت تصفيته خلال حملات التطهير في منتصف ثلاثينات القرن العشرين. وكان بياتنيتسكي يهوديًا مثل تريليسيه واحترف الثورة بعد مراهقته. وكان قبل الحرب العالمية الأولى يقوم بتمرير

الثوريين ومعدات الدعاية إلى روسيا وخارجها... وفي العلاقات بين الـ INO والـ OMS كانت الأولى الفريق الأكثر قوة لأن تريليسيه كان في قيادة الـ OMS أيضًا بينما لم يكن يتمتع بياتنيتسكي بأي منصب داخل الـ INO. .

وكانت العملية السرية الأكثر طموحًا التي قامت بها الـ OGPU بالاشتراك مع الكومنترن محاولة أخيرة لإشعال الثورة في ألمانيا. وبالرغم من أن المكتب السياسي هو الذي أقر العملية إلا أن مبادرة التنفيذ جاءت من قبل الأممية. وفي آذار ـ مارس ١٩٢٣ أصيب لينين بنوبته الثالثة... مما وضع حدًا لحياته السياسية النشيطة، فكان زعماء الكومنترن مصممين على نشر الثورة قبل وفاته، أقله إلى بلد ثان. وكانوا مقتنعين بأنه في حال انتصار الشيوعية في ألمانيا فإنها ستجتاح بسرعة أوروبا بأكملها. وفي الخامس عشر من آب أغسطس، قطع زينوفييف إجازته وأمر الـ KPD (الحزب الألماني) بمباشرة التحضيرات من أجل الثورة القادمة... وفي الثالث والعشرين من آب أغسطس عقد المجلس السياسي اجتماعًا سريًا لسماع تقرير اختصاصي الكومنترن في الشؤون الألمانية كارل راديك. وقال تروتسكي في الاجتماع: "إليكم أخيرًا أيها الرفاق العاصفة التي طالما انتظرناها منذ سنوات، والمقدر لها أن تغير وجه الأرض... إنَّ نجاح الثورة الألماني سيعني انهيار العالم الرأسمالي". لكن المجلس السياسي كان أقل نشوة من تروتسكي... إلا أنه قرر إرسال بعثة سرية إلى برلين مؤلفة من أربعة أشخاص مزودين بهويات مزورة ليكونوا على الأرض القادة الفعليين. وكان على راديك نقل تعليمات الكومنترن، التي حددها له المكتب السياسي السوفياتي، إلى الـ KPD وتوجيه لجنته المركزية تبعًا لذلك. وكان على انشلخت مساعد دزرجنسكي في الـ OGPU تنظيم وتسليح "الوحدات الحمراء" المقدر لها أن تقوم بالثورة. وتأسس من بعدها مباشرة جهاز OGPU الألماني للتغلب على الثورة

المضادة. أما "فاسيا شميدت" مفوض العمل وذو الأصل الألماني فكان عليه إقامة الخلايا الثورية داخل النقابات التي كانت ستصبح غداة الانتفاضة مجالس سوفيات، وأخيرًا كان على "يوري بياتاكوف" عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي العمل بينهم جميعًا ومسؤولاً عن الاتصالات مع موسكو[١].

لكنه في الواقع لم تكن هناك أيّ احتمالات جدية لقيام ثورة في ألمانيا عام ١٩٢٣. فحزب الـ KPD كان يتمتع بدعم محدود من الطبقة العاملة التي كانت تميل بأغلبيتها الساحقة إلى خصمه الاشتراكي الـ SPD، بالإضافة إلى أن الحكومة الألمانية كانت أقوى بكثير من حكومة كرنسكي الموقتة عام ١٩١٧. لكن البعثة السرية السوفياتية ظلت شديدة التفاؤل. وكانت تقارير باتياكوف إلى موسكو تستهتر بقيادة الـ KPD إلا أنها كانت تشدد على استعداد البروليتاريا للمعركة. فأعطى المجلس السياسي إشارة الانطلاق خلال جلسة خاصة عقدها نهاية شهر أيلول - سبتمبر. واعتبرت نتائج الجلسة سرية لدرجة أن المجلس السياسي قرر الاحتفاظ بمحضر الجلسة في مكان أمين في السكرتاريا بدل أن يوزعها على اللجنة المركزية كما جرت العادة. وطبقًا للخطة التي أقرها المجلس السياسي كان على الوحدات الحمراء إطلاق النار على الشرطة بعد بدء المظاهرات المعدة للاحتفال بذكرى ولادة الثورة البولشفية. وكان مقدرًا لأعمال العنف والقمع التي ستعقب ذلك أن تقود حكمًا، وفقًا لحسابات الكومنترن، إلى ثورة شاملة للطبقة العاملة وإلى استيلاء وحدات انشليخت على المراكز الحيوية للسلطة كما فعل الحرس الأحمر في بتروغراد قبل ست سنوات. وقد أخفيت الأسلحة المرسلة إلى

---

١ - Bajanov Boris *Révèle Staline: Souvenirs d'un Ancien Secrétaire de Staline,* Gallimard (Paris,1979) pp. 62-64..

الوحدات الحمراء على متن باخرة شحن بخارية آتية من بتروغراد، وقام عمال الأحواض الشيوعيون في هامبورغ بإفراغ الحمولة الثمينة.

كان مقررًا للثورة الألمانية أن تندلع في الساعات الأولى لنهار الثالث والعشرين من تشرين الأول ـ أكتوبر. وسهر "أوسيب بياتنيتسكي" رئيس الـ OMS و"ديمتري مانويلسكي" عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي و"أتوكو سينين" سكرتير عام الكومنترن طوال الليل في مكتب هذا الأخير في بتروغراد يشربون القهوة ويدخنون السجائر بانتظار برقية "راديك" التي ستعلن اندلاع الأحداث. وظل الخط الهاتفي المباشر مفتوحًا مع لينين الذي كان ينتظر بفارغ الصبر من على سريره في غوركي برفقة العديد من القادة السوفيات. وكان يجد صعوبة شديدة في النطق ولكن ذهنه ظل يقظًا، وكان ينتظر بدوره أنباء عن الثورة التي تنبّأ بها قبل خمس سنوات... لكنها لم تأت... فأُرسلت برقية إلى راديك فجر الثالث والعشرين من تشرين الأول ـ أكتوبر للاستفسار عمّا حصل. وكان الجواب بعد ساعات "لا شيء"... إذ كان راديك وقيادة الـ KPD قد قررا إلغاء حركة العصيان بسبب افتقادهم للدعم الكافي من الطبقة العاملة. وجرت انتفاضة في هامبورغ فقط ولكنها قمعت بسرعة، فانهالت الاتهامات الحادة على الـ KPD من قبل موسكو التي انتقدته بشدة لتفويته إذ كانت "فرصة مؤاتية"... لكن اللوم كان يجب أن يوجه بكل انصاف إلى موسكو التي أصرت بأي ثمن وبرغم كل البديهيات على الاعتقاد بأن فرصة كهذه وجدت فعلاً.

كان هناك تحصين لثورة أخرى أكثر جدية في الأول من كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٢٤ في تالين عاصمة أستونيا. وقد اتخذ هذه المبادرة زينوفييف المتهم بمحاولة تدعيم مركزه في الصراع على السلطة الأولى بعد وفاة لينين، وذلك بقيادة انتفاضة ظافرة، استنادًا إلى التفاؤل المفرط للشيوعيين الأستونيين في لينينغراد وموسكو، الذين

كانوا يعتقدون أنّ العمال الاستونيين، سيتبعون الـدرب الثـوري المرسـوم مـن قبلهـم... ولكن هذه الانتفاضة قمعت في يوم واحد.

بعد ذلك تحولت الكومنترن الكبيرة بانتشار الثورة نحو آسيا وخصوصًا تجاه الهنـد والصين. أما في القارة القديمة فقد برهن فشل "تشـرين الأول ـ اكتوبـر الألمـاني" عـام ١٩٢٣، إذا كان ثمة حاجة إلى ذلك، صحة التغيير الذي أعقب الفشـل السـابق المتمثـل "بعملية آذار ـ مارس" عام ١٩٢١ ومفاده أن الوقت ليس وقت رعاية ثورات منظمة بل وقت إقامة علاقات دبلوماسية وتجاريـة مـع القـوى الرأسـمالية. فخـلال بضـع سـنوات تمكنت التشيكا والأجهزة التي خلفتها من تحقيق نجاحات في موسكو ذاتها أكبر من تلك التي حققتها في العواصم الغربية. فقد كان أسهل عليها بكثير اختراق البعثات التجاريـة والسفارات الموجودة منذ العام ١٩٢١ من اختراق الوزارات الكبرى في الخارج. وقـد كانت مراقبة البعثات والسفارات من اختصاص دائرة التجسس المضاد التابعـة للتشـيكا الـ KRO التي أدارها طوال عشرينات القرن العشرين "آرثر أرتوزوف".

وُلد آرثر أرتوزوف عام ١٨٩١ وكان ابن صانع جبنة سويسري إيطالي عاش فـي روسيا، كما كـان ابـن أخ "م. س. كـوروف" رئيـس دائـرة العمـل الإلزامـي التابعـة للـ NKVD. ثم خلف تريليسيه على رأس الـ INO من نهاية عام ٩٢٩ إلى العـام ١٩٣٤. وأصبحت صورته تعرض في صالة الذكرى في المديرية العامة الأولى بالإضافـة إلـى تأبين يذكّر بالمهام التي اضطلع بهـا علـى رأس الـ KRO والـ INO. ويمجد التـاريخ الرسمي للمديرية العامة الأولى في أرتوزوف رجل الأفكار الخلاقة. فقد مهـد الطريـق لتقنيات اختراق عديدة ومتنوعة للبعثات الغربية، من "فـخ العسـل" إلـى أسـاليب التهديـد الفظة المستعملة لاحقًا لدى الـ K.G.B، وكان نـاقلو البـريد الدبلوماسـي للقـوى الغربيـة يتعرضون للملاحقة منذ لحظة، وأحيانًا قبل اجتيازهم للحدود السوفياتية على أمل وضع

اليد على محتوى الحقائب الدبلوماسية. وعندما كان الرسل يسافرون في قطار الليل الذي يربط موسكو مع بتروغراد كان يضاف إلى القطار حافلة خاصة مزودة بمختبر تصوير... حتى إذا سنحت فرصة "لزيارة" الحقائب خلال نوم ناقل البريد أمكن تصوير ما يلزم من محتوياتها... فقد اضطر ناقل بريد عام ١٩٢١ يعمل لدى البعثة التجارية الفنلندية في موسكو إلى مقاومة إغراءات عميلة للتشيكا كان هدفها الوحيد إبعاده عن حقيبته... وبعد ذلك بمدّة جرى تنويم ناقل بريد فنلندي آخر بواسطة شاي مخدّر وتم تصوير محتوى حقيبته بسرعة في الحافلة ـ المختبر. وكانت تلك المرة الأولى التي تلجأ فيها الاستخبارات السوفياتية إلى مواد مخدرة ضد هدف دبلوماسي. وعلى عكس الـ INO في عشرينات القرن العشرين، كانت الـ KRO تملك مختبرها الخاص واختصاصييها الذين كانوا يعطون دروسًا في فن فتح الحقائب الدبلوماسية وصنع الأختام الرسمية، وكانوا ينتجون أيضًا الحبر السري والمواد المخدرة. وكان بالتأكيد أبرز نجاح حققته الـ KRO ضد الدبلوماسيين الأجانب استدراجها للأستوني "رومان بيرك" الذي خسر مبالغ كبيرة من المال خلال لعبة الورق مع عميل للتشيكا في موسكو. ولعدم قدرته على تسديدها اضطر بيرك بالمقابل إلى وضع محتوى حقيبته بتصرف التشيكا. وليس هذا فقط بل جندته هذه الأخيرة واشترك في ما بعد بعملية الخداع "تروست" التي شكلت أكبر نجاح عملاني للاستخبارات السوفياتية في عشرينات القرن العشرين.

ويبدو أن الـ KRO اخترعت خطة أكثر شيطانية عام ١٩٢٢ لمعالجة وضع "روبرت هودجستون"، المسؤول عن البعثة التجارية البريطانية. فقد روى موظف قيصري سابق، تبدو أقواله جديّة، أنّ مفوضية الشؤون الخارجية عرضت عليه منصبًا لكنها طلبت منه مقابل الحصول عليه التجسس على البعثة البريطانية... وكتب عندها

هودجستون إلى وزارة الخارجية البريطانية "حاول جماعة رولـلر (رئيس الشعبة البريطانية في الـ KRO) استدراجي إلى منزله لتخديري وتفتيش جيوبي معتقدين أنه بهذه الطريقة سيحصلون على معلومات قيمة. لكن هذا الشخص ذكر الأسباب البديهية التي تعترض تنفيذ هذا الاقتراح الذكي ومنها سيارة البعثة التي ستكون بالانتظار خارجًا، الأسئلة التي سيطرحها موظفو البعثة عند غيابي الطويل وقد يستتبع ذلك تعقيدات لن تستسيغها الحكومة السوفياتية". فاقتنع ارتوزوف وألغيت الخطة...

وفي خضم هذه الحرب غير المعلنة ضد البعثات الأجنبية في موسكو، كانت الوسائل الأكثر اعتمادًا لدى الـ KRO هي التخويف والتهديد وكان الهدف موظفي البعثات. ففي شهر أيار - مايو من العام ١٩٢٤ بعث هودجستون إلى مفوض الشؤون الخارجية "لشفينوف" برسالتين "وديتين تمامًا" تتضمنان أمثلة عن المضايقة الشديدة التي تعرضت لها البعثة طوال العامين المنصرمين. وفعل هودجستون ذلك لاعتقاده، وكان محقًا، أن المفوض لا يوافق على بعض تجاوزات الـ OGPU. وكان متورطًا في العديد من هذه الحالات ضابط في الـ OGPU يحمل اسم "أناتولي يورغنز"، وقال هودجستون عنه "يبدو أن اختصاصه كان ترويع النساء وبخاصة الفتيات". وبالفعل في بداية العام ١٩٢٢ استدعى يورغنز إحدى الخادمات العاملات في البعثة، وتدعى "تيريزا كوش"، وهددها بالسجن المؤبد ما لم توقع على مستند يلزمها بالتجسس علىالبعثة وتقديم تقرير أسبوعي إلى التشيكا. ويتابع هودجسون "من شدة خوفها قبلت في النهاية ووقعت على المستند. وهددت بعقاب رادع في حال كشفت لي عن ذلك. وعندما قررت الهجرة في ما بعد واجهت رفضًا شديدًا بحجة أنها متورطة بحادث وقع في "إيكاتيرينوسلاف" مع العلم أنها لم تذهب إلى هذه المدينة ولا مرة في حياتها".

وفي بداية العام ١٩٢٣ مارس يورغنز ضغوطًا مشابهة على امرأة عجوز تدعى "ماريا شمغمان" كانت قد تعرفت على هودجستون من خلال بيعها له قطع أثاث قديمة. فقد أكد لها يورغنز أنها لن تغادر مبنى اللوبيانكا حية ما لم توقع على مستند يلزمها بسرقة وثائق من هودجستون والتجسس على البعثة. ودائمًا حسب هودجستون "لم يكن أمامها خيار آخر سوى التوقيع. بعد ذلك اضطهدها يورغنز لفترة طويلة وهددها بعقاب شديد في حال افصاحها عن الأمر إلى أحد ما".

وفي الأشهر الأولى لعام ١٩٢٤ تعرضت "تاتيانا لفتسكايا" حبيبة موظف في البعثة إلى ابتزاز مماثل. وعندما رفضت حكم عليها بالنفي ثلاث سنوات إلى منطقة ناريم بتهمة التجسس لبريطانيا.

وكتب هودجستون في تقريره إلى وزارة الخارجية: "لكن معاملتنا أفضل نسبيًا من المعاملة التي لقيتها البعثات الأخرى". فالمفوضية البولنديّة بعد احتجاجها الشديد ضد مضايقات الـ OGPU تلقت اعتذارات شكلية من مفوضية الشؤون الخارجية... بينما هودجستون لم يتلق مثلها. لكنه أشار إلى رؤوسائه في آب ـ أغسطس ١٩٢٤ أن تهديدات الـ OGPU توقفت (موقتًا كما تبين فيما بعد) منذ أن بعث برسائله في شهر أيار ـ مايو: "يبدو واضحًا أن السيد تشيتشيرين تعامل بجدية مع الأمر وحرص على عدم تكرار أحداث بشعة متشابهة في المستقبل".

ويبدو أنه كان أسهل على التشيكا وعلى الأجهزة التي خلفتها، اختراق البعثات الدبلوماسية الغربية خارج أوروبا من اختراقها لها داخلها. ففي بداية عشرينات القرن العشرين زَوّدت عشيقة القنصل البريطاني في مدينة "رشت" في إيران ضابطًا من التشيكا يدعى "إبرسوف" بوثائق عشيقها السرية. وبعد إقامته في "مشهد" عام ١٩٢٣ كممثل مقيم للـ OGPU تمكن إبريسوف من الحصول من داخل القنصلية البريطانية

علىنسخ من التقارير التي كان يرسلها القنصل إلى سفارته في طهران بالإضافة إلى مراسلات الملحق العسكري في تلك السفارة مع قيادته العليا في الهند.

وفي تلك الحقبة التي سبقت استلام ستالين السلطة نهائيًا كانت بكين العاصمة التي شهدت الاختراق السوفياتي الأكبر والأسهل للبعثات الغربية. فخلال مداهمة الشرطة للسفارة السوفياتية في هذه المدينة في شهر نيسان ـ إبريل ١٩٢٧ عثر على نسخ عدد من الوثائق البريطانية الشديدة السرية. وكان من بينها حسب الخارجية البريطانية "اثنتان من أهم البرقيات التي أرسلها السفير السيد "ميلز لامبسون" خلال الأشهر الماضية. وأكد لامبسون أن "تسرب" الوثائق في المفوضيات الإيطالية واليابانية كان أكثر خطورة. إذ إن الوثائق التي حصل عليها من المفوضية الإيطالية تضمنت تحليل رموز البرقيات المرسلة من بكين إلى روما وفي الاتجاه المعاكس، أما تلك الخاصة بالمفوضية اليابانية فقد كانت بالغة الدقة واحتوت على تفاصيل من نوع مكان جلوس الضيوف خلال حفلات العشاء الرسمية وتسجيل للمحادثات بين موظفي المفوضية وزائريها.

وأضاف لامبسون أنه اتضح أن خادم رئيس ديوان القنصلية وعضوًا آخر من العاملين الصينيين في المفوضية البريطانية كانا يعملان لصالح الروس. ولم تستخلص وزارة الخارجية البريطانية العبر من هذه التسريبات المنظمة... فخلال المدّة الواقعة ما بين الحربين لم تكلف نفسها عناء إنشاء دائرة الأمن ولم تضم حتى بين العاملين فيها ضابط أمن واحدٍ. واستمر هذا التقصير في حماية البعثات الإنكليزية وأحيانًا بتهاون لا يصدَّق. ففي العام ١٩٢٤ أشير إلى فقدان وثائق من السفارة في روما وكان متورطًا في العملية عامل محلي واحد على الأقل ومع ذلك استمر تسريب وفقدان الوثائق حتى الحرب العالمية الثانية.

وبالرغم من أن غالبية عمليات التجسس التي استهدفت الممثليات الغربية في بكين قامت بها الاستخبارات العسكرية السوفياتية وليس الـ OGPU، فالملفات التي وجدت في السفارة السوفياتية لدى مداهمتها في نيسان ١٩٢٧ كشفت بعض الوسائل المتبعة في الجهازين...

إحداهما كانت تتعلق بالتعليمات المتعمدة لتجنيد الصينيين ذوي الرتب المتدنية والعاملين في المفوضيات، مثل العاملين في المطبخ والحراس وعمال المنازل إلخ... فكانت تقترح بأنه "إذا كان العمال الأعضاء في الحزب (الشيوعي) مدربين بما فيه الكفاية فبإمكانهم إظهار الكثير من الفعالية في تجنيد العملاء السريين إذا تمكنوا من إظهار بعض المثالية"... وكان يطلب من العملاء المجندين جمع الملاحظات المدونة والمرمية في سلة المهملات وأوراق الآلة الكاتبة التالفة والصيغ الأولى للمستندات الصادرة عن جميع آلات الإرسال المزدوج ألخ...". كما كان هنالك اهتمام خاص بالأوراق المسحوبة (ستانسل). وجاء في التعليمات:

"إنَّ العملاء الذين يسرقون مواد من هذا النوع يجب استثارتهم بالمكفآت المادية. لكن حجم هذه المكافآت يجب أن يظل محدودًا لسببين:

"أ - إن كمية كبيرة من المال بين أيدي عملائنا قد تثير شبهات العاملين الصينيين الآخرين الذين قد يُعْلمونَ رؤوساءهم.

"ب - يجب أن لا يعتقد العميل تبعًا لكمية المكافأة بأن ما يقدمه لنا بالغ الأهمية لكي لا يتفاوض معنا لرفع سعره. بل على العكس عليه أن يعتقد بأننا ننتظر دائمًا منه معلومات أكثر أهمية وأننا بمنحه مكافأة إضافية نأمل أن يتحسن أداؤه في المستقبل... ويجب أن يكون واضحًا أن معاش هؤلاء العملاء يجب أن لا يتجاوز كثيرًا معاشهم لدى أرباب عملهم.

"وإذا مارس عملاء القاعدة عملهم جيدًا فيجب عندها مكافأة العملاء الذين جندوهم لأنهم في الواقع المنشّطون لعمل الأوّل"...

وكان مطلوبًا من عملاء القاعدة أن يظهروا "المواظبة في العمل ودقة في مواعيد الحضور وإخلاصًا ظاهريًا وتعلّقًا برؤوسائهم"... وبشكل عام أن يفعلوا المستحيل لكي لا يتم الارتياب بأمرهم. كما كان مطلوبًا من الذين يوجّهونهم "أن يبقوا حذرين من أي معلومات خاطئة" لأنه إذا افتضح أحد العملاء من قبَل مفوضيته فهي قد تستعمله لتضليل خصمها.

وكان مفككو الرموز يستفيدون كثيرًا من مقارنة الوثائق المسروقة من البعثات الدبلوماسية مع ترجمات لها بالشيفرة، وعلى غرار ما كان يجري في عهد القيصر، كانت تسرق مع الوثائق الأدوات المستعملة في الشيفرة. وفي منتصف عشرينات القرن العشرين عاد الاستماع والتنصت ليُبرز كمصدر هام للمعلومات التجسس الدبلوماسي الروسي. وكانت مسؤولية التنصت على الإرسال ضمن الـ OGPU من اختصاص شعبة خاصة بإدارة "غليب بوكي". وكانت هذه الشعبة في الخدمة في التشيكا منذ العام ١٩٢١ لكنها كانت مسؤولة على ما يبدو عن مخيمات العمل. وشيئًا فشيئًا بدأت التخصص بمجال التنصت. وكان مديرها بوكي قد ولد عام ١٨٧٩ من أب أوكراني يعمل معلم مدرسة، وكان بولشفيًا عتيقًا سجل ما يشبه رقمًا ثوريًا قياسيًا إذ زُجّ به اثنتي عشرة مرة في السجون القيصرية، كما نفي مرتين إلى سيبيريا، وشارك في ثورتي ١٩٠٥ وتشرين الأول ـ أكتوبر ١٩١٧. وأمضى على رأس الشعبة الخاصة ستة عشر عامًا بدون انقطاع من العام ١٩٢١ إلى العام ١٩٣٧ عندما أوقف في حقبة الإرهاب الستاليني. وكانت الشعبة الخاصة قد نجحت منذ منتصف عشرينات القرن العشرين بزرع ميكروفونات سرية في بعض السفارات في موسكو بالإضافة إلى

تفكيك رموز الشيفرة الخاصة بها. ويدّعي البعض أن بوكي قام في أحد الأيام بتقديم البرهان الساطع على عبقرية الشعبة تقنيًا حين دعا تشيتشيرين لكي يستمع مباشرة إلى تسجيل للقاء حميم كان يدور بين السفير الأفغاني في موسكو ومطربة أوبرا كانت تعمل مخبرة لدى الـ OGPU[١].

وفي آذار ـ مارس ١٩٢١ عندما بدأت روسيا تخرج تدريجيًا عن عزلتها الدبلوماسية إثر توقيع الاتفاقية التجارية مع لندن، كان أداء تجسسها الدبلوماسي من أسوأ ما يكون. فكانت المعلومات الوحيدة التي تمكنت الـ INO من الحصول عليها حول السياسة الخارجية "للخصم الأول" أي بريطانيا متأتية من تحليلات رانسوم المغلوطة. لكن هذا الأداء كان قد تحسن بشكل ملموس قبيل العام ١٩٢٦ الذي شهد وفاة دزرجنسكي. فالتنصت وبالرغم من عدم وصوله إلى المستوى السائد أيام القيصر أصبح يحتل مرتبة مهمة في عمليات جمع المعلومات. وقد وفر اختراق السفارات في موسكو للروس أفضل حصاد من المعلومات الدبلوماسية في العالم. لكن على العكس من ذلك أصبحت هذه المدينة مكانًا بالغ الخطورة بالنسبة لأجهزة الاستخبارات الغربية، فلم تقم الـ SIS أية محطة لها في حقبة ما بين الحربين العالميّتين. بل حاولت هذه الأخيرة مثل غالبية الأجهزة الغربية أن تتسلل إلى روسيا عبر حدودها مع فنلدا ودول البلطيق ولكنها لم تحرز تقدمًا يذكر.

أما الجانب البريطاني فكان يعوض عن افتقاده للمعلومات الدبلوماسية، مصدر تفوقه الكاسح في مجال اعتراض الإرسال وبوصوله إلى اتصالات الكومنترن. وبينما كانت الشيفرة الدبلوماسية الفائقة السرية الخاصة بالعهد القيصري قد استعصت على

---

١ ـ Brook-Shepherd Gordon, *The Storm Petrels*, Collins (Londres, 1977) p. 104.

جميع المحللين الأجانب، قبل الحرب العالمية الأولى على الأقل، فإن تلك الخاصة بالاستخبارات والدبلوماسية السوفياتية ظلت قابلة للتفكيك في العقد الذي أعقب الثورة. وكان الكومنترن في ذلك الوقت قابلاً للاختراق مثلما كانت السفارات الغربية في موسكو، وكانت إدارته مدركة "أن العديد من أسرارها قد وصل إلى عملاء الحكومات الغربية". وقد نجح الـ MI-5 والشعبة الخاصة في لندن ومكتب استخبارات "داج" في دلهي في اعتراض سيل من اتصالات الأممية الموجهة إلى الخلايا الشيوعية الإنكليزية والهندية بالإضافة إلى تلك الصادرة عن هذه الأخيرة. وتشكل المعلومات التي وفرها الاعتراض أهمية كبيرة للشيوعيين الهنود الذين يرغبون بكتابة تاريخهم. وكان يحدث أحيانًا أن يحاول الكومنترن إخفاء ثغراته الأمنية مخافة أن يستغل الـ OGPU ذلك لإحكام رقابته عليه.

ولم تكن الملفات تختفي فقط في الكومنترن. فلدى توجه "فاسيلي كولاروف" مندوب بلغاريا لدى اللجنة التنفيذية للكومنترن على متن قطار إلى مينسك لتمثيل الأممية في احتفال عسكري، اكتشف لدى استيقاظه أن ثيابه وحقيبته سرقت. ولدى وصول القطار إلى المحطة أبصر عبر النافذة مجموعة من الضباط ينتظرون بوضعية التحية، فيما كانت فرقة موسيقية تعزف لحناً عسكريًا. ولما تعذر عليه الخروج من الحافلة ساد التوتر صفوف الضباط... لكنهم أدركوا في نهاية الأمر أنه لا بد أن يكون في وضعية مزعجة فعملوا على إخراجه بسرعة بعد أن أعاروه معطفًا وحذاء... كما تعرض مندوب إيطاليا لدى اللجنة نفسها "بالميرو توغلياتي" المعروف أيضًا باسم "أركولي" إلى حادثة مزعجة مماثلة. ففي أحد الأيام قامت إينوكوسينين بزيارة توغلياتي وزوجته في الفندق في موسكو: "قرعت الباب فأجابني توغلياتي بأنه لا يستطيع أن يفتح لي لأنه لا يوجد لديه شيء ليستر به جسده... إذ كانت جميع أمتعته قد سرقت

خلال الليل... ويبدو بديهيًا أن اللصوص دخلوا الغرفة عبر الشرفة والنافذة المفتوحة فيما كان توغلياتي وزوجته غارقين في النوم".

لكن الذي اتسم بخطورة أكبر هو استمرار تبخر الأموال التي كان يمنحها الكومنترن إلى الشيوعيين الأجانب، فكانت عرضة للسرقة، أما عن طريق رسل طامعين أو حتى رسميين شيوعيين. فالقائد الشيوعي الهندي "م. ن. روي" أمضى زمنًا في باريس في حال من البذخ وسافر كثيرًا على حساب أموال الكومنترن في الوقت الذي كان يشتكي فيه الحزبيون الهنود ملمّحين إلى أن مبالغ كبيرة من المال قد "ضاعت". وكلما كان الكومنترن يستوضح روي عن كيفية إنفاقه للأموال كان هذا الأخير يقدم لائحة بأسماء شيوعيين وهميين مدعيًا أنه دفعها لهم كمساعدات.

وشعرت الأممية بانزعاج شديد خلال الأضراب العام الذي جرى في بريطانيا عام ١٩٢٦. فقد أوكلت إلى "آلان والينيوس" أمين مكتبة الكومنترن الأنكلوفونية مهمة نقل مبلغ ثلاثين ألف جنيه استرليني إلى المسؤولين الشيوعيّين عن عمال الأحواض في لندن. فذهب إلى استوكهولم بواسطة جواز سويدي مزوّر حيث استقل باخرة متوجهة إلى إنكلترا. وخلال الرحلة تعرف على ميكانيكي يعمل على متنها في موضع المرجل، أقنعه بأنه شيوعي مخلص، وادعى معرفته الشخصية بالمسؤولين الشيوعيين عن عمال الأحواض. ولدى عودته إلى روسيا برر والينيوس نفسه أمام أوتوكوسينين قائلاً بأن الميكانيكي وعده بإيصال المال شخصيًا. وروت زوجة كوسينين تكملة الحادثة فيما بعد قائلة "سأله أوتو بجفاء وماذا كان اسمه؟ فأجابه والينيوس: قاله لي ولكنني نسيته! فاحتقن أوتو غاضبًا وأشار عليه بالخروج. ولا حاجة للقول بأن المال لم يصل أبدًا".

إلا أن الحكومات الغربية أدركت في بعض المناسبات أن الثغرات الأمنية المتكررة في جهاز الكومنترن والتي كانوا يستفيديون منها مباشرة أوقعتهم أحيانًا في

مآزق خطيرة. فكان يتحول أحيانًا اعتراض أجهزة هذه الحكومات الحقيقي لاتصالات الكومنترن إلى مصدر بلبلة بسبب تزوير الوثائق. إذا كان المزورون الروس البيض في برلين وتالين وفرصوفيا يصنعون وثائق مشابهة لوثائق الأممية الشيوعية والحكومة السوفياتية بهدف كسب المال وتشويه سمعة البولشفيك. وكان الغربيون يقعون في حبائلهم. ففي أيلول ـ سبتمبر ١٩٢١ أوردت وزارة الخارجية البريطانية في مذكرة احتجاج موجهة إلى موسكو وثائق الصادرة عن الحكومة السوفياتية والكومنترن تبين فيما بعد أنها زُوِّرت في برلين. وأعلن السير "وندهام شايلدز" المسؤول عن الشعبة الخاصة بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٨ أن هؤلاء المزورين "وباء لا يطاق" إذ إنهم وفروا للروس "الفرصة ليقولوا إنّ جميع الوثائق مزورة بما فيها الأصلية منها".

وأصبح هذا المزيج من الوثائق الأصلية والمزيفة، التي كانت توصف على السواء بالمزورة شكلاً من أشكال التضليل الإعلامي مارسه الكومنترن والـ OGPU بنجاح كبير. وكان أشهر نموذج عن ذلك "رسالة زينوفييف" المزعومة الصادرة بتاريخ الخامس عشر من أيلول ـ سبتمبر ١٩٢٤ والتي اعترضها الـ SIS ونشرت في الصحافة إبان الحملة الانتخابية في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٢٤. وكانت هذه الوثيقة توصي الشيوعيين البريطانيين بممارسة الضغط على مناصريهم العماليين وبتكثيف "أعمال التحريض والدعاية السياسية في صفوف القوات المسلحة"، وبشكل عام التحضير للثورة في إنكلترا. وقد حُملت هذه الرسالة على محمل الجد لدرجة أنها أتاحت للمحافظين الفوز بالانتخابات وذهاب أول حكومة عمالية في تاريخ بريطانيا. ومنذ ذلك الوقت لم يعثر على النسخة الأصلية لرسالة زينوفييف مما يجعل أمر التأكد من صحتها شيئًا مستحيلاً. وبالتأكيد كانت وثائق الأممية المزورة كثيرة ولكن لم يكن ليقل عنها رسائل الأممية الحقيقية التي كانت تعترضها أجهزة الاستماع الإنكليزية.

وأعلنت حكومة المحافظين الجديدة أن أهم ما ورد في الرسالة تؤكده مصادر معلومات أخرى. ونعلم اليوم أنها كانت تعني بذلك عميلاً في الـ MI-5 "موثوقًا به" كان مندسًا في المقر العام للحزب الشيوعي البريطاني، وكان يزود الجهاز باستمرار بمعلومات جديرة بالثقة عن اتصالات أخرى للكومنترن. وفي نهاية العام ١٩٢٤ انتقد الكومنترن بشدة الحزب الشيوعي البريطاني لإهماله في استعمال البرقيات السرية. وفي النهاية يبقى الاحتمالان قائمان فإما أن تكون رسالة زينوفييف أصلية أو تكون مزيفة، وفي الحالة الثانية لا بد أن تكون التعليمات الواردة فيها مشابهة لحد كبير للمعلومات التي استحصل عليها عميل الـ MI-5 فالتبس الأمر على هذا الأخير ومزج بينها.

وإن كان الكومنترن محقًا أم لا في إعلانه أن الرسالة مزيفة فإن هذا الموقف أتاح له القيام بحملة تضليل إعلامي ناجحة ليقول بأنه لم يرسل أبدًا مثل هذه التعليمات إلى أعضاء الحزب، بينما في الواقع كان ذلك يحصل غالبًا. وكان الركن الأساسي في خطته للدعاية السياسية بعثة من الـ TUC (مجلس اتحاد النقابات) مؤلفة من ثلاثة نقابيين ساذجين أتت من لندن في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٢٤ لمعاينة ملفات الأممية والتحقق من أمر رسالة زينوفييف. وروت إينو كوسينين في كتابها "ثلاثة أيام من النشاط المحموم" كانت ضرورية لمحو التعليمات السرية المرسلة إلى الشيوعيين الإنكليز بالإضافة إلى وثائق محرجة قبل زيارة البعثة. وحتى سجل المراسلات اليومية أعيدت كتابته وتنقيحه بالكامل "وكانت النتيجة أن الثلاثي خرج من زيارة الكومنترن مخدوعًا وأبرئت ساحة الجهاز من أيّ تهمة تخريب ونشاط سري في إنكلترا. وتنفس الجميع الصعداء بعد رحيل البعثة وضحكوا كثيرًا لسهولة تضليل الإنكليز"...

وكان من نتائج قضية رسالة زينوفييف أن أخضع النشاط السري للـ OMS إلى رقابة أقوى من قبل الـ OGPU ، وبالنسبة للمواضيع ذات الطابع العسكري لرقابة قسم

التجسس العسكري السوفياتي الذي كان يدعى وقتها "المتكب الرابع في مجلس القيادة العام"، وأصبح في ما بعد الـ GRU. فضاعفت الـ OGPU من عدد مخبريها داخل شبكات الـ OMS وعملت هذه الأخيرة على تحسين حماية اتصالاتها. وفي العام ١٩٢٥ أنشأ "أبراموف" معاون بياتنيتسكي الأول في الـ OMS مدرسة في ميتيشي في ضاحية موسكو من أجل إعداد عاملي راديو أجانب. وبعد محاولة والينيوس الفاشلة لإيصال أموال إلى عمال الأحواض الشيوعيين في لندن اعتُمدت قنوات أكثر أمانًا بإشراف الاستخبارات العسكرية وبمساعدة "إيدوفيمان" قائد الاتحاد العمالي لبحارة وعاملي أحواض هامبورغ. وكان يجري امتحان إخلاص الرسل، وكانوا غالبًا من البحارة، مرات عدة.

وبالرغم من النجاحات المتنامية للتجسس السوفياتي فقد ظل هدفه الأساسي في عشرينيات القرن العشرين القضاء على الثورة المضادة وليس إضعاف الحكومات الرأسمالية، كما كان الهدف عند تأسيس التشيكا. وحتى نهاية الحرب الأهلية كان التهديد الأساسي المضاد للثورة موجودًا علىالأرض الروسية. ولكن مع إجلاء آخر جيوش البيض في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٢٠ فإن قواعد المعارضين هاجرت هي الأخرى. وفي الأول من كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٢٠ أمر لينين دزرجنسكي بوضع خطة من أجل تحييدهم وإضعافهم. فاقترح دزرجنسكي بعد أربعة أيام مخططًا للهجوم على جبهات متعددة. الأول، يقضي بأخذ عائلات المهاجرين الأكثر شهرة كرهائن، والثاني يقضي بإنشاء فرق خاصة للاعتداءعلى قادة المهاجرين، والثالث يقضي بالاستخدام المكثف للعملاء المحرضين كما جرى أيام مؤامرة لوكهارت[١]. ومن أجل

---

١ - Gerson Leonard D, *The Secret Police in Lenin's Russia,* Temple University Press (Philadelphia,1976) pp. 234-235.

"كشف الوكالات الأجنبية العاملة على أراضينا" أقترح "إنشاء جمعيات مزيفة للحرس الأبيض"[1]. وكان التهديد الذي يشكله هؤلاء على النظام البولشيفي ضعيفًا جدًّا، ولكنه في ذهن لينين أخذ أبعادًا كبيرة. فأعلن أمام المؤتمر الثالث للكومنترن المنعقد في تموز - يوليو ١٩٢١: "الآن بعد أن ردّينا هجوم الثورة العالمية المضادة على أعقابه تشكلت في الخارج منظمة تضم البورجوازية الروسية وجميع الأحزاب القديمة المضادة للثورة. ويقدَّر عدد الروس المهاجرين والمبعثرين في جميع الدول الغربية ما بين مليون ونصف إلى مليونين... بإمكاننا رؤيتهم كيف يعملون سوية وبمعزل عن أحزابهم السياسية السابقة... إنّهم يستغلون بمهارة كل فرصة تسنح لضرب روسيا السوفياتية وتفتيتها... يجب أن نأخذ درسًا من بعض مزايا هذا العدو... فهو مطّلع جيدًا ومنظم بشكل ممتاز واستراتيجي ماهر... ويقول مثل قديم إنّ الجيش المنهزم يتعلم كثيرًا. إنهم يتعلّمون الآن بنهم كبير وأنجزوا خطوات كبيرة". واستنهض لينين "الرفاق الأجانب" لمراقبة الحرس الأبيض المقيم في بلادهم.

وكان الـ K.G.B لا يزال يذكر إلى وقت قريب بين انتصاراته الكبرى الماضية عمليات الخداع التي استهدفت المهاجرين بعد الحرب الأهلية. واحتلّت عمليتان من هذا النوع، وهما "سنديكات" و"ترست" موقعًا بارزًا في دروس الإعداد للإجراءات النشطة التي كان يؤمنها معهد اندروبوف في المديرية العامة الأولى.

استهدفت عملية سنديكات الرجل الأكثر خطورة بين الحرس الأبيض "بوريس سافينكوف". الذي كان إرهابيًا اشتراكيًا ثوريًا في السابق ونائب وزير الحربية في حكومة كرينسكي. كما كان خلال الحرب البولندية - الروسية عام ١٩٢٠ رئيسًا للجنة

---

١ - Melgounou S. P., *The Red Terror in Russia* (London,1925), p. 253.

السياسة الروسية (CPR) المعادية للبولشفية في فرصوفيا وأحد المسؤولين الرئيسيين عن التجنيد في جيش الشعب الروسي الذي حارب تحت إمرة القيادة البولونية الجيش الأحمر. وفي كانون الثاني - يناير ١٩٢١ أنشأ بمن تبقى من اللجنة السياسية الروسية منظمة جديدة للإطاحة بالبولشفيك اسمها "إتحاد الشعب من أجل الدفاع عن الوطن والحرية NSZRIS". وأرسلت هذه المنظمة عميلاً إلى روسيا من أجل جمع المعلومات والتحضير لانتفاضات ضد النظام. وطبقًا للرواية السوفياتية فإنه "سرعان ما أصبح عملاء سافينكوف يقبضون مرتبات من الموازنة البولندية، كما ساعدتهم شرطة هذا البلد علىاجتياز الحدود[١]". وبالرغم من المساعدة البولندية وبعض الإعانات الصغيرة من الفرنسيين والإنكليز والتشيكوسلوفاكيّين، كان سافينكوف على حافة الإفلاس. فأبرق رئيس محطة الـ SIS في فرصوفيا إلى المكتب المركزي في حزيران ـ يونيو ١٩٢١ ما مفاده "إنّ الوضع صعب ويائس، إن كل ما تبقى في الحساب سبعمائة ألف مارك بولندي وهذا لا يكفي حتى لدفع معاشات شهر تموز - يوليو".

ولكن سافينكوف لم يدرك أن مشكلته الأشد خطورة لم تكن ضعف الموارد المادية بل الاختراق السوفياتي. ففي كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٢٠ أي في الفترة التي كان يقوم فيها بتنظيم الـ NSZRIS في بولندة، استقبل مساعد رئيس أركان إدارة قوات الداخل السوفياتية "ألكسندر أوبربوت" الذي أعلن له عن انتماءه إلى شبكة سرية معادية للبولشفيك. ولتأكيد أقواله أحضر معه حقيبة مليئة بالوثائق المزيفة. وكان اسمه الحقيقي "بافيل سليانينوف"، واتضح أنه من أخطر عملاء التحريض لدى التشيكا. وكان من المفترض أن يثير اسمه وحده الشكوك، في وقت كان النظام السوفياتي يدخل العديد من

Gordievsky David, *The Secret War Against Soviet Russia,* (Moscou,1981), pp. 90-91. - ١

الكلمات المختصرة على اللغة الروسية. فوقْعُ اسم "أوبربوت" على السمع يذكر بشكل غريب بتركيب مؤلف من اختصار كلمتي أوبراتسيا (عمليّة) وبوتات (خفيفة) في اللغة الروسية أي عملية خفيفة. ولم يفطن سافينكوف ولا الأجهزة السرية الغربية لهذا الأمر ممّا أتاح لأبربوت أن يتعامل معهم بحرية ويخدعهم طوال سنوات عدة. وجعل منه سافينكوف أحد مساعديه الأوائل متمنيًا له بذلك التعرف على أبرز أعضاء الـ NSZRIS المندسين في روسيا. ممّا مكن التشيكا من إلقاء القبض على معظمهم فحوكم أربعة وأربعون ومنهم في آب ـ أغسطس ١٩٢١. ومن أجل المحافظة على هويته الحقيقية أعلنت التشيكا أنّه قد اعتقل.

وبفضل معلومات أوبربوت استطاع السوفيات تقديم مذكرة احتجاج رسمية إلى الحكومة البولندية بشأن نشاطات سافينكوف التخريبية انطلاقًا من معقله في فرصوفيا. وفي تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٢١ وبناءً على إلحاح البولنديين نقل سافينكوف مقره العام إلى براغ ومن ثم إلى باريس. بعد ذلك ابتدأ تنفيذ الشق الثاني من عملية التشيكا المسماة "سنديكات ـ ٢" والهادف إلى القضاء على من تبقى من المنظمة في روسيا والغرب، وكان الهدف النهائي له استدراج سافينكوف إلى موسكو ومحاكمته علنيًا بشكل ملفت. وقد سهل هذا الأخير سير العملية إذ إنّه أخطأ أكثر فأكثر في فهم مجريات الأحداث. ففي نهاية العام ذهب إلى انكلترا والتقى من جديد ونستون تشرشل وقام بجولة على مختلف الشخصيات السياسية. حتى أنه توجه إلى البعثة التجارية السوفياتية وتحادث مع كراسين. وأعلن بعد خروجه من اللقاء أن كراسين تأثر جدًا برؤيته لروسيا ما بعد البولشفية واقترح عليه الانضمام إلى الحكومة السوفياتية. وتمنى السير "مانسفيلد كومنينغ" رئيس الـ SIS (على الأرجح بناء لمعلومات أجهزة الاستماع) على وزارة الخارجية عدم الوثوق بما أعلنه سافينكوف إذ إنّه في الحقيقة "لم يلق أي

استقبال لائق". وبُعَيد عيد الميلاد اصطحب تشرشل سافينكوف بسيارته إلى شيكرز مكان إقامة رئيس الوزراء، فوجداه محاطًا بقساوسة وبكورس كان ينشد منذ ساعات تراتيل "غاليّة Gauloises". وخلال وقفة استراحة بين التراتيل حاول سافينكوف عبثًا أن يقنع رئيس الوزراء بمشروعه الخيالي. لكن لم يمنعه ذلك في ما بعد من إعطاء رواية ذاتية جدًا لهذا اللقاء بعيدة عن الواقع إذ قال إنّ التراتيل المنشدة من قبل الكورس تحولت إلى "يا رب أنقذ القيصر" رتلها لويد جورج مع عائلته...

بالرغم من ازدياد نزوات سافينكوف فقد ظل شخصية جذابة لدى جمهوره القليل. حتى تشرشل كان يشعر بنوع من الإعجاب تجاهه إذ قال "في النهاية ورغم كل القذارات والفشاوات فإنه يمكن القول بأن رجالاً قلائل استمروا في المحاولة وأعطوا وتجرؤا وتعذبوا من أجل الشعب الروسي[١]". وفي صيف ١٩٢٢ قبض حرس الحدود السوفيات على مساعد سافينكوف "ل. د. ششينيا" الضابط القيصري السابق عند الخط الفاصل الروسي - البولندي. وبأمر من الـ GPU كتب إلى مناصري سافينكوف في بولندة أنه تمكن من الاتصال بشبكة سرية منظمة جيدًا. وقام بعدها ضابط من الـ KRO يدعى" فيودوروف" برحلات مكوكية بين روسيا وبولندة مدعيًا أنه "ا. ب. موخين" أحد قادة هذه الشبكة السرية الوهمية القائمة في موسكو، وتمكن من إقناع "إيفان فوميتشوف" المسؤول عن منظمة سافينكوف في "فيلنيوس" بالعودة معه إلى روسيا. وفي موسكو أجرى فوميتشوف مباحثات مع الزعماء الوهميين للشبكة المعادية للبولشفية الذين أقنعوه بالطلب من سافينكوف أن يتولى إدارة مجموعتهم.

---

١ - Churchull Winston S., *Great Contemporaires*, Odhams (London,1947), p. 101.

التقى "موخين" بسافينكوف في باريس في تموز ١٩٢٣. وقال له بأن المناضلين السريين في موسكو يسودهم انقسام شديد فيما يخص التكتيك الواجب اتباعه وأنهم بحاجة ماسة إلى خبرته في القيادة. لكنه بدل أن يذهب بنفسه إلى موسكو أرسل سافينكوف مساعده الكولونيل "سرغي بافلوفسكي". وعند وصول هذا الأخير إلى العاصمة الروسية تمّ توقيفه. وبحسب رواية الـ K.G.B المبالغ فيها فإنه بعد أن أظهر "الكثير من العدائية" في البداية عاد "وقبل بالتعاون مع الـ GPU الذي أسند إليه دورًا في هذه القضية". وارتكز هذا الدور على إرسال سلسلة من الرسائل إلى سافينكوف تحثه على المجيء إلى موسكو. وفي النهاية، في تموز - يوليو ١٩٢٤ وقع هذا الأخير في الفخ. فأبرق إلى صديقه القديم سيدني رايلي راجيًا إياه أن يترك نيويورك لمساعدته على تحضير مهمته السرية في وطنه. وفي الخامس عشر من آب - أغسطس بعد ثلاثة أسابيع من المحادثات مع رايلي، اجتاز الحدود الروسية مع مجموعة من أنصاره فوقع مباشرة في مصيدة الـ OGPU. وخلال استجوابه انهارت مقاومته بسرعة. وخلال محاكمته العلنية والملفتة انهار وقال "إنني أعترف بلا قيد أو شرط بالسلطة السوفياتية ولا بأحد غيرها. أنا الذي اجتزت طول هذا الطريق المؤدي إلى النضال الدامي والقاسي ضدكم... أنا الذي رفضتكم كما لم يفعل أحد، أتوجه إلى كل روسي محب لوطنه وأقول له: إذا كنت روسيًا محبًا لشعبك فعليك الخضوع أمام السلطة الممثلة للعمال والفلاحين والاعتراف بها من دون أي تحفظ".

ومكافأة له على ارتداده لم يوجه إليه حكم الاعدام بل نال عشر سنوات من السجن. وطبقًا لرواية الـ K.G.B الرسمية رمى سافينكوف بنفسه من نافذة زنزانته في أيار - مايو ١٩٢٥. ولكن سافينكوف دُفع عمدًا إلى بئر في اللوبيانكا وقد دل قدامى الـ K.G.B على المكان معبرين عن اقتناعهم بأنه دفع إليه...

أما العملية التي فاقت السنديكات في نجاحها فكانت المؤامرة التي دبرتها التشيكا بفضل شبكة سرية مؤيدة للقيصرية ووهمية بالكامل حملت اسم الجمعية الملكية لروسية المركزية (MOR باللغة الروسية) والتي اشتهرت أكثر تحت اسم الشيفرة الروس "TREST" (تروست TRUST) والتي استمرت ست سنوات كاملة وكانت من أروع عمليات الخداع في تاريخ الاستخبارات الحديث في زمن السلم، ومثالاً يحتذى في هذا المجال. واستهدفت عملية تروست خاصة اثنين من أهم تجمعات الروس البيض المهاجرين وهما المجلس الملكي الأعلى (VMS بالروسية) ومركز برلين والثاني الاتحاد الروسي للقوات المشتركة (ROVS) برئاسة الجنرال الكسندر كوتييبوف ومركزه باريس. وأول مرة كشف فيها النقاب عن وجود الجمعية الملكية لروسيا المركزية في الخارج كان في خريف ١٩٢١ عندما التقى ضابط الـ KRO الكسندر ياكوتشيف بمندوب المجلس الملكي الأعلى في تالين يوري ارتامونوف مدعيًا أنه عضو في التروست ينتقل في الخارج تحت ستار تمثيله للتجارة الخارجية السوفياتية. وهكذا تمكنت الـ KRO من إقامة اتصال مع المجلس الملكي الأعلى عبر ارتامونوف الذي عين عام ١٩٢٢ مندوبًا للاتحاد الروسي للقوات المشتركة واستقر في فرصوفيا. وتمكن ياكوتشيف ورُسُل التروست الآخرون المرسلون من قبل الـ KRO من نسج علاقات كثيرة مع المهاجرين الروس في ألمانيا وفرنسا وبولوندة. وفي بعض المناسبات تنقل ياكوتشيف برفقة الجنرال نيقولاي بوتابوف وهو ضابط قيصري سابق انضم إلى البولشفيك غداة الثورة والذي كان يدعي أنه رئيس مجلس قيادة التروست.

ويعود الفضل في الاستحواذ على ثقة الجنرال كوتييبوف الذي كان بين الحرس الأبيض الأكثر وعيًا من خطر التحريض السوفياتي إلى ماريا زخارتشنكو ـ شولتز التي ترملت مرتين من ضابطين قيصريين. وكانت بعد وفاة زوجها الأول خلال

الحرب العالمية الأولى تركت طفلها لدى أصدقاء لها وتطوعت للذهاب إلى الجبهة. أما زوجها الثاني فقد قتل خلال الحرب الأهلية، وشاركت في انسحاب القوات البيضاء نحو يوغوسلافيا. وفي العام ١٩٢٣ انضمت إلى منظمة كوتيبوف واتخذت لنفسها اسمًا رمزيًا (ابنة الأخ) وذهبت إلى روسيا للاتصال بتروست. وتصفها بيبيتا رايلي زوجة الجاسوس البريطاني الشهير الأخيرة قائلة "كانت ممشوقة على قدر من الجاذبية رغم أنها لم تكن جميلة الوجه، تبدو على محياها إمارات الكفاءة والحزم والصدق، عيناها زرقاوان وتبدو عليها مظاهر التربية الحسنة وكانت شديدة التطابق مع وصف سيدني لها بمعلمة المدرسة". وساهمت زخارتشنكو - شولتز، عن عدم وعي منها، مساهمة فعالة في مخططات التروست. فكان لا بد من اتهامها بالانتماء إلى هذه الجمعية. لكن رواية الأحداث الملقنة في معهد اندروبوف التابع للمديرية العامة الأولى تصفها عن حق كأمرأة تلاعب بها "الكسندر اوبربوت" واستغلها بمهارة بعد أن أغواها لدى زيارتها لموسكو وأقام معها علاقة استمرت لسنوات. وكان لهذا المزيج من الهيام والسذاجة لديها بالإضافة إلى انتمائها إلى دائرة المقربين من كوتيبوف ورايلي ما جعل منها إحدى القطع الأساسية في لعبة التروست.

وقد تمكنت الـ KRO بفضل عملية التروست من القضاء على آخر مؤيدي الحرس الأبيض على الأراضي الروسية بالإضافة إلى اختراقه لأبرز مجموعاتهم في الخارج. كما تمكن من تضليل الأجهزة السرية الروسية بالإضافة إلى اختراقه لأبرز مجموعاتهم في الخارج. كما تمكن من تضليل الأجهزة السرية الفنلندية والأميركية والبولنديّة والبريطانية والفرنسية بدرجات متفاوتة. وقام رومان بيرك الموظف البالطي المرموق الذي كان يبتزه الـ KRO بدور ناقل البريد بين الحرس الأبيض والتروست. كما قبل دبلوماسيون بولنديون نقل رسائل لهذه الجمعية بواسطة الدبلوماسية. وللتمويه ادعى أن

سهولة اجتياز رسل التروست للحدود يعود إلى تواطؤ أحد حرس الحدود توافو فاها مع الجمعية. وبالرغم من عمل هذا الأخير لصالح الاستخبارات الفنلندية إلا أنه كان في الواقع عميلاً للـ KRO. وبالاستناد إلى رواية سوفياتية رسمية تلقى ما لا يقل عن ثمانية أعضاء في التروست مكافآت من جميع الأنواع من أجهزة الاستخبارات الغربية التي انخدعت بهم. وبالإمكان تأكيد هذا الادعاء إذ إنه يبدو أن عميلاً واحدًا للتروست على الأقل تلقى ساعة من ذهب من الأجهزة البولندية.

لكن العملية الأكثر إثارة للتروست تمثلت في الفخ الذي نصبته لمن كان يعتبر جاسوس الجواسيس "سيدني رايلي" والذي أودى بحياته. وكانت الـ KRO مقتنعة بشدة من أنه المعارض الأجنبي الأكثر خطورة. وكان رايلي منذ مغامراته الموسكوفية عام ١٩١٨ يعتبر "خلاص روسيا" "واجبًا مقدسًا". وأسرّ عند نهاية الحرب إلى مدير الـ SIS السيد مانسفيلد كومينغ" "أسمح لنفسي بالاعتقاد بأنه لا يجب على الدولة أن تهمل خدماتي. سأكرس ما تبقى من حياتي التعيسة لهذا النوع من العمل"... ولكن كومينغ وبالأخص وزارة الخارجية، كانا حذرين لمعرفتهما أطباع رايلي الغربية وأفكاره العجيبة (كفكرة إجبار لينين وتروتسكي على نزع سرواليهما). ورفضت الإدارة منحه وظيفة في أجهزة كومينغ في فترة ما بعد الحرب وفترة علاقته مع الـ SIS.

وتعاطى رايلي خلال بضع سنوات العديد من الأعمال في أميركا وأوروبا ابتداء من تصدير الراديوم التشيكي وانتهاء باستثمار علاج معجزة جديد اسمه هوماغسولان، ولكن أيًا منها لم تصب نجاحًا. وفي الوقت نفسه استمر بإعداد خطط خارقة للقضاء على البولشفيك. وكان بوريس سافينكوف شريكه الأساسي في بداية عشرينات القرن العشرين وبفضله تمكن هذا الأخير من زيارة انكلترا عام ١٩٢٢ متجاهلاً تعليمات كومينغ ووزارة الخارجية. وبدا عليه مع مرور السنوات أن إحساسه بالواقع في تراجع

مستمر. وطبقًا لشهادة إحدى سكرتيراته اليونور توي "عـاني رايلـي مرات عديدة من اضطرابات عقلية خطيرة وصلت أحيانًا حد الهذيان. وفي إحدى المرات اعتقد نفسه يسوع المسيح"... ولكن أجهزة التجسس السوفياتية لم تفسر مشاريعه الغريبة على أنها تعبير عن اختلال شخصيته بل باعتبارها مؤامرة خطـط لها الـ SIS وجرت الموافقة عليها على أعلى المستويات في وايتهول. وكان تحييد رايلي على قائمة أولويات التروست في العام ١٩٢٤. وإلى النهاية بقي رايلي يحتفظ في الـ K.G.B بسمعة "جاسوس الجواسيس" الإنكليزي...

لقيت المكيدة التي حاكتها الـ OGPU للقبض عليه دعمًا غير مباشر من صديقه أرنست بويس الـذي كان رئيس محطـة الـ SIS في روسيا عام ١٩١٨. وكان هذا الأخير مسحورًا بذكاء رايلي وشجاعته وإقدامه، ولسذاجته السياسية لم يع عـدم واقعية خطط بطله. في العام ١٩١٩ أصبح بويس رئيس الـ SIS في هلسنكي التي كانت تعتبر القاعدة الأولى للعمليات البريطانية ضد روسيا، ولـم يكن ليعـادل حماسه لتروست إلا اعجابه برايلي. وبدل أن يأخذ العبر من محاكمة سافينكوف في آب ـ أغسطس ١٩٢٤ بقي مقتنعًا بتعاظم شأن تروست وأن لدى هذه الأخيرة مؤيدين سريين داخل الحكومة السوفياتية. وعلـى الرغم من تعليمـات مكتب الـ SIS المركزي التـي حظـرت عليه التورط في دسائس رايلي كتب بويس إلى هذا الأخير في كانون الثاني ـ ينـاير ١٩٢٥ داعيًا إياه للقاء مبعوثين من التروست في بـاريس. فرد عليه رايلي في شـهر آذار ـ مارس من نيويورك حيث كان يكابد العناء للمحافظة على سير أعماله. وبالرغم من أن وضعه الشخصي كان في "حالة لا تطاق" أوضح في رده بأنه "إذا التقى بالأشخاص المناسبين وفي حال توفر فرص عمل حقيقية فإنه مستعد لترك كل شيء من أجل أن يكرس نفسه بالكامل لخدمة لمصالح تروست".

وبعد أن أجل مجيئه مرات عدة بسبب أشغاله الصعبة وصل إلى باريس في الثالث من أيلول - سبتمبر حيث تباحث مع بويس وكوتيبوف وقرر متابعة رحلته حتى فنلندا للقاء مبعوثين من التروست. فنصحه كتيبوف بشدة أن لا يذهب إلى روسيا من هناك. وفي غضون ذلك ومن أجل تدعيم الثقة بها أخرجت التروست سريًا من روسيا بوريس بوناكوف شقيق "عميل بويس الأول" نيكولاي بوناكوف، وبعدها بقليل جلب مبعوث آخر الكمان الخاصة ببوناكوف الذي كان شديد التعلق بها. ولم تثر هذه التصرفات الغريبة العجيبة شكوك بويس ورايلي الذي وصل إلى هلسنكي في الواحد والعشرين من أيلول - سبتمبر وتابع سيره حتى فيبورغ (مرفأ في كاريليا التي كانت تقع في فنلندا قبل أن يضمها الاتحاد السوفياتي عام ١٩٤١) برفقة نيكولاي بوناكوف وماريا زخارتشنكو - شولتز للاجتماع بياكوتشيف مندوب التروست الأول. وكان رايلي مصممًا في البداية على ألا يذهب أبعد من فيبورغ ولكن ياكوتشيف داهنه وأثار غروره وكبرياءه وتمكن من إقناعه بالأهمية القصوى للتحادث المباشر مع القيادة السرية للمنظمة في روسيا. وحصل رايلي على تأكيد منه بالعودة في الموعد المحدد إلى فنلندا حيث كان عليه أن يغادر ستاتين على متن الباخرة في الثلاثين من أيلول - سبتمبر.

توجه رايلي إذن نحو الحدود الروسية برفقة ياكوتشيف وترك مع بوناكوف رسالة موجهة إلى زوجته بيبيتا: "فقط في حال أصابني سوء الحظ وهذا ما استبعده كثيرًا". وأكد لها في الرسالة أنه حتى في حال استجوبه "البولشو" فلن يتمكنوا من اكتشاف هويته الحقيقية، "وفي حال تعرضتُ للتوقيف صدفة فلن توجه إليَّ سوى اتهامات صغيرة وتافهة بالإضافة إلى أن أصدقائي الجدد هم من القوة بحيث سيتمكنون من إطلاقي سريعًا".

كان من المفترض أن يرجع رايلي من روسيا في ليل الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من أيلول ـ سبتمبر، لكنه لم يعد أبدًا. وفي الوقت نفسه قامت الـ OGPU بتنفيذ عملية تضليل مسرحية بهدف التأثير على التجسس العسكري الفنلندي وعلى الـ SIS. فأطلقت في تلك الليلة عيارات نارية في محيط قرية "أليكوك" الواقعة في الجانب السوفياتي من الحدود، وشوهد حرس الحدود حاملين رجلاً على نقالة. وعندما فشل حارس الحدود السوفياتي تويفو فاها الذي كان يعمل ظاهريًا مع الفنلنديين (بأمر من الـ OGPU) في إعادة الاتصال مع الاستخبارات العسكرية الفنلندية استنتجت هذه الأخيرة مع الـ SIS بأنه قتل أو أسر مع رايلي، وهذا ما كان يريد أن يوحي به الجهاز السوفياتي.

وطبقًا للرواية السوفياتية السائدة والمضخمة حتمًا فإن رايلي لم يتم توقيفه في الخامس والعشرين من أيلول ـ سبتمبر مباشرة بعد اجتيازه الحدود. فياكوتشييف ذهب به في البداية إلى منزل صيفي قرب موسكو حيث كان في انتظارهم ضباط من الـ OGPU تظاهروا بأنهم "المجلس السياسي" للتروست. فطلبوا منه أن يشرح لهم خطته للعمل، وبالاستناد إلى السوفيات اقترح رايلي تمويل نشاطات التروست عبر سرقة المتاحف الروسية وبيع كنوزها إلى الغرب فتم توقيفه. وبعد استجوابه اعلم بأن حكم الإعدام الصادر بحقه غيابيًا عند انتهاء محاكمة "مؤامرة لوكهارت" في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩١٨ سيطبق. وتدّعي وقائع الأحداث السوفياتية بأن رايلي وجه نداءًا شخصيًا إلى دزرجنسكي آملاً أن ينقذ نفسه، كان من دون جدوى: "بعد تفكير عميق أعلن عن موافقتي علىالإدلاء باعترافات كاملة وبكل المعلومات التي قد تهم الـ OGPU والمتعلقة بتنظيم الاستخبارات البريطانية وبالعاملين فيها وعلى قدر معلوماتي بتلك المتعلقة بالاستخبارات الأميركية وبالمهاجرين الروس الذين تعاملت معهم". ولكن

لو كان رايلي جادًا حقًا في التعاون مع الـ OGPU لكان حظي بمحاكمة مثيرة كتلك التي جرت لسافينكوف، إلا أنه حسب الرواية السوفياتية للأحداث فقد جرى إعدامه رميًا بالرصاص في الثالث من تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٢٥.

واستمر التضليل الإعلامي حول مصير رايلي بعد سنوات عدة من استدراجه إلى روسيا. لكنه توقف في العام ١٩٢٧. وكانت بيبيتا رايلي أيضًا ضحية للخدعة. فهي كانت قد أتت إلى باريس ومنها توجهت إلى هلسنكي بهدف الحصول على معلومات عن زوجها... وقبل ان تلتقي ماريا زخارتشنكو ـ شولتز. في العاصمة الفنلندية كانت "مقتنعة تمامًا بأن هذه الأخيرة عميلة مزدوجة". ولكنها ما إن تعرفت عليها حتى تلاشت ظنونها وأحكامها المسبقة بشأنها. "فمن النظرة الأولى قررت أنه يمكن الوثوق بها. ومن النظرة الثانية علمت أنني سأحب هذه المرأة. وعندما رأتني علىهذه الحال من الكآبة والحزن والوحدة عانقتني بتأثر شديد قائلة بأنها تشعر بنفسها مسؤولة كليًا عن موت زوجي وبأنها لن تعرف الراحة قبل جلاء الغموض المحيط بظروف اختفائه وإن كان لا يزال حيًا قبل الشروع بمحاولة إطلاق سراحه أو الانتقام له إذا ما تأكد موته".

وأضافت زخارتشنكو ـ شولتز بأنه لا يزال هنالك بعض الشك في حقيقة موته. وأخرجت مقالاً مقتطعًا من جريدة الإزفستيا يتضمن الرواية المأذون بها للتراشق بالرصاص المفتعل الذي جرى في اليكول وجاء في سياقها أنه أطلقت النار على أربعة مهربين فيما كانوا يحاولون اجتياز الحدود فقتل اثنان منهم وأسر واحد أما الرابع فتوفي متأثرًا بجراحه أثناء نقله إلى بتروغراد. وكانت السيدة شولتز تعتقد أن هذا الرجل الرابع هو رايلي وبأن البولشفيك جهلوا هويته الحقيقية. لكن هذه القصة لم تقنع بيبيتا رايلي. إذ إن زوجها برغم اجتيازه الحدود بجواز سفر مزور وبثياب مستعارة إلا أنه كان يلبس قميصًا خاصًا به وثيابًا داخلية عليها أحرف اسمه الأول بالإضافة إلى

عبارة منقوشة بالإنكليزية على ساعته. وكما كان يحتفظ بجيب سترته بصورة لبيبيا موقعة باسمها. فكان من السهل على الـ OGPU أن تتعرف عليه. فأقرت زخارتشنكو ـ شولتز بأنها لم تأخذ في حسابها كل هذه التفاصيل إلا أنها وعدتها بالتعاون معها لكشف الحقيقة. وقبيل ذلك وجدت بيبيتا نفسها على حافة الانهيار العصبي وتقول: "كنت أطالب بالانتقام... وكانت السيدة شولتز تقف أمامي، عطوفة، حنونة ومتعاطفة... فطلبت مني أن أعتمد عليها... فأخذت بيدها دون أن أنبس بكلمة... فاقترحت علي أن أنضم إلى المنظمة فوثقت بها وبعد أخذ موافقة المركز في موسكو التحقت بتروست. وكان اسمي في صفوف المنظمة "فياردو" وهكذا حللت مكان زوجي في الجيش المعادي للبولشفية".

ونشرت السيدة رايلي بمباركة التروست إعلانًا بوفاة زوجها في جريدة التايمز هذا نصه:

"قُتل سيدني ريلي في الثامن والعشرين من أيلول ـ سبتمبر على يد جنود الـ OGPU في قرية اليكول في روسيا".

وكانت لسذاجتها تعتقد أن إعلانها هذا سيجبر البولشفيك على كشف الحقيقة حول مصير زوجها، لكن الصحافة السوفياتية أكدت فقط موته ونشرت فيما بعد "أكاذيب رهيبة" بشأن رايلي. فكانت تعزي نفسها بالاعتقاد بأن "كل قوة ونفوذ ومهارة تروست ستوظف للكشف عن الحقيقة". وفي بداية العام ١٩٢٦ استلمت رسالة من قيادة تروست (التي كان ياكوتشيف وأوبربوت في عدادها) تقترح عليها زيارة البلد بعد أن تعلمت بعض الروسية "بهدف المشاركة الفعالة في نشاطاتنا وللتعرف على أعضاء فريقنا". وفي غضون ذلك كانت ماريا زخارتشنكو ـ شولتز ترسل لها إلى باريس رسائل من بتروغراد وهلسنكي وفرصوفيا مكتوبة بالحبر ادعت فيها "تكريس حياتها لمحاولة

الكشف عن حقيقة ما حدث لسيدني رايلي". وكتبت السيدة رايلي فيما بعد "وطبقًا لوعدها هذا فهي لم تألُ في سبيل ذلك جهدًا".

وفي هذا الوقت طلب الغربيون من تروست التي كانوا يعتبرونها شبكة قوية وذات شأن، نقل معلومات عسكرية إلى الغرب. وإذا كان التضليل السياسي لخداع الغرب يسهل على الـ OGPU فقد بدا لها صعبًا وضع تقرير مقنع عن القوات الحربية والصناعات التسليحية السوفياتية. وأمام هذا الوضع الجديد حاولت أن تتجنب طلبات الـ S.I.S والأجهزة السرية الأخرى الملحة مدعية بأن هدف تروست هو قلب النظام فقط لذا لا يجدر القيام بما يتعارض مع ذلك. وهكذا كاد أن تحوّل أول دخول كبير للـ OGPU في مجال التضليل العسكري إلى كارثة. وفي العام ١٩٢٦ طلب الماريشال بيلسودسكي وزير الحربية البولندي (أي في الواقع رئيس الحكومة) من هيئة أركانه التدخل لدى تروست للحصول على خطة التعبئة السوفياتية. ياكوتشيف الذي استشير في الأمر تردد ثم قبل في النهاية الطلب لقاء دفع مبلغ عشرة آلاف دولار. لكن كان جليًا أن الوثيقة التي قدمتها التروست احتوت على معطيات خاطئة في ما يخص شبكة سكك الحديد الواقعة خلف الحدود البولندية تمامًا. وبعد أن تفحص بيلسودسكي الوثيقة بدقة أعادها إلى هيئة أركانه وكتب عليها كلمة وحيدة كتعليق "مزيفة". وأظهر هذا الفشل بوضوح أن مرحلة الزهو التي عاشتها التروست أصبحت جزءًا من الماضي.

خلال ربيع ١٩٢٧ كتبت زخارتشنكو ـ شولتز رسالة طغى عليها الحزن إلى السيدة رايلي (ومن دون شك إلى ياكوتشيف) وقالت فيها أنه يتبين لها أن تروست "مليئة بالمحرضين" وتابعت "لقد ضاع كل شيء... بعد أن وهبت نفسي للعمل في صفوفها على مدى أربع سنوات أجد من المستحيل أن أستمر في العيش بعدما عرفت الحقيقة". أما بالنسبة لكمين اليكول فلم يكن سوى "كذب وإخراج مسرحي". "لقد قتل

زوجك بأكثر الأساليب بشاعة وجُبْنًا. فهو لم يصل إلى الحدود وتمثيلية اليكول كانت لخداعنا. بل قبض عليه في موسكو واعتقل في اللوبيانكا كسجين مميز. وكانت تأتيه سيارة كل يوم وتأخذه ليقوم بتمارينه الرياضية وفي إحدى هذه المرات أطلقت عليه النار من الخلف بأمر من أحد رؤوساء الـ OGPU المدعو ارتوزوف وكان من أعداء زوجك القدامى وبهذه الطريقة البشعة انتقم منه... إن جهلي لكل ذلك لا يخفف من مسؤوليتي. ستظل يداي ملوثتين بدماء زوجك إلى الأبد. وسأمحو أثر هذا الدم بالانتقام له بطريقة رهيبة أو بالموت في سبيل ذلك".

أول رد فعل لبيبيتا رايلي كان الشعور بالرأفة، إذ قالت "لا بد أنه كان صعبًا جدًا على ماري أن تكتشف أنها كانت ضحية السوفيات طوال تلك السنوات وأنه بسببها قتل أو أسر العديد من الناس ومن بينهم زوج إحدى أعز صديقاتها". لكن بيبيتا لم تصدق روايتها بشأن موت رايلي واعتبرت أن ماري ضحية لكذبة جديدة، إذ إن الأخيرة أنهت رسالتها بطلب "خدمة أخيرة" سائلة بيبيتا أن تحيطها علمًا بكل ما قد تكتشفه عن أوبربوت.

أرسلت بيبيتا إلى ماريا ملفًا عن أوبربوت، من دون أن تعرف أن هذه الأخيرة عشيقته، وهو يحتوي على معلومات كانت تعتقد بكل سذاجة أنه لو اطلع عليها لكان "سيفاجأ الجنتلمان المحترم". فردت عليها زخارتشنكو ـ شولتز قائلة إن أوبربوت اعترف لها الآن بكل شيء لكنه أكد لها أنه لم يصبح عميلاً محرضًا إلا بعد تعرضه للتعذيب عام ١٩٢١ "إنه لا يخفي شيئًا الآن لا بل يساعد مندوبي الدول المخدوعة والمخترقة من قبل العملاء السوفيات على التخلص من هذه الحال الصعبة".

وعندما كتبت زخارتشنكو ـ شولتز هذه الرسالة كانت مقيمة مع عشيقها في فنلندا، وكان هذا الأخير يكشف على الملأ قضية تروست. لكن اعترافاته إلى الصحافة

ومحادثاته البعيدة عن الأضواء مع المهاجرين الروس البيض والأجهزة السرية الغربية لم تكن في الواقع سوى المرحلة الأخيرة من حملة التضليل الإعلامي. إذ إن الـ OGPU أدركت أن الخدعة لن تستمر طويلاً لذا قررت وضع حد لها بطريقة تدعم سمعتها وتؤذي معارضيها. فعبر تشهيره بالـ OGPU كان أوبربوت يبرز باستمرار قدراتها الهائلة ومناعتها الشديدة. كما كان يبالغ عن قصد في ثغرات أعدائها عبر ادعائه مثلاً بأن التجسس البولوني كان مخترقًا بالكامل من قبل العملاء السوفيات. مما دفع بأحد ضباط الاستخبارات الإسكندنافية إلى القول بأنه بعد هذه التصريحات توقفت الأجهزة الفنلندية والبالطية والبولندية والبريطانية والفرنسية "عن الاتصال ببعضها البعض لفترة من الزمن".

عادت زخارتشنكو ـ شولتز مع أوبربوت إلى روسيا في شهر أيار ـ مايو ١٩٢٧ وحاولا إقناع بيبيتا رايلي بمرافقتهما كما فعلا من قبل مع زوجها منذ سنتين. لكن البرقية التي أرسلاها إليها وصلت متأخرة خمسة عشر يومًا، إذ إن الأميركان اكسبرس التي قامت بنقلها أوصلتها في البدء إلى سيدة أخرى تحمل اسم رايلي أيضًا. وهي لو استلمتها في الوقت المناسب لكانت حاولت أن توضح لماريا زخارتشنكو ـ شولتز بأن أوبربوت "محرضًا بينًا" وبأن "مكره الشيطاني" سيقود بها إلى الهاوية. أما الجنرال كوتيبوف فكان يعتقد من جهته بأن الكشف عن خلفية تروست الخادعة زعزع شخصية ماريا إذ "كانت تريد العودة إلى روسيا بأي ثمن من أجل الانتقام من الذين خدعوها لكي تطهر نفسها من دماء المساكين الذين أرسلتهم إلى الموت من دون علمها". وبعد فترة وجيزة من رجوعها إلى روسيا تلقى كوتيبوف والسيدة رايلي أنباء لم تفاجئهما مطلقًا، إذ إن زخارتشنكو ـ شولتز فضلت الانتحار على أن تقع بين أيدي الشرطة السرية. فكتبت السيدة رايلي: "وهكذا ماتت إحدى أكثر النساء الروسيات

شجاعة في محاربة طغاة بلادها". ومن المؤكد أن كوتيبيوف وافقها في ذلك. وأعلن هنري غريغوريفتش ياغودا الرئيس المساعد للـ OGPU في مقابلة مع جريدة البرافدا أن زخارتشنكو ـ شزلتز وكوتيبيوف كانا منذ وقت طويل عملاء للـ SIS.

عظم الـ K.G.B علنًا حتّى نهاية عهده عمليتا السنديكات وتروست ورأى فيهما أكبر انتصارين حققهما على المؤامرات المضادة للثورة وعلى أجهزة الاستخبارات الغربية. لكنه في الوقت عينه تابع نوعًا ما حملة التضليل الإعلامي التي قامت على أساسها هاتان العمليتان. فقد صور عميلي التشيكا للتحريض أوبربوت وياكوتشيف على أساس أن الأول كان تلميذًا سابقًا لسافينكوف والثاني ملكيًا سابقًا قبل أن يستتيرا ويتعاونا مع الـ OGPU. وبعد عشرين عامًا من الكشف عنها أصبحت تروست نموذجًا لسلسلة جديدة من عمليات الخداع التي استهدفت الـ SIS والـ CIA[1].

تلك كانت أعمال تجسّس التشيكا في الخارج والإجراءات النشطة لها في عهد دزرجنسكي الذي توفّي عام ١٩٢٦.

إن بعض المقاطع البليغة الأثر من نصوص الـ K.G.B مستوحاة من ساعات دزرجنسكي الأخيرة، وفي هذا الإطار كتب "فدورفومين"، رأس خريجي مدرسة تشيكا القدماء والناجي من عمليات التطهير الستالينية يقول: "لقد سقط في موقعه وهو يقاتل أعداء الحزب". وقبل حوالى ثلاث ساعات من موته، توجه دزرجنسكي إلى كامل اللجنة المركزية ومجلس الرقابة المركزي... ففي خطاب ناري موجّه إلى كل الذين ابتعدوا عن الخط الرسمي للحزب اللينيني، طرح على الحضور هذا السؤال ـ المبرَّر

---

١ ـ أندرو كرستوفر، غوردیسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ ـ ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران، دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١) ص٤٣ ـ ٤٧؛ ٧٠ ـ ١٠٨.

تمامًا ـ حسب فومين: "تعلمون ولا ريب من أين أستمد قوتي؟ لقد عملت كل ما بوسعي (أصوات ترتفع: "هذا صحيح"، "نعم") ومن أجل ذلك يثق بي ويقدّرني كل واحد منكم. وبالقدر الذي لن أقاوم فيه عملاً أملته النية الطيبة، سأهاجم كل فوضى بما أوتيت من قوة". وفور تقديم هذا الولاء الفريد، مات إثر نوبة قلبية. دفعت هذه الوفاة في جلسة مكتملة، وقد كان لها شرف الاستماع إلى آخر خطاب له، لتقديم مدح أكثر إسرافًا كذلك: "فخلال الفترات الصعبة المتسمة بالمؤامرات المتواصلة وبالانتفاضات المعادية للثورة، وبينما كانت مناطق بكاملها من التراب السوفياتي تنهار والمجموعة الدموية من أعدائها تحاصر البروليتارية المناضلة من أجل حريتها، فإن دزرجنسكي، بقدرة فوق بشرية، بقي في موقعه، أيامًا وليالٍ، لا ينام ولا يأكل ولا يركن إلى الراحة؛ مما دفع حتى أعداء الشغيلة على احترامه، الذين كانوا مع ذلك قد حقدوا عليه. وقد اكتسب بوقاره وجرأته ونبله النادر سلطة واسعة".

وقد كان موت دزرجنسكي المفاجئ جاء في وقته المناسب بالنسبة لستالين. فقد أصبح انتصاره أمرًا مفروغًا منه في الصراع الطويل على السلطة الذي تلا وفاة لينين. وفي الحقيقة، سيقاوم فيليكس الحديدي ــ وعلى الأرجح دون نجاح ـ استعمال دائرة أمن الاتحاد السوفياتي GPU (الملحقة بـ NKVD عام ١٩٢٢) التحريض والتضليل في معركته ضد الانشقاق داخل الحزب. حتى وإن لم يتردد هو باستعمال هذه الأسلحة ضد غير الشيوعيين دون وازع من ضمير. منذ وفاة لينين ترأس دزرجنسكي "المجلس الأعلى للاقتصاد الوطني" وبقي في الوقت ذاته على رأس أداة أمن الاتحاد السوفياتي GPU. وهو لم يسمح بمهاجمة "الاختصاصيين البورجوازيين" ولا بانطلاق المعركة الوحشية في الأرياف "ضد الكولاك" التي أطلقها ستالين في السنوات اللاحقة. وفي الخطاب التاريخي، الذي ألقاه قبل وفاته بثلاث ساعات، كان قد

انتقد الجهاز الحزبي بقسوة غير مألوفة: "عندما أتأمل جهازنا وتنظيمنا وبيروقراطيتنا العجيبة، والفوضى التي لا توصف والشكليّة المفرطة ترتعد فرائصي رعبًا".

أما "فياتسلاف رودولفوفيتش مجنسكي" الرجل الطويل والضعيف، ذو النظارة الأنفية الفضية، المعين خلفًا لدزرجنسكي فكان أكثر لينًا من سلفه. أما في الظاهر فإن الرجلين يتمعان بعدة صفات مشتركة، فكلاهما كانا من البلاشفة القدماء وسليلا عائلتين بولونيتين عريقتين. فقد دخل مجنسكي مدرسة تشيكا بعد قليل من إنشائها وأصبح أول رئيس مساعد عند إنشاء دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU. ولا شك أنه كان الأكثر عقلانية من بين زملائه... أمّا المنشق أغابكوف، ومع أنه أصدر أحكامًا قاسية على زملائه القدماء، فوصفه على أنه "رجلٌ عميق الثقافة كونه تلقى تربية رائعة". ويقول فومين إنه سبق لمجنسكي أن أتقن تمامًا اثنتي عشر لغة عند التحاقه بتشيكا (اسم الـ K.G.B عند تأسيسها عام ١٩١٧)؛ وقد تعلم فيما بعد الصينية واليابانية والفارسية والتركية. وهو لم يكن متعدد اللغات فقط، بل كان يتمتع كذلك بثقافة واسعة وخاصة في الفيزياء والكيمياء وعلم الفلك والرياضيات. ومع ذلك، فقد تمتع بشخصية أقل قوة بكثير من سلفه. وحتى الإطراء الرسمي لفومين يُقرّ بأن "صوته لم يكن صوت قائد" وأنه بالنسبة لعدد لا بأس به من معاونيه "كان من المزعج سماع أمر ما من رئيس دائرة أمن الدولة السوفياتية GPU يبدأ بـ : "بتواضعٍ أطلب منك". أما تروتسكي الذي اضطهدته GPU مع بداية فترة مجنسكي فرآه رجلاً باهتًا بشكل غريب: "إن أفضل طريقة في وصف الأثر الذي تركه في نفسي هي القول أنه لم يترك أي أثر إطلاقًا. فهو يوحي بظل رجل وهمي، أو بالأحرى بمخطط سيء لصورة غير ناجزة"[١].

---

١ ـ أندرو وغورديسكي، الاستخبارات السوفياتيّة، ص١١٤ ـ ١١٥.

لافنتري بيريا: أعطني رجلاً أعطيك دولارًا

"أعطني رجلاً، أعطيك دولارًا"...

كان "لافنتري بيريا" من عادته ترديد هذا القول بابتسامة ساخرة وماكرة معًا. والملايين من الروس تعلموا الدرس القاسي، وهو أن هذا القول ليس نكتة. وخلال فترة تزيد عن ١٥ عامًا قضاها بيريا في منصب رئيس جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، ليس هناك أحد وقع في قبضة بيريا لم يعرف بالضبط ما أراد بيريا منه أن يفعل.

ليس هناك أي لغز تجاه الكيفية التي أراد بيريا من خلالها تحقيق ما أراد، فهو أقام أكبر وأقذر منظمة بوليسية سرية في التاريخ، وهي عبارة عن إمبراطورية ضخمة تضم مئات الآلاف من العملاء، وملايين المخبرين غير المتفرغين، وشبكة من السجون، ومئات معسكرات الاعتقال والأشغال الشاقة، ونظامًا للرقابة الأمنية الداخلية تمكن من تنظيم حركات أكثر من ٢٠٠ مليون مواطن سوفياتي. وفي الوقت نفسه، قام بإدارة جهاز الاستخبارات السوفياتية الخارجية، وهو أكبر جهاز استخبارات في العالم.

وهذا الرجل الذي وقف على رأس هذه الامبراطورية كان رجلاً مرعبًا بحق، وهو واحد من أقذر الرجال في التاريخ. وبالرغم من سمعته، فلم يخيب مظهره العام ظنًّا، فهو أصلع الرأس وممتلئ الجسم، وينظر إلى العالم بعينين باردتين خلف نظارة طبية، ويملك يدين صغيرتين وناعمتين وممتلئتين بالرطوبة دائمًا، ويتكلم بنغمة واضحة لا

تخدع أحدًا. ولأنه كان رجلاً قاتلاً جائرًا، فلم يكن لديه أصدقاء، باستثناء جوزيف ستالين. وفيما يتعلق بمهمة بيريا، فإن ستالين هو الصديق الذي احتاج إليه.

كان بيريا التقى ستالين لأول مرة في العام ١٩١٥، حينما كان بيريا الشاب الثوري البالغ من العمر ٢٧ عامًا هاربًا في مرتفعات بلاده جورجيا. وكان بيريا هرب من أحد سجون القيصر بعد الحكم عليه بالإعدام بتهمة القيام بأنشطة ثورية بسبب ترويجه للمبادئ الشيوعية بين طلاب الجامعة. وفي هذه المرتفعات، التقى بيريا زعيم المنظمة الجورجية الشيوعية السرية، جوزيف ستالين، وحصل منه على أسلحة، كما تلقى أوامر بإشعال الثورة المسلحة بين عمال النفط في باكو، وفشلت الانتفاضة، واضطر بيريا إلى النجاة بحياته، وهرب من نقاط تفتيش البوليس القيصري بلباس امرأة.

حينما اندلعت الثورة البولشيفية، كان بيريا رئيس مجموعة من أسرى الحرب النمساويين، وعددهم ٥٠٠ رجل، وهؤلاء جميعًا تحولوا إلى الشيوعية، ولم يظهروا استعدادًا للتحول إلى قوة مباغتة. وتحت قيادة بيريا، حاربوا بنجاح في الحرب الأهلية، وهو نجاح لفت انتباه فيلكس دزرشنسكي الذي اختاره للانضمام إلى جهاز الاستخبارات البولشفي "تشيكا". ومع حلول العام ١٩٢٠، أصبح بيريا واحدًا من أفضل عملاء دزرشنسكي، وعهدت إليه مهمة الذهاب إلى براغ لمراقبة المبعدين المناهضين للبولشيفيك. وفي سنة ١٩٢٩، وكان وقتئذٍ يعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، ظهر بيريا في باريس بهوية جديدة: هوية الكولونيل "بينون ليدزة"، الضابط السابق في الجيش القيصري، الذي يزعم أن أطيانه وثروته استولت عليها الثورة البولشيفية، وهو الآن يتوق إلى الانتقام. ومن خلال هذه الصورة المخادعة، تمكن بيريا من استمالة عدد كبير من الضباط القياصرة السابقين، ثم أخذهم في "مهمة" إلى روسيا، ولم يعودوا بعدها.

بعد عام، جرى اختيار بيريا رئيسًا للمكتب الخارجي التابع لجهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، وهو مكتب يشرف على كل العمليات الاستخباراتية الخارجية. وجاء هذا التعيين بمثابة خطوة إلى الأمام في عالم الاستخبارات السوفياتية، وهو نتيجة علاقة صداقة بين بيريا وستالين.

بعدما تمكن ستالين من تعزيز قبضته، ظهر بيريا معه، وأصبح في العام ١٩٣٨ رئيسًا لجهاز الاستخبارات السوفياتي KGB. وفي واقع الأمر، فالاثنان معًا شكلا ثنائيًا مرعبًا، ذلك أن بيريا كان بمثابة الذراع الأيمن لستالين.

بينما سعى ستالين إلى التغلب على مناهضيه السياسيين، فإن بيريا هو الذي جمع ملفات المعلومات المشوهة لسمعتهم، وهو الذي عمل على اختفاء بعض السياسيين المعارضين لستالين، وهو الذي لفق الدلائل لتشويه سمعة الخصوم حين الاقتضاء. ويقال إنه بعدما ازدادت العلاقة عمقًا بين الرجلين، كان باستطاعة بيريا قراءة أفكار ستالين، حتى أنه توقع في الغالب الخطوة التالية التي يفكر بها ستالين. وكلما كانت تجيء مثل هذه الخطوة، كان بيريا مستعدًا لها بالملفات التي تحتوي على المعلومات المشوهة للسمعة والنزوات الجنسية ومجالات الضعف في الأهداف المعنية.

مع أن بيريا كان مسؤولاً عن العمليات الخارجية في جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، لكنه ترك تلك المهمة إلى مساعديه، وقام بالتركيز على مهمة تعزيز سلطة ستالين. وفي معرض تنفيذ هذه المهمة، كان على بيريا أن يقيم الدليل على مواهبه المخيفة في قمع الناس، وذلك إلى حد لم يكن دزرشنسكي نفسه يتصوره.

بينما عكف ستالين على تعزيز سلطته في الاتحاد السوفياتي، من خلال حمامات الدم وتصفية الخصوم، فإن بيريا قام باختراع الآلية التي جعلت اسمه يثير خوفًا قاتلاً في قلوب الروس. وكان من بين اختراعاته ما يطلق عليه "نظام التفريغ"، وهو عبارة

عن عملية متعددة المراحل تقوم على تمرير الأشخاص المعتقلين في سلسلة من عمليات الضرب، والاستجواب على مدار الساعة، والتعذيب، بحيث يخرج الأشخاص في المرحلة الأخيرة من "نظام التفريغ" أشخاصًا مذعنين يبدون استعدادًا للاعتراف بأي شيء.

ولأنه يتصف بالسادية، فإن بيريا أحب المشاركة الشخصية في "نظام التفريغ"، ولهذا السبب كان يحتفظ بهراوات في مكتبه لاستخدامها في ضرب السياسيين حتى الموت.

وقد ألقى بيريا القبض على رجال ونساء لمجرد معارضتهم المزعومة في الرأي لسياسات ستالين...

أمر ستالين أيضًا كبار مساعديه بالمشاركة في عمليات الضرب والتعذيب كوسيلة لضمان اشتراكهم في أعمال قذرة، حتى يتعذر عليهم في وقت لاحق الزعم بعدم معرفتهم بمثل هذه التجاوزات...

في ما يتعلق بحالات خاصة معينة، اخترع بيريا ما يطلق عليه "مختبر الصدق"، وهو عبارة عن تقنيات جديدة اخترعها الأطباء والعلماء للتعذيب، هذا بالإضافة إلى عقاقير لتغيير العقل. وبالنسبة إلى هؤلاء الضحايا الذين يفترض اختفاؤهم بلا رجعة، فإن بيريا بنى لهم "بيوت الموت" في إحدى ضواحي موسكو، حيث تولى خبراء السموم أمرهم.

وبالنسبة إلى المنشقين الذين هربوا من البلاد، قام بيريا بتكوين شبكة "الموت للجواسيس"، وهي عبارة عن مجموعة من القتلة الجائرين الموجودين في كل أنحاء العالم لقتل أي شخص يشعر ستالين تجاهه بأنه يشكل تهديدًا لنظامه.

في وقت لاحق، خلال الحرب العالمية الثانية، تقرر توسيع نطاق شبكة "الموت للجواسيس" وتحويلها إلى جيش صغير يقوم بإطلاق النار على كل الهاربين من الخدمة العسكرية والمتعاونين مع الألمان وجميع أسرى الحرب السوفيات باعتبار أنهم "خانوا" بلادهم بوقوعهم في الأسر.

من واقع كونه رئيسًا لجهاز الاستخبارات السوفياتي KGB، كان بيريا يملك الخيوط الهامة للسلطة بين يديه. وبسبب ذلك، قام بعمليات تطهير واسعة النطاق في صفوف جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB.

بدأ بيريا أولاً بتطهير اليهود. ثم، في وقت لاحق، قام بتطهير الحرس القديم الذي كان موجودًا في زمن جهاز الاستخبارات البولشيفي "تشيكا". وهناك ملايين من الروس اختفوا في معسكرات الاعتقال في سيبيريا، هذا بالإضافة إلى أعداد أخرى لا تعد ولا تحصى. أما هؤلاء غير المحظوظين، فكان يمكنهم أن يتوقعوا تمريرهم في "نظام التفريغ" حيث كانوا يتحولون من مواطنين أبرياء إلى مواطنين دمويين ومستعدين للاعتراف بكونهم جواسيس وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA، أو جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، أو أي اعتراف آخر يريد جهاز الاستخبارات السوفياتي KGB انتزاعه منهم.

وأمضى بيريا سنوات الحرب العالمية الثانية في تقوية الآلية القمعية أكثر من ذلك، فهو عكف على قراءة رسائل الضباط والجنود بعناية، حتى أن أي تلميح بالتشكك في سياسات ستالين أو التقليل من شأن الانتصارات السوفياتية في الحرب، كان يمكن أن يؤدي بكاتب الرسالة إلى معسكرات الاعتقال في سيبيريا لمدة ١٠ سنوات.

أحد هؤلاء الضحايا كان شابًا ضابطًا في سلاح المدفعية يدعى ألكسندر شولشينتزين، وأدى انتقاده المعتدل لسياسات ستالين في رسالة بعث بها إلى أمه إلى

وضعه في معسكر الاعتقال، ولكن هذا الشاب استخدم تجربته في معسكر الاعتقال في تأليف كتاب عن تاريخ معسكرات الاعتقال.

سنة ١٩٤٥، قام ستالين بتعزيز سلطات بيريا أكثر من ذلك، وذلك بتسميته رئيسًا لوزارة الشؤون الداخلية، الأمر الذي جعله رئيسًا لكل الاستخبارات السوفياتية وقوات الأمن الداخلي ومراقبة الحدود. ومن خلال هذه السلطات، التي لم يعهد بمثلها من قبل إلى أي رئيس للاستخبارات، تولى بيريا أمر مهمتين صعبتين وضروريتين معًا: المهمة الأولى تنفيذ برنامج جريء في الاتحاد السوفياتي لصنع قنبلة ذرية، والمهمة الثانية تطوير قدرات صواريخ استراتيجية. وتمكن بيريا من تحقيق هاتين المهمتين بطريقة عجيبة، ذلك أنه قام بتعبئة مليون من العمال، والمؤسسة العلمية السوفياتية، وجهاز الاستخبارات السوفياتي KGB لصنع قنبلة ذرية في غضون أربع سنوات، وهي فترة تقل عن ربع الفترة الزمنية التي قدرتها الاستخبارات الغربية في ذلك الوقت. واستخدم بيريا الاستخبارات السوفياتية في سرقة أسرار القنبلة الذرية، ثم سارع إلى الاستفادة من هذه الأسرار في بناء مشروع هائل يشمل على بناء تسهيلات للتجارب، ومناجم يورانيوم، ومنشآت أخرى ضرورية لصنع أسلحة نووية. وكان منهج بيريا في تطوير قدرات الصواريخ الاستراتيجية أكثر تفاؤلاً، فهو أمر باختطاف مجموعة من علماء الصواريخ الألمان في ألمانيا إلى الاتحاد السوفياتي، حيث أعطاهم رواتب سخية لصنع صاروخ سوفياتي من طراز V-2. ولم يضطر بيريا إلى التهديد بالبدائل، ذلك أن العلماء الألمان وجدوا جيوشًا من العمال الذين يعملون على مدار الساعة في مواقع اختبار الصواريخ والقواعد العسكرية. ولم يكن الأمر يستدعي اللجوء إلى الخيال للاقتناع بأن العلماء الألمان لو رفضوا التعاون، فإن رجلاً مثل بيريا كان يمكن أن يجعلهم عمالاً مأجورين. وكان العلماء الألمان يعرفون جيدًا مدى فظاظة

بيريا، فهم راقبوا ذات يوم تجربة إطلاق أحد الصواريخ، ولكنها كانت تجربة فاشلة حيث انفجر الصاروخ في المنصبة قبل إنطلاقه، وأسفر الانفجار عن مقتل ١٠٠ رجل من الفنيين السوفيات وعدد من ضباط الجيش. وعندئذ، صاح بيريا قائلاً: "نظفوا المكان، وعودوا إلى العمل".

ولا شك في أن نجاح بيريا في هاتين المهمتين أدى إلى تعزيز الثقة بينه وبين ستالين، وذلك إلى الحد الذي أبدى فيه ستالين استعدادًا للتغاضي عن التجاوزات الغريبة في حياة زعيم الجواسيس الخاصة. ومن خلال سلطته التي تأتي في الدرجة الثانية بعد ستالين، كان بيريا قادرًا علىالانغماس في الشهوات كما أراد، ومن بين شهواته الغريبة اغتصاب الفتيات المراهقات. وكان من عادته أن يقوم باختطاف الفتيات في شوارع موسكو، ولم يكن آباء الفتيات التعيسات قادرين على التذمر والشكوى، وفي غالب الأحيان، كان بيريا يقتل ضحاياه من الفتيات.

وفي الوقت الذي كانت فيه سلطة بيريا في ذروتها، بدأ هذا الرجل المرعب في وضع الخطط للمرحلة اللاحقة على ستالين في الاتحاد السوفياتي. وإدراكًا منه بأن ستالين كان مريضًا، فربما ظن بيريا أنه يمكنه أن يخلف هذا الدكتاتور، وهي إمكانية أثارت قلقًا كبيرًا عند العسكريين السوفيات. وبصرف النظر عن كراهيتهم الشخصية له، وخوفهم منه، فإن لديهم أيضًا ذكريات مريرة معه، ذلك أنهم لم ينسوا أن بيريا هو الذي قتل عددًا كبيرًا من جنودهم أثناء الحرب وبعدها. ومن المثير للاستغراب أن بيريا، برغم ذكائه السياسي الحاد، لم يكن يعرف مدى حقد العسكريين عليه، وهي غلطة دفع ثمنًا لها.

وفي العام ١٩٣٥، حينما مات ستالين، قام بيريا بخطوته، وهي الإعلان عن نفسه بأنه ستالين الجديد. ولكن "جورجي مالينكوف"، عضو المكتب السياسي، وأحد ألد

أعداء بيريا، كان منهمكًا في استقطاب دعم العسكريين. وفي صباح أحد أيام الخريف من ذلك العام، حينما وصل بيريا لحضور اجتماع للمكتب السياسي لمناقشة مسألة خلافة ستالين، شعر بيريا بالدهشة حينما أبلغه وفد من كبار الضباط العسكريين بإلقاء القبض عليه ومحاكمته فورًا بتهمة ارتكاب "جرائم ضد الشعب السوفياتي". وأصابت بيريا صدمة عنيفة حينما سمع النطق باتهامه مذنبًا، وعندئذٍ سحب أحد الضباط مسدسه، وأطلق النار على رأسه، وأراده قتيلاً في الحال[1].

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ (مكتبة مدبولي،١٩٩٩) ص٢٩٧ ـ ٣٠٣.

الـ KGB تكشف شيفرة البحريَّة الأميركيَّة على مدى سنَة كاملة

تُعتبر عمليّة واكر - وايروث الأهمّ في عمليّات التجسّس السوفياتيّة على الولايات المتّحدة الأميركيّة إذ إنّها كان من الممكن أن تكون قاتلة لأميركا في زمن الحرب.

فقد استطاعت الـ KGB تجنيد عنصر البحريّة الأميركيّة "جيرير وايروث" لقاء مبلغ نصف مليون دولار تحت إسم "واكر"... فإنّ عمل هذا العنصر كان مؤثّرًا جدًّا في حرب المخابرات الضروس بين القوّتين العظميين، إذ إنّه كان يعمل كضابط نظام لتسجيل المنشورات والمعلومات وحلّ الشيفرة وحفظ الوثائق السريّة والحسّاسة في حاملة الطائرات النوويّة الأميركيّة "أنتربرايز".

المعلومات التي توفّرت للسوفيات كانت بالغة الأهميّة وعلى مدار سنة كاملة، كانت كلّ العمليّات والتحرّكات والشيفرة المستعملة للبحريّة الأميركيّة بمتناول السوفيات.

في سبعينات القرن العشرين، كانت البحريّة السوفياتيّة تتحرّك كردّ فعل مباشر على خطط البحريّة الأميركيّة، وهذا ما جعل الأميرال "إسحق كيد" قائد الأسطول الأطلسيّ يعلم وكالة الأمن القوميّ الأميركيّ بشكّه بأنّ السوفيات دخلوا على خطّ الشيفرة الأميركيّة، وأنّ هناك معلومات مسبقة يشكّ بتسرّبها للسوفيات.

أُهمل هذا التقرير ولم يتابَع من قبَل وكالـة الأمـن القومـيّ الأمـيركيّ. وبعـد ثمـاني سنوات، وتحديدًا في العام ١٩٨٠، وشت زوجة واكر به إلى مكتـب التحقيـق الفدرالـي ممّا فضح أبطال عمليّة تسرّب المعلومات.

حاز ضبّاط المخابرات السوفيات الذين أداروا هذه العمليّة على مكافآت سخيّة، فقـد نال أحدهم وسام بطل الاتّحاد السوفياتيّ ونال آخران وسام العلم الأحمر[1].

---

١ ـ وود جان، جواسيس للبيع، ترجمة لطيف الناصر، دار الحسام (بيروت،١٩٩٠) ص ١٤٨.

مُستَشَار بن غورِيون: جَاسوسٌ سوفياتيّ

النمساوي الليفتنانت كولونيل "إسرائيل بير" الذي كان مقرّبًا من رئيس الوزراء الإسرائيليّ "بن غوريون" الذي كلّفه كتابة التاريخ الرسمي لـ"حرب الاستقلال" وسلّمه يوميّاته الشخصيّة، وهو الذي حضر اجتماع "سيفر" السرّي بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل لإعداد خطّة حرب السويس عام ١٩٥٦... أُلقي القبض عليه متلبّسًا في ٣١ آذار ـ مارس ١٩٦١، إذ كان يسلّم وثائق إلى "فيكتور سوكولوف" وهو ضابط تابع لوكالة المخابرات السوفياتيّة يعمل تحت غطاء دبلوماسي سوفياتي في تلّ أبيب، وقد حكم عليه بالسجن ١٥ عامًا، وحتّى وفاته في السجن عام ١٩٦٦ كان يصرّ على أنّه ليس جاسوسًا وعلى أنّه وطنيّ مخلص[١].

خرج إسرائيل بير من جيش الدفاع الإسرائيليّ في عام ١٩٥١ ليمتهن السياسة، ولكنّه حافظ على اهتمامه بالأمور العسكريّة وعلى صلته بها. وكان يحضر اجتماعات رئاسة الأركان البالغة السريّة، ويحصل على ما يشاء من معلومات، وكانت خطط جيش الدفاع ومخطّطاته ووثائق الدفاع ذات الأهميّة القصوى تجد سبيلها إلى يده. وفي عام ١٩٥٥، كلّف من قبل مجلس الوزراء بكتابة التاريخ الرسميّ لـ"حرب الاستقلال" للكيان الصهيونيّ، وخُصّصت له غرفة خاصّة في وزارة الدفاع ليقوم بأبحاثه فيها...

---

١ ـ راجع: Zohar Michel Bar, *J'ai Risqué ma Vie (Isser Harel No. 1 des Services Secrets Israëliens)* Ed. Fayard (Paris,1971) pp. 195 - 218.

شاعت شهرة بير بوصفه خبيرًا عسكريًّا حتّى خارج إسرائيل، وكان يقوم بجولات علميّة في ألمانيا وغيرها لإلقاء محاضرات سياسيّة ينبّه عبرها جمهور الشبّان المستمعين إليه أشدّ التنبيه إلى واجبهم تجاه وطنهم وإلى الحاجة لجعل ألمانيا دولة ديمقراطيّة قويّة، في مواجهة الخطر الشيوعيّ الآتي من الشرق... وذلك لتغطية عمله شخصيًّا لصالح الشيوعيّة ومخابراتها الـ KGB.

استحوذ المستشار بير على إعجاب قيادة حلف شمال الأطلسيّ "الناتو" في أوروبّا للتحليلات البارعة التي قدّمها عن الاستراتيجيّة اللازمة في حال نشوب حرب بريّة في أوروبّا. وقد أثنى عليه موظّفو وزارة الدفاع الفرنسيّة علانية، لتفهّمه الواسع المدى لمختلف الشؤون العسكريّة.

رغم كلّ هذه العظمة، فقد ارتجف إسرائيل بير عندما استدعاه مدير المخابرات الإسرائيليّة، في حينه، "إيسر هاريل" بموجب رسالة مخيفة لمثله من السياسيّين، كتب فيها ثلاث كلمات فقط: "تعالَ احضر إلى مكتبي".

على أقلّ تقدير، لم يكن من المستغرب أن يمتعض بير لاستدعاء مدير الموساد له بهذه الخشونة حيث لم يُبدِ هاريل شيئًا من الاحترام بما يتّفق مع مكانة بير البارزة.

توجّه بير إلى مقرّ مدير المخابرات الإسرائيليّة في تلّ أبيب بدون تأخير، ولم يقم بأيّ جهد لإخفاء انزعاجه عندما مشى في مدخل مكتب هاريل والسيجار في فمه، ثمّ ألقى بنفسه في الكرسيّ المقابل لمدير الموساد، ونفض الرماد عن رأس سيجاره بنقرة من إصبعه تدلّ على الازدراء... ثمّ انحنى في جلوسه إلى الأمام وقال ببساطة وهو لا يزال يبدي الإعتداد بنفسه وبمركزه الهام: "لندخل في صميم الموضوع... فأنا مستعجل".

حدّق إيسير هاريل إلى العينين اللتين لا تطرفان في رأس البروفيسور الأصلع، فوجد جميع ملامح وجه الزائر ذي الشارب الأصفر المميّز الذي بدأت فيه آثار رماد السيجار تشير إلى الاحتقار الموجّه له باعتبار أنّ مركزه في الدولة العبريّة كمستشار لرئيس مجلس الوزراء ومدير مكتبه، أي الناطق باسم رئيس مجلس الوزراء، أقوى من مركز مدير الموساد إداريًا على الأقلّ. ولكنّه نسي أنّ مدير المخابرات، الموساد أو غيرها من مخابرات العالم، يملك الصلاحيّة والقوّة التنفيذيّة باسم الأمن القوميّ للبلد والمصلحة العامّة... بأن يستدعي أيّ مسؤول لمحاسبته عندما يخطئ أو يتورّط، خاصّة بالأعمال الجاسوسيّة، لذلك كان هاريل في هذا الموقف ممّن لا يفزعون بسهولة حيث واصل التحديق إلى وجه بير وبدأ بتوجيه الأسئلة بإيجاز:

"لماذا واصلت زيارتك إلى برلين الشرقيّة؟... لماذا سافرت إلى بولندا؟"...

وظهر مدير الموساد بمظهر الديكتاتور بعد أن تمكّن من بير ورفع صوته وراء الأسئلة قائلاً له:

"ألم أحذّرك قبلاً من الاختلاط بالشيوعيّين؟"...

وضرب المنضدة التي أمامه بقبضة يده وبشدّة وصاح:

"إنّني أحذّرك يا بير وأمنعك من الآن من السفر إلى أوروبّا لأيّ سبب كان".

عندئذ، وثب المستشار بير على قدميه غاضبًا... ذلك أنّ أحدًا لم يكن يجرؤ، حتّى رئيس الوزراء بن غوريون، على التحدّث إليه بهذه الطريقة الهجوميّة، وأجاب مدير الموساد صائحا: "إهتمّ بشؤونك الخاصّة، توصّلت للتطاول عليّ، سوف أشكوك حالاً لرئيس الوزراء، وسأشكوك للحزب أيضًا"... واندفع خارجًا من مكتب هاريل.

انقضت عدّة دقائق بعد خروج بير، ومدير الموساد يفكّر في صمت، فقد كانت الشكوك تساوره بشأن إسرائيل بير عدّة سنوات... كان هذا قد كتب سلسلة من

المقالات المعادية لأميركا في أثناء الحرب الكوريّة، وكان إيسر هاريل يعلم أنّ بير، برغم انضمامه إلى حزب بن غوريون "الماباي"، كان منتميًا في ما مضى إلى جماعة "المابام"، وهي الجناح اليساريّ الأكثر تطرّفًا. وكان للبروفيسور نشاط قويّ في مناصرة الشيوعيّة آنذاك، ممّا أدّى به إلى تلك الجماعة أخيرًا. ولم ينضمّ إلى التحالف الحاكم، برئاسة بن غوريون، إلاّ متأخّرًا، وأصبح نهجه الجديد هو: "قل ليعش بن غوريون ثمّ افعل ما تشاء"...

لم يكن هاريل ليحارب بير على انتمائه السياسيّ، ولكنّه كان يعجب لقدرة الرجل على تغيير انتمائه على ذلك النحو السريع الحاسم. أمّا رئيس الموساد فلم يكن منتميًا إلى أيّ حزب، ولكنّه يعي ما يعتقده وعيًا تامًّا، وكانت انتهازيّة الرجل تثير الشكوك في نفسه.

بعد رحيل الخبير العسكريّ المفاجئ، انزعج هاريل الجالس في مكتبه مرّة أخرى لشيء قاله، ألا وهو التحذير الذي وجّهه بير حال مغادرته بقوله "سوف أشكوك إلى الحزب"... فما الذي يقصده بذلك؟... كان بير يعلم أن هاريل لا ينتمي إلى أحزاب.

كان للطريقة الطائشة التي ألقى بها بير عبارته الغريبة إلى إيسر ما لتلك العبارة نفسها من مفاجأة، وبدا ذلك التحذير ارتكاسًا ذهنيًّا محضًا صادرًا عن رجل اعتاد تمثيل شخصيّة المحلّل، البعيدة عن الانفعال، وإذن، فقد وثبت الغريزة من مكمنها، وبرزت من قناع التعقيدات الفكريّة الذي تميّز به بير المستشار...

من قبل، أحسّ هاريل بالانزعاج بشأن بير، كما أحسّ بضرورة إطلاع بن غوريون على ذلك، وقد نقل اهتمامه إلى رئيس الوزراء، ولكنّ هذا الأخير كان يثق ببير أكثر من أيّ وقت مضى، لقد كان رئيس الوزراء يظنّ أنّ إيسر هاريل عبّر في

أمره هذا عن غيرة من شهرة بير ونفوذه... بيد أنّ هاريل لم يتراجع لذلك... فذهب في الحال لمقابلة رئيسه وطرح أمامه الأسباب الكامنة وراء الشكوك التي تساوره، وقال:

"يقوم بير منذ زمن بجمع معلومات عسكريّة لا تتّصل به في شيء، وهو يزور المدن الشيوعيّة في رحلاته إلى أوروبّا، وتربطه صداقة، مسرفة، مع الدبلوماسيّين الروس العاملين في إسرائيل الذين يقابلهم كثيرًا"...

وقد بدت في حياة بير الاجتماعيّة بعض الجوانب الغريبة مؤخّرًا، فهو ينفق أموالاً طائلة، تزيد عمّا يكسب، في ملاهي تلّ أبيب. وعندما كان في ميونيخ مؤخّرًا دفع مبلغ ٢٠٠ دولار دون أدنى اهتمام... وقد كان يشتري لنفسه ولعشيقاته، ومنهنّ من يشكّ في سلوكهنّ، ملابس كثيرة غالية الأثمان. أمّا علاقاته مع زوجته "ريفكا" فهي سيّئة جدًّا. وهو يقضي لياليه يعاقر الخمرة في الحانات كحانة "أتوم" في شارع يهودا. وكان صوت هاريل مفعمًا بالغضب لفساد أخلاق بير... فإنّ هاريل لم يعرف الانغماس في هذه الرذائل طيلة حياته... وقال هاريل لرئيس الوزراء:

"من الجليّ عندي، أنّ بير يعاني من إجهاد ما، هو إجهاد العميل الذي يمثّل دورَين في الحياة، ومنذ وقت قريب تورّط في فضيحة عامّة: فقد هاجمه زوج إحدى عشيقاته، ووجّه إليه لكمات في وجهه، وهشّم بعض أسنانه... وكان بير قد أخبر سيادتكم بأنّه فقد تلك الأسنان في حادث سيّارة"...

بقي بن غوريون راسخًا في عدم الاقتناع بدعاوى هاريل، وردّ عليه بهدوء:

"من واجبك أن ترتاب في كلّ شخص كائنًا من كان، أمّا أنا فثقتي مطلقة بهذا الرجل".

وانتهت المقابلة بينهما علـى ذلـك. ولكـنّ المسـألة بقيـت قائمـة لـدى هـاريل، فـأمر مخابراته بتشديد الرقابة على بير، وأخذ فريق لأعمال التحرّي ينقّب في ماضيـه للتـأكّد من وجود جوانب مريبة، أو أنصاف حقائق في سيرة حياته كما أخبر بها أصدقاءه.

كان هاريل يسعى للتحقّق من واحـد مـن تخميناتـه المشـهورة... فقـد اشـتهر إيسـر هاريل بحدسه الصائب في كثير من الوقائع...

في مساء ٢٨ آذار ـ مارس ١٩٦١، بعد حوالى ثمانية أشهر من المواجهة الدراميّة التي تمّت بين إيسر هاريل وبين إسرائيل بير في مكتـب رئيـس الموسـاد، كـان اليهـود يحتفلون بعيد الفصح، وهو أحد أخصب الأعياد وأحبّها لليهود، ففيه يحتفلون بـالخلاص من العبوديّة في مصر، وفي منازل اليهـود فـي جميـع أرجـاء العـالم، تجلـس العـائلات حول الموائد لتناول "السيدير"، وهي وجبة عيد الفصح التقليديّة التي تُتلـى معهـا حكايـة الخلاص.

في الساعة الثامنة من ذلك المساء، خرج رجل مـن شـقّته الواقعـة فـي ٦٧ شـارع برانديس في تلّ أبيب، وكان المسـاء دافئـًا، لكـنّ النسيم العليـل الـذي يهـبّ مـن البحـر الأبيض المتوسّط إلى الشاطئ حمل ذلك الرجـل إلـى تزريـر معطفـه، وكـانت فـي يـده حقيبة أوراق جلديّة.

أسرع الرجل خطاه في الشارع الخالي من المارّة، وهو يتلفّت من حولـه، كمـا لـو أراد التأكّد من أنّ أحدًا لا يقتفي خطاه، واستدار إلى شارع جانبيّ وتوقّف قليلاً في ظلّ غرفة للهاتف، وكان يلهث آنذاك بالرغم من أنّه لم يبتعد أكثر من ٢٠٠ متر عـن شـقّته التـي خرج منها، وتوقّف للحظات قليلة لالتقاط أنفاسه، ثمّ تلفّت من حولـه مـرّة أخـرى، ولمّا لم يلحظ أحدًا في الجوار انطلق منحدرًا في الشارع إلى مقهـى صـغير فـي أقـرب زاوية من زواياه.

سعد صاحب المقهى الذي كان يجلس وراء الباب بمشاهدة أوّل زبون يراه في ذلك المساء، وطلب هذا الزبون زجاجة كونياك، ومضى بها إلى منضدة في زاوية الحانة، بعيدًا عن أضواء الشارع الساطعة، ووضع حقيبة أوراقه الجلديّة على مقعد مجاور. ولمّا حاول صاحب المقهى أن يفتح مع الزبون محادثة وديّة، أجابه هذا إجابة جافّة، معبّرة عن عدم رغبته في الحديث، ومضى يحتسي الكونياك في صمت. ثمّ أشعل الرجل سيجارة، ونظر بقلق إلى ساعته...

بعد خمس دقائق، دخل رجل آخر إلى المقهى. وكان يرتدي بذلة سوداء قاتمة، وعلى رأسه قبّعة ذات حافّة عريضة، وبعد أن لوّح بيده للزبون الجالس اقترب منه وجلس على كرسيّ مقابل له حول المنضدة.

لم يتبادل الرجلان شيئًا من الحديث، وبعد لحظات من الجلوس، نهض الوافد وخرج من المقهى... وفي يده حقيبة أوراق الرجل الآخر... وبعد ثوان معدودات، نهض الزبون الأوّل، ودفع ثمن الشراب، وبدون أن ينبس ببنت شفة، غادر المقهى، ليلفّه الليل، في حين شرع صاحب المقهى في كنس مقهاه وتنظيفه ثمّ إغلاقه.

في الخارج، تلفّت الرجل الطويل حوله مرّة أخرى، قبل أن يسير عائدًا نحو منزله، وعاد أدراجه في الطريق الذي جاء فيه، وإن كان صفر اليدين الآن... من دون حقيبة. وعندما بلغ الرجل الطويل باب المبنى الذي تقع فيه شقّته، دخل منه دون أن يكلّف نفسه عناء التلفّت في ما حوله... كان مطمئنًّا إلى أنّ أحدًا لم يتعقّبه. وبعد أن صعد الدرج المؤدّي إلى شقّته، دخل فيها واتّجه صوب مكتبته، التي تعمر جدرانها بكتب من عدّة لغات، وهناك جلس يترقّب...

عند منتصف الليل، كان صوت سيّارة مسرعة يمزّق سكون الليل في ذلك الشارع. وعند الرقم ٦٧، توقّفت السيّارة، ونزل منها الرجل الغريب ذو القبّعة، وهو

الرجل الثاني الذي زار المقهى القريب قبل بضع ساعات. وكانت في يده حقيبة الأوراق التي أخذها من صاحبه وسار هذا الرجل إلى باب المبنى رقم ٦٧، ودخل بدون أن يطرق الباب، ومن الواضح أنّ قدومه لم يكن مفاجئًا، وأنّه لم يتوقّع مكوثه طويلاً... فقد ترك محرّك سيّارته دائرًا.

دقّ جرس الهاتف في منزل إيسر هاريل، وتناول هاريل السمّاعة على الفور، فقد كان ينتظر هذه المكالمة، التي عرف فيها صوت واحد من كبار عملائه، ولم يكن من داع للاعتذار عن المكالمة في ليلة العيد تلك حيث قال له:

"جرت مقابلة بين رجلنا وبين رجل الاتّصال الروسيّ للمرّة الثانية في هذا المساء، فقد تقابلا في المقهى الصغير الذي تعرفه، وكان مع رجلنا حقيبة أوراق سلّمها إلى رجل الاتّصال، ثمّ افترقا... وقمت بتعقّب خطى رجلنا حتّى المنزل، وأنا الآن في خارج المكان، وقد دخل الرجل الروسيّ قبل لحظات ومعه حقيبة الأوراق التي تسلّمها في المقهى، وهو مع رجلنا الآن في الداخل.

وكان إيسر بالغ القلق، ولكنّه لم يفاجأ بما حدث، فرقم ٦٧ شارع برانديس هو عنوان إقامة: إسرائيل بير، مستشار رئيس الوزراء، المستشار الذي أصبح الآن متّهمًا. وقد قرّر هاريل أنّ الوقت قد حان ليضرب ضربته. ولكن ينبغي أن يتمّ كلّ شيء بطريقة صحيحة وبارعة، فإلقاء القبض على البروفيسور الآن، وهو متلبّس بتسليم الوثائق إلى أحد الدبلوماسيّين السوفيات الذي عُرف عنه أنّه أكبر جواسيس روسيا في إسرائيل، سيكون له انعكاسات دوليّة وربّما أدّى ذلك إلى إسقاط حكومة بن غوريون...

قرّر هاريل الانتظار حتّى يغادر الدبلوماسيّ منزل بير قبل الشروع في العمل، وفي أثناء ذلك، طلب من عميله، وهو برتبة مقدّم في المخابرات الإسرائيليّة، الحصول

على أمر بالتفتيش في منزل إسرائيل بير واعتقاله. ذلك أنّ كلّ شيء ينبغي أن يتمّ بصورة قانونيّة أو لا يحدث البتّة.

بعد أن وضع هاريل سمّاعة الهاتف، رفعها على الفور مرّة أخرى واتّصل برئيس الوزراء بن غوريون. استمرّت محادثتهما أكثر من عشر دقائق، قال فيها هاريل: "سألقي القبض على إسرائيل بير هذه الليلة".

تردّد بن غوريون لحظة ثمّ قال: "قم بواجبك أنت المسؤول أمامي شخصيًّا". وانتهت المحادثة.

كانت الساعة تشير إلى تمام الثالثة فجرًا، وإسرائيل بير جالس يقرأ في مكتبه، وحقيبة الأوراق ملقاة على المنضدة القريبة، في الموضع الذي تركها فيه بعد مغادرة زائره دون المساس بشيء من محتوياتها. وفجأة سمع طرقة على الباب.

قبل أن يتمكّن بير من إخفاء الحقيبة، أو حتّى من النهوض من كرسيه العتيق، انكسر الباب... وكانت "ضربة معلّم" وحيدة كافية لخلعه من مفاصله... واندفع سبعة رجال في داخل الشقّة، ووقفوا من حول بير الذي كان يجلس منتصبًا متجمّدًا في كرسيه، وقال له أحدهم بهدوء: "إنّك معتقل الآن، ولدينا أمر بتفتيش الشقّة".

وشاهد بير الضابط يوجّه بصره إلى الحقيبة... وأجاب بهدوء بتلك الكلمات التي تفوّه بها بن غوريون قبل ساعات في المكالمة الهاتفيّة مع هاريل: "قم بواجبك"

كان بير يعلم حقّ العلم مَن هو ضابط المخابرات المضادّة الذي تحدّث إليه، فقد كان يعرف اسمه الشخصيّ منذ عدّة سنوات، ولم يزد على أن قال: "هل تمانع في أن أدخّن؟"...

كان ضابط الموساد المسؤول عن اعتقال إسرائيل بير يعلم أنّه يتعامل مع رجل من أبرز رجالات البلد، فقد كان بير حاضرًا في مدرسة الجيش التي يتدرّب فيها الضابط، وكان كولونيلاً في الاحتياط ومستشارًا ناصحًا لوزارة الدفاع ورئيس الوزراء نفسه، وقد أحسّ الحاضرون بالصدمة جميعًا، إذ لم يكن العملاء يصدّقون أنّ الرجل الذي قدموا لاعتقاله إنّما كان واحدًا من جواسيس الـ KGB... آلا يمكن أن يكونوا مخطئين في شأنه؟... لقد كانوا يتمنّون ذلك... بيد أنّ شكوكهم، مهما كان أمرها، سرعان ما تبدّدت عندما فتح الضبّاط حقيبة الجلد التي كانت ما تزال ملقاة على المنضدة القريبة من بير... وفي داخل الحقيبة شاهد الضابط عددًا من الوثائق البالغة السريّة، ومنها قائمة مفصّلة لمصانع الأسلحة الكبرى في إسرائيل، وفوق ذلك كلّه شاهدوا مفكّرة بن غوريون الخاصّة، التي استعارها البروفيسور حين عبّر له عن رغبته في كتابة سلسلة من المقالات عن "فلسفة بن غوريون في القيادة والحكم"... ولم تكن هذه المفكّرة تحتوي على أكثر أفكار بن غوريون الخصوصيّة فحسب، بل كانت تحتوي فوق ذلك على عدد من أسرار الدولة التي كان وزراء الحكومة يجهلون بعضًا منها.

عندما قدّم إيسر هاريل مفكّرة بن غوريون إليه، علّق رئيس الوزراء على ذلك متبرّمًا: "كنت غارقًا في محيط من الأكاذيب"... ومن الواضح الجليّ أنّ الحادث كان أليم الوقع على نفسه. وقد أحجم هاريل عن الإشارة إلى أنّه أعرب عن ارتيابه من بير في وقت مبكّر يعود إلى عام ١٩٥٣، ومن الأمور التي تُسجّل له ولموشي دايان، أنّ كليهما قد قاوم رغبة بير في الالتحاق بالجيش، وأنّ بير قد اتّكأ على صداقته مع بن غوريون في مقابل ذلك ليتمّ تعيينه مستشارًا رسميًّا في وزارة الدفاع ليتسنّى له الوصول إلى جميع ما لها من وثائق.

إطمأنّ هاريل الآن إلى أنّ بير قد كان يعمل لصالح موسكو عدّة سنوات. ولكن هذا لم يعترف بشيء في أيّام الاستجواب الأولى، وبقي يكرّر تلك الصورة التي يرسمها لسيرة حياته أمام أصدقائه وزملائه عدّة سنوات...

وفقًا لرواية بير عن سيرة حياته، أنّه وُلد في فيينّا عام ١٩١٢، وهاجر والداه إلى الولايات المتّحدة، ولكنّهما عادا إلى أوروبّا بعد وقت قصير. ودرس بير الإنسانيّات والأدب الألمانيّ في جامعة فيينّا حيث تتلمذ، كما زعم، على يد "ماكس راينهاردت"، رجل المسرح المعروف، وفي أثناء دراسته بالجامعة، انضمّ إلى الطلاّب الذين تمرّدوا ضدّ الديكتاتور "أنغلبرت دولفوس"، واشترك في حرب الشوارع ضدّ النازيّين في عام ١٩٣٤، وتدرّب بير في أكاديميّة "فينز نوشنات" العسكريّة كما قال، وأصبح ضابطًا في "الشوتسباند" أو "حلف الدفاع النمساوي". وفي عام ١٩٣٦، ذهب إلى إسبانيا للقتال إلى جانب لواء الأمميّين ضدّ الفاشيّين في الحرب الأهليّة الإسبانيّة، وقد خوّله تدرّبه العسكريّ أن يصبح مدرّبًا هناك، وتعرّف على جميع كبار العسكريّين الشيوعيّين، واشترك معهم في معركتَي "مدريد" و"غوادا لاخارا" الشهيرتين، وساهم في معركة "تيول" الضارية. وفي أوائل عام ١٩٣٨، حين تبيّن أنّ الحرب ستكون خاسرة، هرب من إسبانيا، وطُلب منه السفر إلى موسكو ليتلقّى تدريبًا إضافيًّا. ولكنّه بدلاً من ذلك، عاد إلى فيينّا، حيث تأثّر بالفكر الصهيونيّ، وبعد وقت قصير صحّ عزمه على الهجرة إلى فلسطين، وقال بير لمحقّقي المخابرات متحدّيًا: "هذه هي قصّة حياتي، مثلما تعرفون جميعًا".

في ذلك اليوم الرابع من بدء الاستجواب، زاره إيسر هاريل، وكان هذا يعلم أنّ الأسير لا يبدي أيّ تعاون من جانبه، فدبّر شيئًا لمواجهته. حدّق هاريل إلى عيني بير، كما فعل في لقائهما السابق، قبل عدّة أشهر، وقال له في نبرة هادئة... وعنيدة:

"أنا أعرف أنّك جاسوس سوفياتيّ، أخبرني الحقيقة، إذا تعاونت معنا فسوف تسهل الأمر على الجميع، وعلى نفسك أيضًا. أخبرني حكايتك الحقيقيّة".

في مواجهة هذا التحدّي، أعاد بير القصّة ذاتها مرّة أخرى حتّى إذا فرغ منها قال له هاريل بهدوء: "كذّاب... فقد انكشفت جميع ادّعاءاتك: لم نجد أيّ أثر لوالديك في النمسا، ولو كانا يهوديّين نموذجيّين، كما تدّعي، فلماذا لا تكون مختونًا؟... لقد فحصنا جميع السجلاّت النمساويّة، فتوصّلنا إلى أنّك لم تقاتل في متاريس الشوارع، ولم تحصل على شهادة الدكتوراه كما تدّعي، بل إنّك لم تدرس في الجامعة، ثمّ إنّك لم تذهب إلى الأكاديميّة العسكريّة، فقد كان هذا محظورًا على اليهود آنذاك. وقد طلبنا دراسة قوائم الأسماء فلم يُعثر على اسمك فيها، وليس اسمك موجودًا في قوائم الشوتسباند كذلك... ونقّبنا في سجلاّت لواء الأمميّين، ولم نعثر على اسمك فيه، إنّك لم تحارب قطّ في إسبانيا، والواقع أنّك لم تساهم في أيّ حملة عسكريّة في أيّ مكان من العالم... والآن، قل لي: من أنت... أخبرنا الحقيقة"...

اتّضح لبير أنّ الموساد قد عرف زيف ادّعاءاته، فانهار... وفي الأيّام الثلاثة التالية أملى تقريرًا وافيًا بنشاطاته التجسّسيّة.

كان هاريل اشتبه في أنّ موسكو قد "جنّدت" بير بُعيد حملة السويس في عام ١٩٥٦، وألحّت عليه منذئذٍ في تقديم أيّ معلومات يمكنه الحصول عليها، وعندما كانت فرنسا تزوّد إسرائيل بالأسلحة، نقل بير تفصيلات كميّة ونوعيّة ما يصل إلى إسرائيل منها، وكذلك فعل بصدد الأسلحة التي اشترتها إسرائيل من ألمانيا، كما أنّه جمع ما استطاع من المعلومات عن دور ألمانيا في حلف الأطلسيّ، في أثناء سفره إلى ألمانيا. وكانت أبحاث بير العلميّة في التكنولوجيا النوويّة خصوصًا، أحد الموضوعات التي يُحتمل أن يكون رؤساء بير في موسكو قد طالبوه بتقديم معلومات عنها.

وبقي بير يمزج الحقيقة بالوهم، حتّى في أثناء بوحه باعترافاته، فقام عملاء الموساد وحلفاؤهم في إسرائيل وأوروبّا، ومنها البلدان الشيوعيّة، بالتحقّق من كلّ كلمة تفوّه بها، وأثبت البحث الدؤوب الذي قاموا به بطلان الكثير من ادّعاءاته.

بدأت محاكمة بير في حزيران - يونيو ١٩٦١، وأدّت طبيعة الكثير من الأدلّة في قضيّته إلى بقائها سرًّا، وكذلك بقيت بعض اعترافاته بشأن الطريقة الدقيقة التي نقل بها المعلومات إلى موسكو سرًّا مكتومًا... ومن المعلوم، على أيّ حال، أنّه قد نقل للروس خططًا عسكريّة تتّصل بتكتيك القتال، كما نقل قوائم عن منشآت عسكريّة سريّة، فضلاً عن معلومات حول من يزورون إسرائيل من الأجانب.

في أثناء المحاكمة، دافع بير عن نفسه بأنّه فعل ما فعله لاعتبارات وطنيّة، وقال: "لقد شعرت بأنّ من واجبي المساهمة في إنقاذ إسرائيل من الوقوع في قبضة القوى الغربيّة... وأعتقد أنّ على إسرائيل التحالف مع البلدان الشيوعيّة، وأنا لم أخن إسرائيل قطّ، وإنّما كانت جميع جهودي رامية إلى إبعادها عن الطريق المؤدّي بها إلى كارثة سياسيّة".

تمّ الحكم على إسرائيل بير من قبل محكمة الجنايات الأولى في تلّ أبيب التي من اختصاصها محاكمة الجواسيس بالسجن ١٥ عامًا، بعد دفاعه عن نفسه ومبرّراته التي قدّمها أمام المحكمة. ولم تتسرّب أيّ معلومات عن تخفيف الحكم عنه أو ما شابه[١]...

١ - الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٥: ١٣٩ - ١٥٢.

أَنَاتولي جُوليتسين: الجاسوس السوفيَاتي الأُسطوري المرتَد

مثلهم كمثل لاعبي البوكر الذين يضعون كومات مـن الفيشـات علـى الطاولـة أمـام لاعب برغم اقتناعهم أنّه لاعب مخادع، قام رجال مكافحة التجسّس بوضع كومات مـن الـورق أمـام روسـيّ غليـظ الرقبـة... وبذلـك، تلقّـى الميجـر فـي جهـاز الاسـتخبارات السوفياتيّ KGB "أناتولي جولينسين"، هذا الأمر:

"من فضلك، إقرأ هذه التقارير، وأبلغنا بما لفت انتباهك في موسكو"...

كان ذلك في كانون الثاني - يناير ١٩٦٢. وقبل ذلك ببضعة أسابيع، كان جولسـتين ارتدّ إلى وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA من منصبـه كموظّـف مقيـم فـي هيلسنكي بفينلندا. وزعـم أنّـه يملـك كميّـة هائلـة مـن المعلومـات حـول عمليّـات جهـاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB في مختلف أنحاء العالم، وأنّه يريد أن يقيم وكالة مكافحة تجسّس تتكوّن من رجل واحد من أجل اقتـلاع جـذور الجواسيس العـاملين فـي الظـلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB الذين زعم أنّهم موجودون في كلّ حكومـة غربيّة وفي كلّ وكالة استخبارات، من بينهـا وكالـة الاسـتخبارات المركزيّـة الأميركيّـة CIA. وكمثل على معلوماته، قام بإبلاغ الذيـن قـاموا باسـتجوابه أنّـه قـرأ وثـائق باللغـة السريّة خاصّة بمنظّمة حلف شمال الأطلسي "الناتو" أثناء وجوده في موسـكو قبـل عدّة سنوات، وذلـك لأنّ الجواسـيس العـاملين فـي الظـلام لحسـاب جهـاز الاسـتخبارات السوفياتيّ KGB كانوا يقومون بانتظام بتزويد موسكو بكافّة القرارات الرفيعة المستوى التي يتّخذها حلف الناتو بمجرّد كتابتها...

لو كان هذا صحيحًا، فإنّ ذلك يعني أنّ تغلغل جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB كان على درجة كبيرة حتّى أنّ حلف الناتو كان كتابًا مفتوحًا بالنسبة له. وفي نظر بعض مستمعيه، فإنّ مثل هذا الإفشاء للأسرار ينطوي على مبالغة ذاتيّة، وتلك نزعة ليست غير عاديّة عند المرتدّين في محاولتهم تضخيم معلوماتهم وأهمّيتهم من أجل تعزيز مكانتهم والتأهّل لنوعيّة المدفوعات السخيّة التي تقوم وكالات مكافحة التجسّس الشاكرة بدفعها إلى المصادر النافعة.

وكمحاولة لاختبار مزاعم جوليتسين بتغلغل جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB في حلف الناتو، تقرّر وضع عدّة وثائق أمامه، من بينها بعض الأوراق المزيّفة جيّدًا. ولو كان يملك بالفعل المعلومات التي يزعم أنّه يملكها، فينبغي أن يكون قادرًا على اكتشاف الفرق بينها.

ما أصاب الحاضرين بشعور بالصدمة هو أنّ جوليتسين اعتبر الاختبار كأنّه لعبة صبيانيّة... وقال بلهجته السلافيّة الثقيلة وهو يضع إحدى الوثائق المزيّفة جانبًا:

"هذا خداع".

وفي غضون نصف ساعة، ألقى جوليتسين نظرة سريعة على الوثائق، وكان قادرًا، على نحو صحيح، على اكتشاف الأوراق المزيّفة. وحينما سُئل عن الأسباب التي جعلته متمكّنًا من القيام بمثل هذا العمل الفذّ بمجرّد إلقاء نظرة سريعة على كومة من الأوراق، أجاب جوليتسين ببساطة:

"السبب، كما أبلغتك من قبل، هو أنّني قرأت هذه الوثائق من قبل في موسكو".

وبذلك، دخل أناتولي جوليتسين أسطورة التجسّس. وفي العامين اللاحقين، قام بالكشف عن مجموعة من عملاء جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB والجواسيس

النافعين في العالم الغربيّ، الأمر الذي أدّى إلى حدوث جملة من الأضرار التي لم يحدثها مرتدّ آخر في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB. ولكن، كما اتّضح في وقت لاحق، فإنّ الأضرار التي أحدثها لم تقتصر على جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، بل أحدث أيضًا أضرارًا قاتلة أخرى داخل وكالات الاستخبارات الغربيّة ذاتها التي تظاهر بمساعدتها...

لم يكن هناك شيء في خلفيّة جوليتسين يشير إلى دور نهائيّ خاصّ به كواحد من الباحثين عن الأشياء الغارقة، حتّى لو كان ذلك ضدّ جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB. وكان سجلّ جوليتسين، المولود عام ١٩٢٦ لأبوين مزارعين أوكرانيّين، يظهر لمحة عن حياة نموذجيّة لشخصيّة موالية محترفة في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB: كليّة عسكريّة، وعضويّة في الكومسومول أي حركة الشبيبة في الحزب الشيوعيّ، وكليّة المدفعيّة التابعة للجيش، وعضويّة في الحزب الشيوعيّ، وانتقال إلى دائرة مكافحة التجسّس التابعة لجهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB.

من هنا، فهو كان يُعتبر في وقت مبكّر بمثابة القادم الجديد، ذلك أنّ جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB أرسله إلى كليّة الاستخبارات العليا التابعة له، وهي الكليّة التي تقوم بتخريج كبار رجال التجسّس المستقبليّين، ثمّ أرسله في العام ١٩٥٣ إلى أحد أهمّ مراكزه، في فيينّا. وبعد جولة استغرقت عامين، عاد إلى مركز موسكو للعمل كمسؤول في أحد أشدّ الدوائر حساسيّة في الجهاز، وهي الدائرة الأنكلو ـ أميركيّة، حيث قرأ وثائق حلف الناتو البالغة السريّة، وعرف مدى تغلغل جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB الهائل في صفوف الخصوم الغربيّين.

سنة ١٩٦١، جرى إرساله إلى مركز رئيسيّ آخر تابع لجهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB في هيلسينكي، حيث ظهر في يوم مشهود وشديد البرودة في كانون

الأوّل - ديسمبر في السفارة الأميركيّة مع زوجته وابنته البالغة من العمر سبع سنوات، وأعلن عن رغبته في الارتداد.

مع أنّ جوليتسين لم يكن يعرف احتمالات المستقبل، فإنّ المسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA لم يشعروا بالدهشة مطلقًا حين ارتداده. وقبل سبع سنوات، قام مسؤول في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، يعمل في فيينّا، إسمه "بيتر ديريابن"، بالارتداد. وأثناء عمليّة استجوابه، حرص القائمون على استجوابه في وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA على تمريره في امتحان معياريّ للمرتدّين: تحليل جميع شخصيّات المسؤولين الآخرين في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB الذين كان يعرفهم في محطّة فيينّا، مع التلميح إلى الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا في تقديره محلاً للارتداد، أو مرتدّين محتملين إلى وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA. وذكر ديريابن إسم زميله جوليتسين المسؤول في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB. وعلى الرغم من سجلّه الذي لا تشوبه شائبة، فإنّ ديريابن أشار إلى أنّ جوليتسين كان في الحقيقة في نظر مركز موسكو بمثابة ألم طفيف في الرقبة... وجوليتسين المتغطرس ذو الطموحات المفرطة تميّز بنزعة اللجوء إلى إثارة الغضب عند رؤسائه. وكان قبل بضع سنوات، أثناء وجوده في موسكو، اقترح خطّة لإعادة تنظيم هيكل الاستخبارات السوفياتيّة برمّتها، وهي خطّة وضع نفسه فيها في مكان بالقرب من القمّة. وجوليتسين، كما ذكر ديريابن، كان شخصيّة لا تطاق، وربّما كان شخصيّة خطيرة. وتنبأ ديريابن بأنّ جوليتسين، في حالة إحباط طموحاته، يمكن أن يرتدّ في أيّ لحظة إلى الجانب الآخر...

إتّضح أنّ ديريابن كان على صواب، وكان جوليتسين، من الناحية المبدئيّة، في حقيقة الأمر، شخصيّة إستخباراتيّة متقلّبة. وكان موجودًا في لعبة الاستخبارات لمجرّد

ما تنطوي عليه من إثارة وخداع، وسواء كان يعمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB أو لوكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA أو لجهاز MI-6 البريطاني، فلم يكن هذا ذا أهميّة، طالما أنّه كان يقوم بدور بارز في السنوات اللاحقة... وقد كانت هذه التركيبة العقليّة ذات أهميّة، ذلك أنّ جوليتسين، في المراحل المبكّرة من ارتداده على الأقلّ، كان ميّالاً إلى معالجة الموضوعات المثيرة.

بفضل عمله في الدائرة الأنكلو ـ أميركيّة التابعة لجهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، كان جوليتسين يملك فكرة عامّة عن الكثير من الجواسيس النافعين العاملين لحساب الجهاز في الغرب. ومن بين هؤلاء "هارولد فيلبي"، الذي حدّد جوليتسين هويّته على نحو نهائيّ وإيجابيّ بأنّه الجاسوس العامل في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB منذ مدّة طويلة. وكان دليل جوليتسين هو الذي قاد جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-6 إلى مواجهة نهائيّة مع فيلبي، الذي عرف بدوره أنّه بات في مواجهة دليل لن يتمكّن من دحضه، وهرب خلف الستار الحديديّ تبعًا لذلك.

من واقع اهتمامه بالنواحي العمليّاتيّة المباشرة، بدأ جوليتسين بعدئذ في الكشف عن الجواسيس النافعين العاملين لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB. وهناك ثلاثة جواسيس أشدّ إثارة من غيرهم، وهؤلاء قاموا بأعمال التغلغل على نحو عميق، حتّى أنّ الكشف عنهم أدّى إلى حدوث خيبة أمل بين وكالات مكافحة التجسّس الغربيّة، وذلك بسبب عدم وجود دليل قاطع على حدوث مثل هذا النزف الدمويّ.

كان أحد هؤلاء الجواسيس "جون فازال"، الكاتب الشاذّ جنسيًّا في الأميراليّة البحريّة البريطانيّة، الذي جرى تجنيده سنة ١٩٥٣ حينما كان مخصّصًا للعمل في موسكو. وكان فازال ضُبط متلبّسًا في عمليّة كلاسيكيّة يطلق عليها "مصيدة عسل": جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB وضعه مع رجل فاجر، يُعرف بالـ"غدافي" بلغة

الاستخبارات السوفياتيّة... وقام بتصوير النتيجة، ثمّ هدّده بتقديم الصور الفوتوغرافيّة إلى رؤسائه ما لم يوافق على العمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB. وقدّم فازال إلى جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB كميّات هائلة من المعلومات السريّة التي وضعت على طاولته، وعلى الأخصّ حينما عمل في دائرة الاستخبارات البحريّة البريطانيّة، حيث رأى تقرير الاستخبارات البحريّة البريطانيّة.

ومن خلال عمليّة "مصيدة عسل" مماثلة، وضع جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB "جون واتكينز" في المصيدة، وهو دبلوماسي كندي شاذّ جنسيًّا، كان وافق على العمل لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB حينما كان مخصّصًا للعمل في موسكو كسفير لكندا سنة ١٩٥٨. وكجاسوس نافع، فهو كان في المكان الأفضل، ذلك أنّه كان باستطاعته تزويد رسائل دبلوماسيّة رفيعة المستوى من كندا وبلدان أخرى. وكانت المنفعة الثانية، وربّما الأكثر أهميّة، هي أنّ حريّة الوصول إلى مثل هذه المعلومات عملت على تمكين محلّلي رموز الشيفرة السوفيات من العثور على "قصاصات صغيرة" ساعدتهم في حلّ رموز الشيفرة الدبلوماسيّة الغربيّة.

الجاسوس الثالث، وهو الأشدّ ضررًا من غيره، هو "جورج باك"، الملحق الفرنسيّ لدى حلف الناتو، والشيوعيّ السريّ الذي جرى تجنيده سنة ١٩٤٦. وهذا الجاسوس قام بتمرير معلومات رفيعة المستوى من كلّ من مقرّ حلف الناتو والحكومة الفرنسيّة.

كشف جوليتسين أنّ باك كان واحدًا فقط في حلقة كبيرة من جواسيس كانوا يعملون في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB وتغلغلوا إلى كلّ مستوى تقريبًا في الحكومة الفرنسيّة. وكانت محاولة جوليتسين إفشاء أسرار هذه الحلقة أمرًا مثيرًا للشعور بالقلق، ذلك أنّ الرئيس الأميركيّ جون كينيدي شخصيًا كتب رسالة إلى الرئيس الفرنسي شارل ديغول حذّره فيها من عمليّات هذه الحلقة، التي جعلت جهاز

الاستخبارات السوفياتيّ KGB تحت الإسم الرمزي "سابفير"... وكانت جهود دائرة مكافحة الاستخبارات الفرنسيّة في ملاحقة هذه الحلقة موضوعًا لرواية "ليون أوريس" وفيلم "الفريد هيتشكوك": "توباز".

في أواخر سنة ١٩٦٣، قام جوليتسين بتخليص نفسه من كلّ شيء تقريبًا كان يتعلّق بعمليّات معيّنة تتّصل بتغلغل جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB في الغرب. ثمّ تحرّك بعد ذلك إلى الخطوة التالية، وهي خطوة أشدّ إثارة للجدل، على طريق أعماله اللاحقة على الارتداد. واشتملت هذه الخطوة على شيء لم يكن يتّصل بتقديم معلومات موثوق بها، وإنّما اشتمل على إثارة شكوك كافية لخداع مضيفيه في وكالات مكافحة التجسّس: تغلغل جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB في أجهزة الاستخبارات الغربيّة.

كان لتلميحات جوليتسين الأولى عن وجود جواسيس يعملون في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB في الاستخبارات الغربيّة رنين معيّن في بريطانيا، حيث كانت مجموعة من المسؤولين في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5، وعلى رأسهم "بيتر رايت" و"آرثر مارتن"، مقتنعين خلال حقبة زمنيّة طويلة بأنّ جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB تمكّن من التغلغل إلى صفوف كلّ من جهازَي الاستخبارات البريطاني MI-5 وMI-6. وبالإضافة إلى ذلك، فهؤلاء المسؤولون اعتقدوا أنّ التغلغل كان على مستوى رفيع جدًّا، على مستوى جاسوس سوبّر يعمل في الظلام، أو ربّما عدد من الجواسيس السوبّر العاملين في الظلام، الذين قاموا بتسهيل أفعال "حلقة الخمسة" العاملين في لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، وتبعًا لذلك، كانوا مسؤولين عن السجلّ البائس للاستخبارات البريطانيّة خلال العشرين عامًا الأولى من الحرب الباردة.

كانت وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA أعارت جوليتسين إلى بريطانيا بسبب ما أصبح يُعرف بأنّه تحقيق في الداخل واسع النطاق تحت الإسم الرمزي "فلوونسي". ومع أنّ أيديهم كانت مغلولة على نحو واضح في ما يتّصل بالنقود المخصّصة للعمليّات الاستخباراتيّة، فإنّ البريطانيّين مع ذلك دفعوا ٢٨,٠٠٠ دولار في الشهر إلى جوليتسين مقابل أن يعمل مستشارًا لعمليّة فلوونسي. ومن النتحية المبدئيّة، فإنّ هذه المهمّة استلزمت استعراضًا للعمليّات الاستخباراتيّة البريطانيّة، وبحثًا في الدلائل التي كشف عنها المرتدّون، وأيّ دلائل أخرى محتملة، وذلك في محاولة لتحديد هويّة الرجل، أو الرجال، الذين حاولوا التقليل من شأن أنشطة دائرة مكافحة التجسّس البريطانيّة في مواجهة الاتّحاد السوفياتيّ.

كانت هناك أشياء كثيرة أمام جوليتسين للقيام باستعراضها. وقبل أكثر من ٢٠ عامًا، كان أحد كبار المرتدّين في وكالة الاستخبارات السوفياتيّة GRU "وولتر كريفيتسكي"، حذّر من وجود جواسيس يعملون في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB في الاستخبارات البريطانيّة. ومع أنّه لم يكن يعرف هويّاتهم، فهو كان يملك دلائل معيّنة. وعلى سبيل المثال، فهو سمع عن "رجل الكشّافة كريم الأصل" الذي كان يعمل صحافيًّا في إسبانيا. وحتّى من خلال جهود متواضعة، كان يمكن ملاحقة الرجال الذين كانوا وراء هذه الدلائل: "دونالد ماكلين"، و"هترواد فيلبي"، غير أنّ شيئًا من هذا القبيل لم يتمّ القيام به. وكانت هناك أيضًا القضيّة اللغز، وهي كيفيّة معالجة قضيّة ارتداد "إيغور جوزينكو" من جانب جهاز الاستخبارات البريطاني MI-5، وكيف جرى صرف النظر عن تحذير جوزينكو من وجود جاسوس يعمل في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB في جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5. وبالإضافة إلى ذلك، فهناك كان اللغز المحيّر، وهو كيف أنّ جاسوسَين نافعَين

مغمورَين، "كلاوس فونش" و"ألن نان ماي"، تقرّر تبرئتهما من أفعالهما البالغة السريّة من جانب جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5 برغم انتمائهما الواضح للشيوعيّة: فونش كان عضوًا في الحزب الشيوعيّ الألمانيّ، وماي كان ناشطًا بارزًا في معهد العلماء والفنيّين الخاضع لهيمنة الشيوعيّين. وكانت عمليّة ملاحقة الجواسيس العاملين في الظلام في كلّ من جهازَي الاستخبارات البريطانيّين MI-5 وMI-6 أصابت الاستخبارات البريطانيّة بالشلل خلال سبعينات القرن العشرين، ولم تتضمن شيئًا ذا أهميّة: "أنطوني بلانت" اعترف، وذكر اسم اثنين من الجواسيس العاملين في الظلام، غير أنّ "السمكة الكبيرة" لم يتمّ العثور عليها. وكان بيتر رايت مقتنعًا بأنّ مدير جهاز الاستخبارات البريطانيّ MI-5 "روجر هوليس" كان الجاسوس السوبّر العامل في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB، غير أنّ هوليس جرت تبرئته أخيرًا في عمليّة "فلوونسي".

كان تقرير في جريدة حول عمليّة "فلوونسي" ودور جوليتسين فيها وضع حدًّا سابقًا لأوانه في ما يتعلّق بعمله في بريطانيا. وحين عودته إلى الولايات المتّحدة، ذهب جوليتسين إلى مكتب رئيس دائرة مكافحة التجسّس الأميركيّة التابعة لوكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA، واجتمع إلى الأسطورة "جيمس أنغيلتون". وفي تلك الحقبة، ولأسباب لم يفصح عنها أنغيلتزن أبدًا، أصبح مدير دائرة مكافحة التجسّس الأميركيّة واحدًا من أشدّ المدافعين عن جوليتسين.

ومثلما زعم أمام الاستخبارات البريطانيّة، فإنّ جوليتسين أصرّ على القول إنّ هناك تغلغلاً رفيع المستوى من جانب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB في صفوف الاستخبارات الأميركيّة، وعلى الأخصّ في وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA. وعلى حدّ قول جوليتسين، فإنّ هذا الجاسوس السوبر العامل في الظلام كان

يحمل الإسم الرمزيّ "ساشا"، وهو بدوره كان يساند شبكة من الجواسيس المماثلين العاملين في الظلام. والكثيرون من هؤلاء الجواسيس العاملين في الظلام كانوا منهمكين في تطبيق نظريّة جوليتسين: حملة تضليل إعلاميّة هائلة ومخادعة يفتعلها جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB تؤدّي إلى تضليل الغرب تمامًا في ما يتّصل بقدرات ونوايا السوفيات. وكجزء من تلك النظريّة، أصرّ جوليتسين على القول إنّ الانشقاق الصيني ـ السوفياتي كان في الحقيقة خداعًا كبيرًا.

شرع أنغيلتون في تمزيق وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA من خلال البحث عن الجواسيس السوبّر العاملين في الظلام، مندفعًا إلى ذلك بتحريض من تلميحات جوليتسين بوجوب طرح الثقة في جميع العاملين في الدائرة السوفياتيّة التابعة لوكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA، وعلى الأخصّ هؤلاء الذين يتحدّثون الروسيّة. وبالنتيجة، تعرّضت عمليّات وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA ضدّ الاتّحاد السوفياتيّ للشلل، بينما أفسدت الشكوك أنشطة أكثر من مائة مسؤول في وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA. وبلغت هذه الملاحقة المجنونة ذروتها سنة ١٩٦٤، حينما تعرّض مسؤول مرتدّ آخر في جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB "يوري نوزينكو" لاعتقال غير قانونيّ لحوالى ثلاث سنوات بسبب أن جوليتسين أبلغ أنغيلتون أنّ نوزينكو ربّما كان جاسوسًا تابعاً لجهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB ومزروعًا بقصد التضليل الإعلاميّ. وقد أبلغ نوزينكو القائمين على استجوابه بعدم وجود جاسوس يعمل في الظلام لحساب جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB في وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA، وأنّ جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB على العكس من تلميحات جوليتسين، لم يكن له مصالح عمليّاتيّة في قضيّة "لي هارفي أوزولد" حينما كان القاتل الرئاسيّ يعيش في الاتّحاد السوفياتيّ...

انتهى نفوذ جوليتسين المشؤوم في العام ١٩٧٤، حينما طُرد أنغيلتون من الخدمة في أعقاب الكشف علانيّة عن دوره في عمليّة تجسّس داخليّة غير قانونيّة قامت بها وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ جوليتسين كان له أنصار متحمّسون في كلّ من الاستخبارات البريطانيّة والأميركيّة، وكانوا يبدون استعدادًا لتقديم المساعدة حينما كتب "التحفة الأدبيّة الرائعة"، وهي عبارة عن مخطوطة تتألّف من مليون كلمة لكتاب أدّى إلى قلب وجهة النظر الغربيّة عن العالم رأسًا على عقب. وكتب جوليتسين أنّ كلّ الافتراضات حول التاريخ الحديث خاطئة، وذلك لأنّ عمليّات التضليل الإعلاميّة المخادعة التي قام جهاز الاستخبارات السوفياتيّ KGB بها، قامت على الاستخفاف بعقول الناس كافة. وحاول أن يجد كاتبًا محترفًا لتحويل هذا المجلّد إلى كتاب. غير أنّ جميع الكتّاب الذين فاتحهم في الأمر قرّروا عدم المشاركة، ربّما بسبب إصراره على حمل مخطوطته في حقيبة صغيرة مربوطة في رقبته... وأخيرًا، جلس أنصار جوليتسين المتحمّسون في كلّ من جهازي الاستخبارات البريطانيّين MI-5 وMI-6، واستخلصوا كتابًا من المخطوطة، تحت عنوان "أكاذيب جديدة لأخرى قديمة"، ونُشر الكتاب على نحو تجاريّ، ولكنّه غرق بدون أثر...

اختفى جوليتسين أخيرًا عن مسرح الاستخبارات... ومعظم المؤيّدين له على جانبي الأطلنطي، ومن بينهم أنغيلتون، إمّا ماتو أو تقاعدوا. وفي ١٩٩٠، أثناء وجوده في الولايات المتّحدة تحت هويّة مزعومة، زعم جوليتسين أنّ انهيار الشيوعيّة في أوروبّا الشرقيّة كان في الحقيقة جزءًا من عمليّة خداع سوفياتيّة طويلة الأجل، ولم يلتفت أحد إلى هذا الزعم، باستثناء هؤلاء الأنصار المتحمّسين القلائل الباقين[1]...

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سرّيون، ص١١٠ ـ ١١٩.

ضفدع بريطاني في أسفل مدمّرَة سوفياتيَّة

عادة تَطرح حكايات أشهر الجواسيس في التاريخ الحديث نماذج من العملاء يؤدّون مهمّاتهم بقناعة ذاتيّة، وبدوافع تمتزج فيها روح المغامرة والالتزام الصارم مع أنفسهم بأنّهم إذا ما أخفقوا في أداء ما يكلَّفون به من مهام، فإنّ الثمن الباهظ المترتّب على الإخفاق قد يكون حياتهم في أسوأ الأحوال، أو الإنزواء في كهوف الصمت والظلام بقيّة أعمارهم في أفضلها. فجميع الحكومات، غربيّة أم شرقيّة، في العالم الصناعي المتقدّم أو في بلدان العالم الثالث، وأجهزة المخابرات التابعة لهذه البلدان جميعها، عادة ما تنأى بنفسها عن الاعتراف العلني بمهامّ عملائها سواء الناجحة من هذه المهام أو الفاشلة، ويستحيل أن توجد تلك الحكومة أو جهاز المخابرات اللذين يعترفان بانتماء عملائهما أو المرتزقة إليهما.

ومن بين آلاف العمليّات التي تمّت على مسارح حروب الصمت طوال أكثر من نصف قرن، ما زالت هناك أكوام هائلة من الملفّات المجهولة التي تطوي بين أوراقها قصصًا ونماذج أكثر إثارة وغموضًا لكثير من العمليّات التي أخفقت في إدارتها أعتى أجهزة المخابرات العالميّة، والمعتقد أنّه لن يُزاح النقاب عنها سواء بمقتضى قوانين الكشف عن الأسرار والمواثيق التي مضى على وقوعها أو إبرامها ثلاثون عامًا أو خمسون عامًا، وتكشف عنها بعض الحكومات الغربيّة في مطلع كلّ عام جديد، أو بمقتضى قوانين اللعبة التقليديّة التي تمارسها الأمم في أروقة ظلام العواصم المعادية، وبين أوساط صنّاع القرار في حكوماتها.

غير أنّه عندما تفتضح ملامح أيّ من هذه المغامرات السريّة وتصبح أحاديث وتحقيقات تتناولها أجهزة الإعلام العالميّة، تخفق عادة أيّ محاولات يتمّ التغطية بها عليها، وتظلّ تفاصيلها الغامضة تُتداول وتُلاك لمدّة تطول أو تقصر، ولكنّها في النهاية ما تلبث أن تختفي في قيعان النسيان والذاكرة الجماعيّة للشعوب، وإن ظلّت ملفّاتها تطوي أوراقًا مجهولة لن يزاح النقاب عنها إلى الأبد. وأمثلة حادثة اغتيال الرئيس الأميركي جون كينيدي، وفضيحة ووترغيت، وشبكات التجسّس السوفياتيّة داخل أجهزة المخابرات البريطانيّة، خلال سنوات الحرب الباردة، وآلاف العمليّات التي أدارها عملاء وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA منذ مطلع خمسينات القرن العشرين، والكثير غيرها من ممارسات معارك وحروب عالم الصمت، أكبر النماذج التي لن يزاح النقاب عنها مهما تناولها الرواة والكتّاب أو حتّى مخرجو الأفلام السينمائيّة.

واحدة من أكثر هذه القصص غموضًا، واصلت الحكومات البريطانيّة المتعاقبة منذ وقوعها قبل أكثر من أربعة عقود من الزمن، تُحكم من حولها ستائر التعتيم سواء بقوانين حظر إفشاء الأسرار الرسميّة أو خطورة العمليّة التي تمّت ولم يعرف خفاياها وحقيقة أبعادها سوى عدد محدود من كبار العاملين في أروقة أجهزة المخابرات البريطانيّة، آنذاك، ولا يتجاوز عددهم نصف أصابع اليد الواحدة. فيما ظلّت حكاية أحد أشهر الجواسيس البريطانيّين في عام ١٩٥٦ سرًّا مطويًّا، مدفونة تفاصيله في أوراق ملفّات الوايتهول حتّى الآن.

قضيّة الكوماندور "ليونيل كنيث فيليب كراب" الحائز على أرفع الأوسمة الملكيّة تقديرًا لأدوار البطولة التي أدّاها في معارك الحرب العالميّة الثانية، لم يُكتب عنها الكثير، ولم يعرفها المواطنون في بلاده إلاّ في سطور مختصرة نشرها بعض الصحف البريطانيّة في الصفحات الداخليّة تلميحًا إلى جهوده كضفدع بشريّ اختار خوض

معاركه باسم بلاده في أعماق البحار، وتحت الماء، كخبير في تدمير الأهداف المعادية. أمّا هذه المعارك وذكر الأهداف فقد ظلّت سرًّا لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه أو الخوض في تفاصيله، ولذا عندما اختفى الكوماندور كراب في أعماق مياه خليج "بورموث" عام ١٩٥٦، وُصفت عمليّة اختفائه الغامضة وجهود البحث عنه بأنّها قد وقعت أثناء قيامه بتجاربه على معدّات غوص جديدة. ولم يهتمّ أحد بالسؤال عن هذه المعدّات وأيّ وظيفة يمكن أن تؤدّيها لمغامر بطل في حجم الكوماندور كراب، الذي سبق له القيام بعشرات المهامّ في ظروف أكثر صعوبة ومخاطر أكبر من الغوص في أعماق خليج بحريّ هادئ مثل بورموث على الشواطئ البريطانيّة.

ما لم تذكره الصحف البريطانيّة أو تربط به بين حادث اختفاء الكوماندور كراب وبين حقيقة تصادف وجود أحدث المدمّرات السوفياتيّة، آنذاك، في مياه خليج بورموث، المدمّرة "أوردزنونيكيدز" التي استقلّها الزعيمان "نيكيتا خروتشوف" والمارشال "بولغانين" في أوّل زيارة لهما لبريطانيا، أو السؤال عن التجربة التي كان يقوم بها الكوماندور كراب في مياه بورموث وبمعدّاته الحديثة صباح أحد أيّام شهر نيسان - إبريل الذي شهد زيارة الزعيمين السوفياتيّين لبريطانيا.

الحقيقة التي تردّدت في الاجتماعات الخاصّة لكبار المسؤولين في دوائر الوايتهول، كانت تكشف بعض تفاصيل مهمّة الكوماندور كراب الذي كان يقوم بالفعل بالتجسّس على القاع الخارجي الغارق تحت الماء في ميناء بورموث وأسرار المعدّات المزوّدة بها والتي انطوت مع اختفاء كراب نفسه.

إلاّ أنّ الذي كان يضيف إلى مثل هذه الأحاديث كمًّا آخر من الغموض، هو حقيقة أنّ الكوماندور كراب، كان قد قام قبل ذلك بمهمّة تجسّس مماثلة على شقيقة المدمّرة أوردزنونيكيدز، المدمّرة "سفيردلوف"، عندما قامت بزيارة وديّة لميناء بورموث قبل

عام من زيارة الزعيمين خروتشوف وبولغانين لبريطانيا. وقد نقل كراب تفاصيل الأسرار التي اكتشفها في المدمّرة إلى المسؤولين في البحريّة والمخابرات البريطانيّة.

وانتقلت التساؤلات من أروقة الاجتماعات الخاصّة لكبار المسؤولين في الوايتهول إلى قاعة مجلس العموم في التاسع من أيّار ـ مايو، بعد انتهاء زيارة الزعيمَين السوفياتيَيين لبريطانيا. وكان الردّ الوحيد الذي أجاب به رئيس الحكومة المحافظة آنذاك على تساؤلات أعضاء البرلمان في جلسة سريّة حول أسباب اختفاء الكوماندور كراب، والموقف من الاجتماع السوفياتي الرسمي على وجود الضفادع البشريّة البريطانيّة في مياه ميناء بورموث أثناء وجود المدمّرة أورودزنونيكيدز بأنّه "ليس من المصلحة العليا البريطانيّة إعطاء أيّ تفسيرات حول الظروف التي تمّت فيها عمليّة اختفاء الكوماندور كراب".

لم يتردّد زعيم المعارضة العمّاليّة، آنذاك، "هيو غيتسكل" في الردّ على رئيس الحكومة "أنطوني إيدن" والتأكيد بأنّ امتناعه عن تقديم بيان رسمي للأزمة حول ظروف اختفاء الكوماندور كراب هو أيضًا من المصالح العليا للأمّة البريطانيّة، والتي يهمّ الشعب معرفتها دون التعرّض لأيّ أسرار تنتهك مجالات الأمن البريطاني.

ولكنّ إيدن، ومن بعده كافّة رؤساء الحكومات البريطانيّة المتعاقبة التزموا الصمت، وامتنعوا عن تقديم أيّ إجابات أو إذاعة بيانات رسميّة تكشف حقيقة المهمّة التي كان يقوم بها الكوماندور كراب والأسرار التي كانت بريطانيا تكافح في معرفتها في أسفل قيعان المدمّرة السوفياتيّة وبغضّ النظر عن الاعتقاد الذي ساد بأنّ كراب قد لقي حتفه غرقًا أثناء أداء مهمّته.

بعد مضيّ عقود على وقوع الحادث، من الطبيعيّ أنّ الحديث في الماضي عن معدّات فنيّة حديثة يستخدمها رجال الضفادع البشريّة في أداء مهمّات الغوص في

أعماق البحار لا بدّ أن تكون قد نشرت تفاصيلها منذ سنوات بعيدة على صفحات مجلّة "غنيز" التي تعنى بشؤون الأسلحة والمعدّات الحربيّة وأجهزة الغوّاصين، ولكنّ الحقيقة التي استمرّ إخفاؤها عن صفحات غينيز ومن وثائق الخارجيّة البريطانيّة التي نشرت في الأعوام التالية على انقضاء فترات الحظر وبمقتضى قوانين إذاعة الأسرار الرسميّة بعد ثلاثين عامًا، ولم تشر من بعيد أو قريب لحادثة اختفاء الكوماندور كراب والظروف التي صاحبتها، بقدر كشفها عن خداع رئيس الحكومة البريطانيّة، آنذاك، أنطوني إيدن، في تداوله الردّ على تساؤلاتهم عن الاجتماع السوفياتي، واختفاء الكوماندور كراب وأسرار عمليّة الغزو العسكري للسويس.

غير أنّ عمليّات التعتيم المتعمّد لم تحل دون تناول بعض المحلّلين العسكريّين والمهتمّين بالتاريخ لأحداث الحرب الباردة ومن بينها معارك الصمت بين بريطانيا والاتّحاد السوفياتي في الستّينات من طرح نظريّاتهم ووجهات الرؤية المختلفة حول العمليّة التي اختفى فيها الكوماندور ليونيل كينث فيليب كراب في أعماق خليج مدينة بورموث الساحليّة عام ١٩٥٦.

وفي كتاب حمل عنوان "الكوماندور كراب ما زال حيًّا"، أكّد مؤلّفه "برنارد هاتون" أنّ كلاً من وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA والبحريّة الملكيّة البريطانيّة كان متعطّشًا لكشف أسرار عمليّة المناورة التي قامت بها المدمّرة السوفياتيّة ساوردزنونيكيدز في مياه خليج بورموث خلال فترة زيارة الزعيمين خروتشوف والماريشال بولغانين لبريطانيا في شهر نيسان - إبريل ١٩٥٦، وقد دفعت هذه الرغبة كلا الجهازين الأميركي والبريطاني إلى تكليف الكوماندور كراب القيام بمهمّة التجسّس في أسفلها، وجمع المعلومات عن أحدث المعدّات التي زُوّدت بها، والمهمّة السريّة التي كُلّف بها طاقمها أثناء انتظاره انتهاء زيارة الزعيمين السوفياتيّين، واستكمالاً لمهمّة

سابقة كُلِّف بها أيضًا الكوماندور كراب قبل عام ١٩٥٥، لنفس الغرض، مع شقيقتها المدمّرة سفيريلوف في مياه خليج بورموث أيضًا.

كما استند مؤلّف بريطاني آخر هو "هاري هيوتون" في كتاب حمل عنوان "عمليّة بورتلاند" في تفسير النظريّة السابقة لسرّ تفاصيل رواية افتراضيّة عن مهمّة كراب التجسّسيّة أكّد بها أنّ الجاسوس والضفدع البحري المدرّب، بعد أن غاص في أسفل المدمّرة، قام بزرع لغم بحري خاصّ على مقربة من قاع المدمّرة، بهدف اكتشاف إذا ما كان لدى الروس أجهزة حديثة داخل المدمّرة يمكنها كشف اللغم المزروع، فإنّهم في هذه الحالة سوف يستخدمونها لتحديد موقعه وتدميره عن طريق نبضات الإشعاع، الأمر الذي لن يكلّفهم كثيرًا، ولن يتسبّب في إلحاق أضرار بالمدمّرة ذاتها، وكذلك يمكن للمراقبين البحريّين البريطانيّين في المنطقة مراقبة وتسجيل الكيفيّة التي تصدّى بها الروس لهذا اللغم المزروع.

إلاّ أنّ النظريّة الافتراضيّة التي طرحها هيوتون في كتابه "عمليّة بورتلاند" كانت بعيدة عن التصديق عمليًّا لسبب بسيط هو أنّه من المستحيل القيام بمثل هذه العمليّة في أسفل مدمّرة حملت أبرز زعيمين سوفياتيّين في أوّل زيارة وديّة لهما لبريطانيا في تلك الآونة، وما قد يترتّب على افتضاحها من توتّر في العلاقات بين بريطانيا والاتّحاد السوفياتي، وزرع جذور لخلافات قد تمتدّ أبعد كثيرًا من أعماق مياه خليج بورموث. على أنّه في إصدار ثالث ألّفه الصحافي البريطاني والخبير في الشؤون الأمنيّة "تشابمان" نشر بعنوان "سرّي للغاية ومحظور"، شرح وجهة نظر أخرى اعتمدت على رغبة مخابرات البحريّة الملكيّة البريطانيّة الكشف عن إمكانات المدمّرة السوفياتيّة ومدى تزوّدها بمعدّات حديثة كاتمة للصوت، تتمكّن من اكتشاف وتحديد مواقع الألغام المزروعة في الأعماق، وفي سبيل هذا الغرض، لجأت المخابرات البريطانيّة إلى

تكليف الكوماندور كراب القيام بعمليّته التجسّسيّة التي أطلقت عليها الإسم الرمزي "آغوتي"، ويقوم خلالها الكوماندور كراب، الذي كُلّف بأداء المهمّة، بتحديد أماكن الفجوات الخاصّة في قاع المدمّرة السوفياتيّة التي تعمل على خفض حدّة الأصوات الصادرة عن متفجّرات الأعماق المزروعة...

ولكن مثل هذه المهامّ الصعبة لم تكن تتطلّب أداء ضفدع بحريّ مهما كانت تجربته وخبرته، فضلاً عن أنّها كانت تجري تجاربها بالفعل في أحدى وحدات العمليّات البحريّة الخاصّة من خلال عدّة غوّاصات اتّخذت مواقعها في أعماق المياه الإقليميّة حول ميناء بورموث، ولم تكن هناك حاجة على الإطلاق لتكليف الكوماندور كراب القيام بعمليّة تجسّسيّة محكوم عليها بالإخفاق لمجرّد اقترابه من قاع المدمّرة السوفياتيّة الراسية في أحد خلجان بورموث آنذاك.

أمّا الإصدار الرابع الذي ذهب بعيدًا في تفسير الغموض المحيط باختفاء الكوماندور كراب وتفاصيل المهمّة التي كُلّف بأدائها في أسفل قاع المدمّرة السوفياتيّة، فقد وردت في كتاب صدر في تلك الحقبة، وضعه "جون فيشر" بعنوان "برجس وماكلين"، تناول فيه نماذج الجواسيس والعملاء الذين زرعتهم المخابرات السوفياتيّة في الساحة البريطانيّة والنماذج البريطانيّة المضادّة، وأساليب الدهاء والخداع التي استخدمها الطرفان البريطاني والسوفياتي في معاركهما الصامتة آنذاك.

ذهب فيشر في تفسيره الخاصّ للمهمّة التي كُلّف بها الكوماندور كراب في أسفل المدمّرة السوفياتيّة إلى أنّها كانت تنحصر في جمعه المعلومات عن الفتحات الخاصّة في قاع المدمّرة، والتي تطلق منها الألغام البحريّة النوويّة، وتصويرها بدقّة، وتسليم تقاريره وصوره بعد انتهاء المهمّة إلى المخابرات البحريّة الملكيّة البريطانيّة لتحليلها والكشف عن مدى التقدّم التقني الذي أحرزه السوفيات في هذا المجال.

إلاّ أنّ النظريّات التي استند إليها جون فيشر في تفسيراته وعرضه للرواية الافتراضيّة، أهملت جانبًا هامًّا في إضفاء المصداقيّة على روايته، وهو جانب التصوير في الأعماق، وإمكانيّة اصطحاب الكوماندور كراب لإحدى الكاميرات الخاصّة بمثل هذه العمليّات والتي لم تكن قد تطوّرت بالصورة التي هي عليها الآن. وعلى افتراض حمله لمثل هذه الكاميرا، فإنّها ستكون ذات حجم كبير يعوق حاملها عن أداء مهمّة دقيقة مثل تلك المهمّة التي كُلّف القيام بها، والتي افترض فيشر أنّها قد أصيبت بالإخفاق بسبب احتكاك كهربائي نجم عن شحنتها، أدّى إلى غرق حاملها الكوماندور كراب نفسه.

مع هذه الروايات والنظريّات التي طرحها الصحافيّون والكتّاب والمتخصّصون في الشؤون الأمنيّة في كتبهم المتلاحقة لإزالة الغموض في حادثة اختفاء الكوماندور كراب، بقي السؤال الوحيد المطروح بعلامة استفهام كبيرة يقول: على افتراض إخفاق الضفدع البحري المدرّب، والمزوّد بتجاربه البطوليّة في معارك الحرب العالميّة الثانية... فأين هي جثّته إذا كان قد قُتل أو صُعق؟ وليس من الأكثر تصديقًا ومنطقيّة في تفسير اختفائه أنّه قد أُلقي القبض عليه واختُطف إلى داخل المدمّرة السوفياتيّة نفسها التي كُلّف بالتجسّس عليها. وإذا كان ذلك قد حدث، فهل يكون من المعقول قيام الروس بالكشف عن وجوده لديهم؟

المثير في تلك الشخصيّة الأسطوريّة، شخصيّة الكوماندور كراب، هو أنّه في تلك الآونة التي كُلّف القيام بمهمّته التجسّسيّة في أسفل قاع المدمّرة السوفياتيّة عام ١٩٥٦، كان في السادسة والأربعين من عمره، يدخّن ويحتسي الخمر بشراهة وإلى حدود الإدمان، فضلاً عن أنّه كان قد تمّ تسريحه من العمل في البحريّة الملكيّة البريطانيّة رسميًّا، وأنّه اختار لحياته المدنيّة العمل في تجارة الأثاث والمقتنيات الفنيّة، ولم يعد

يُعرف عنه الكثير سوى تردّده الدائم على الحانات الرخيصة في المدن والموانئ الساحليّة جنوب إنكلترا.

كما لم تكن له أيّ علاقات نسائيّة أو صديقات دائمات يمكن الاعتداد بشهادتهنّ لفكّ الرموز والألغاز التي برزت بعد الإعلان عن اختفائه. فضلاً عن أنّ القلّة المحدودة من الأفراد الذين ارتبطوا بعلاقة الزمالة معه في الماضي، توفّي معظمهم، ومن بقي منهم لم يعد لديه من تفاصيل يدلي بها بشكل معلومات عنه سوى أنّه اختفى في ظروف غامضة لا يعرف أحد عنها شيئًا.

حتّى إذا وُجد من بقي على قيد الحياة، فلن يستطيع إذا أسعفته الذاكرة أن ينتهك قوانين الأسرار الرسميّة ويدلي بمعلومات لها قيمتها.

ولكنّ الأكثر إثارة في حالة اختفاء الكوماندور كراب، هو عثور أحد الصيّادين في السواحل القريبة من مدينة "تشيستر"، جنوب إنكلترا، بعد أربعة عشر شهرًا من حادثة الاختفاء، على جثّة مشوّهة مقطوعة الرأس والذراعين، تحتويها ملابس جلديّة من الطراز الإيطالي، الذي يستخدمه الغوّاصون، مطابقة لنفس الملابس التي كان يرتديها الكوماندور كراب عند اختفائه، ويفضّلها عادة على ملابس الغوّاصين التي تزوّده بها مخازن البحريّة البريطانيّة.

عقب نقل الجثّة المفتقدة لأيّ هويّة تشير إلى صاحبها إلى مشرحة الطبّ الشرعي في بورموث، سيطر مزيد من الغموض على المسؤولين في المشرحة أمام مأزق تحديد هويّة صاحب الجثّة لعدّة أيّام قبل أن تتدخّل المخابرات البريطانيّة، من خلال بعض عناصرها الذين أسرعوا إلى المشرحة ليشاركوا الخبراء في فحصها، وانتهت مهمّتهم بصدور بيان مقتضب يؤكّد أنّ الجثّة المكتشفة للكوماندور نيل كنيث فيليب كراب. وكما هي العادة، تمّت عمليّة وضعها في صندوق خشبي سُجّل عليه في لوحة

صغيرة إسمه وتاريخ ميلاده ووفاته، ونقلت الجثّة لدفنها في أحدى مقابر مدينة بورموث في احتفال صغير لم يحضره سوى أمّ الكوماندور كراب وبعض الوجوه المجهولة من كبار ضبّاط المخابرات البريطانيّة وقسّ يحترف إلقاء الأدعية والصلوات على جثث المجهولين... غير أنّه بعد دفن الجثّة، ظهرت إحدى السيّدات التي زعمت أنّها كانت خطيبة سابقة للكوماندور كراب، وتدعى "باتريشيا روس"، لتردّد بين أوساط السكّان المحليّين في مدينة بورموث داخل إحدى حاناتها، أنّها ظلّت على صلة وثيقة بالكوماندور كراب، وفي الفترة السابقة على إعلان اختفائه، وأنّها على يقين من أنّ إحدى فرق طاقم المدمّرة السوفياتيّة قامت باختطافه عقب افتضاح وجوده في أسفل المدمّرة، وعادت به إلى موسكو، وأنّ الجثّة التي تمّ دفنها في مقابر مدينة بورموث لا علاقة لها بالكوماندور كراب، وأنّ حقيقة عمليّة الاختفاء ما زالت محاطة بستائر التعتيم ولن يكشف النقاب عنها إلى الأبد.

قبل أن يصل الصحافيّون والمهتمّون بمتابعة كشف الحقيقة في أسطورة الضفدع البحري والجاسوس البريطاني نيل كنيث فيليب كراب إلى باتريشيا روس، والقيام بمحاولات استنطاقها للحصول على مزيد من المعلومات عن تلك الشخصيّة الأسطوريّة، كانت السيّدة روس، قد توفّيت متأثّرة بإصابتها بالسرطان، وسقطت إحدى الحلقات المفقودة في أيّ محاولة لكشف النقاب عن تفاصيل حقبة الخمسينات[١].

---

١ ـ المرصفي طلعت، أوراق مجهولة من ملفّات المخابرات العالميّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٥) ص٨٧ ـ ١٠٠.

المراجع والفهرس

لائحَة المَراجع

أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ ـ ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران، دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١)

الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧)

رصاص د. محمود سيّد، الاستخبارات الأميركيّة المركزيّة غول وعنقاء وخلّ، ماذا فعلت؟ دار المعرفة (دمشق، ١٩٨٨)

زهر الدين د. صالح، عمليّات وقرصنة إلكترونيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سرّيون غيّروا مجرى التاريخ، ترجمة مصطفى الرز، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٩)

فيتالي فاشيلفتش بتروستكو، البيت الأبيض والاستخبارات الأميركيّة، ترجمة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر (دمشق، ١٩٨٩)

كيسلل رونالد، داخل السي أي أي وكالة المخابرات المركزيّة، ترجمة مالك فاضل البديري، الأهليّة للتوزيع والنشر (عمّان، لا.ت)

مجلّة "الحرس الوطني" السعوديّة.

المرصفي طلعت، أوراق مجهولة من ملفّات المخابرات العالميّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٥)

وود جان، جواسيس للبيع، ترجمة لطيف الناصر، دار الحسام (بيروت،١٩٩٠)

Agabekov Georgi, *OGPU,* Brentano's (New York, 1931)

Anderson J. K., *Anatomy Of Error,* (London,1970)

Avrich Paul , *Kronstadt 1921* (Princeton University Press, 1971)

Brandon H. & Kalvelge C, *American Government Like It Is* (New York,1972)

Brook-Shepherd Gordon, *The Storm Petrels,* Collins (Londres,1977)

Carr E. H., *The Bolshevik Revolution 1917-1923,* Macmillan (Londres,1953)

Churchull Winston S., *Great Contemporaires,* Odhams (London,1947)

Fay P. B. Jr., *The Pleasure of His Company,* (New York,1966)

Fomine Fédor Timofiëevitch , *Zapiski Storogo Chekita,* ٢eme éd., Politizdat (Moscou,1964)

Gerson Leonard D, *The Secret Police in Lenin's Russia,* Temple University Press (Philadelphia,1976)

Gordievsky David, *The Secret War Against Soviet Russia,* éd. du Progrès, (Moscou,1981)

Gross Babette, *Willi Münzenberg: A Political Biography* (Michigan University Press, 1974)

Halerstam D., The *Best And The Brightest,*(New York, 1972)

Hart-Davis Rupert, *The Autobiography of Arthur Ransome,* (Londres,1976)

Hosking Geoffrey, *A History of the Soviet Union,*, Fontana (Londres,1958)

International Herald Tribune.

Jane Degras, *The Communist International, 1919-1942 Documents,* Oxford University press, vol. I (Londres,1956)

Johnson H., *The Bay of Pigs*, (New York, 1964)

Kuusinen Aîno, *Before and After Stalin* (Londres,1974)

Lazitch Branko et Drachkovitch Milorad M., *Lemin and the Comintern,* vol. I, Hoover Institution Press (Stanford,1972)

Leggett George, *The Cheka: Lenin's Political Police,* Oxford University Press (Oxford,1981)

Melgounou S. P., *The Red Terror in Russia* (London,1925)

Meynell Francis, *My Lives* (Londres,1971)

Nett J.P., *Rosa Luxemburg*, vol. 2 (Londres,1966)

Nixon R. M., *The Memoirs,* Vol. 1, (New York,1979)

Nixon R. M., *Six Crises*, (New York, 1968)

Pelling Henry, *The British Communist Party,* A et C. Black, (Londres,1975)

Poretsky Elizabeth, *Our Own people,* Oxford University Press (Londres,1969)

Powers Th., *The Man Who Kept The Secrets,* Richard Helms and the CIA (New York,1979)

Report Of The Select Commitee On Assassinations, U.S. House Of Representatives, Ninety - Fifth Congress, Second Session, (Washington,1979)

Schlesiger A. M. Junior, *A Thousand Days, John Kennedy In TheWhite House,* (Boston,1965)

Sorensen Th., *Kennedy,* (New York,1966)

Summers A., *Conspiracy,* (New York1980)

The Pentagon Papers, (New York1971)

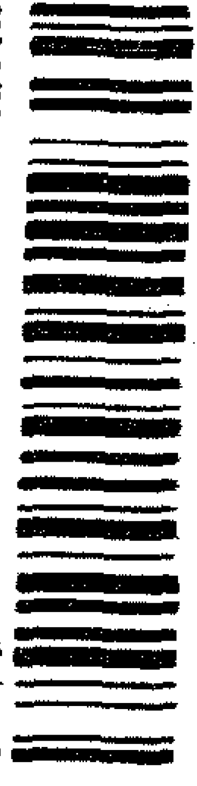
US . News And World Report.

Waxmonsky Gary R., Police and Politics in Soviet 1921-1928 (Princeton University, 1982)

Zohar Michel Bar, *J'ai Risqué ma Vie (Isser Harel No. 1 des Services Secrets Israëliens)* Ed. Fayard (Paris,1971)

الفهرس

الموضوع	الصفحة


Bibliotheca Alexandrina
0586417